

محمد الباز

أفكار ومشانق









الفارس

للنشر والتوزيع



الكتـــــاب : افكار ومشانق
المؤلـــــف : محمد الباز
تصميم الغلاف: عمرو عطوة
جرافيـــــك : صابر على صابر
رقم الأيـــداع : ٢٠٠٤/١٥٤٦٤

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الاولى
٢٠٠٤م



للنشر والتوزيع
٢٦ ش محمد قاسم حدائق المعادى ـ القاهرة
فاكس : ٥٧٣٣٢٧٩ ـ ت محمول ٠١٢٤٠٧٥٧٦١ ـ ٠١٠٥٠٩٨١٠٦

في داخل كل منا بذرة نبي وبذرة شيطان.. ولما كان الأمر ليس بأيدينا.. فنحن مساقون إلى مصير نجهله.. نصبح أنبياء فنصلح الكون بأفكارنا وأحلامنا وأعمالنا ونصبح شياطين فنذيق خلق الله العذاب.. مرة باسم المال – ومرة باسم السلطة.. تسيطر علينا الشهوات فنأخذ ما نريد مخلفين وراءنا أفواه جائعة.. وبطون مبقورة.. وقلوب مكلومة.. وأرواح مهشمة ، فالمهم أن نسعد حتى لو كان ذلك على حساب الآخرين هذا الكتاب فيه بعض من الأنبياء.. وكثير من الشياطين.. ابحث عن نفسك بين سطوره.. فقد تجدها .

الباز

خريف

عمرو موسى

1

خريف عمرو موسى

ذهب عمرو موسى إلى قمة مجلس التعاون الخليجى معتقدا أنه يستطيع امتصاص الخلافات التى نشبت بين بعض دول الخليج وبين الجامعة العربية ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث.. لم ينته الأمر بالفشل فقط لكن أضيفت إليه إهانات شديدة لاندرى لماذا يتحملها أمين عام جامعة الدول العربية؟!.. وهو الذى كان دائما صلبا لايلين.. لا يقبل الإهانة.. ولا يتحمل تعدى أحد عليه !

منذ سنوات كان وزير الخارجية الإسرائيلى فى زيارة إلى القاهرة.. وبعد أن أنهى مفاوضاته مع عمرو موسى خرجا لعقد مؤتمر صحفى.. انهال الصحفيون على الوزير الإسرائيلى.. واجهوه بما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين.. اتهموا حكومته بممارسة كل أشكال العنف ضد شعب أعزل.. كان الوزير الإسرائيلى صفيقا زيادة عما ينبغى.. فقال للصحفيين المجتمعين حوله: لماذا تسألون عما نفعله بالفلسطينيين؟ ولا تسألون وزيركم عما تفعله به حكومتكم؟!.. لم ينتظر عمرو موسى.. ترك المؤتمر الصحفى محتجا على تطاول الوزير الإسرائيلى ، لم يلتفت للبروتوكول.. فقد أخطأ الوزير الإسرائيلى.. ولابد أن يعرف أنه أخطأ.. تعدى على بلد تستضيفه.. ولابد أن يعرف أنه تعدى .

كانت هذه الحركات تخيل على الناس.. كانوا ينتظرون أن يطل عمرو موسى عليهم من شاشة التليفزيون.. كانوا يستمتعون بتصريحاته النارية أيام كان وزيرا

للخارجية كانوا يعتبرونه وزيرا يسير خارج السرب حرا جريئا لا يخاف.. يعارض وينقد ويتحدث بحماس غير منقطع النظير ، ظل عمرو موسى وهو فى الوزارة النغمة الجميلة فى أحاديث بسطاء هذا الوطن.. كان يعوضهم عن كم الخنوع والخضوع الذى يشاهدونه على الشاشات العربية .

فى وسط الزفة التى كان يسير فيها عمرو موسى والتى توجها المطرب الشعبى شعبان عبد الرحيم بأغنيته "باكره إسرائيل.. وباحب عمرو موسى" خرجت بعض الأصوات التى اعتبرت عمرو موسى مجرد ظاهرة صوتية.. شجاعته ليست إلا كلاما.. وحماسه ليس إلا دخانا سرعان ما يتبدد فى الهواء.. جاءوا بكل ما قاله تعليقا على ما يجرى على الأرض العربية فلم يجدوا فيه سوى الثلاثية العربية الشهيرة.. وهى الشجب والأدانة والاستنكار.. وكل الفارق.. أن عمرو موسى كان يشجب بصوت عال ويدين بحماس ويستنكر بغضب.. لم تلق هذه الأصوات أى اهتمام.. فقد كان عمر موسى يجيد التعامل مع الكاميرا.. كان يخطف الأضواء فى أى مكان يوجد فيه ولذلك طالت فترة نجوميته .

خلال وجوده فى وزارة الخارجية والتى قضى بها عشرة أعوام كاملة كانت كلمته هى الأعلى.. صوته هو الأوضح.. لكنه عندما انتقل من مبنى وزارته الهائل عام ٢٠٠١ إلى مبنى جامعة الدول العربية كأمين لها أصبح هو واسمه وتاريخه فى مهب الريح.. دخل ثلاجة الجامعة العتيقة وجلس فيها يعانى من الفراغ السياسى والدبلوماسى.. حاول أن يقوم بدور ملموس.. لكن الخلافات العربية كانت أقوى منه.. بدا فى كل مرة ضعيفا هزيلا.. للدرجة التى نصحه فيها محبوه أن يستقيل ويحفظ ماء وجهه.. ويحفظ ما تبقى من كرامته السياسية !

لم يسمع عمرو موسى لصوت العقل.. ولذلك جنى الأشواك وفى قمة مجلس التعاون الخليجى جرت مشاهد عبثية متتالية.. عقدت القمة فى الكويت التى لم تهدأ نار خلافاتها مع عمرو موسى بعد - لم يستقبله أى "مسئول كبير فى المطار

مجرد موظف صغير ذهب ليستقبله رغم أنه أمين عام الجامعة العربية.. ومن الوهلة الأولى كان يجب أن يعتذر عمرو موسى.. لكنه لم يفعل.. ربما لأنه لم يكن يريد أن يحيى نار الخلافات مرة أخرى بين الجامعة وبين الكويت.. بعد أن قال مؤخرا إن معارضة الغزو والاحتلال الاجنبى لا تعنى الانحياز ضد الكويت.. ولذلك أكمل زيارته ومشاركته فى أعمال القمة .

بعد ساعات حدث ما هو أفظع.. ولا أدرى كيف استقبله عمرو موسى؟!.. ولا كيف ارتضاه بعد ذلك؟! سأل الصحفيون عبد الله بن زايد وزير الأعلام الاماراتى عن تطورات الخلاف بين الأمارات والجامعة العربية وأمينها العام السيد عمرو موسى؟ وبسرعة قال وزير الأعلام الاماراتى.. من.. أنا لا أعرف أحدا اسمه عمرو موسى.. ماذا يعمل ؟ كان المعنى واضحا للغاية وكانت الإهانة مقصودة.. وكل من سمعها عرف أن الوزير الاماراتى كان يقصد ما يقوله.. فهو يعرف جيدا حجم وقيمة عمرو موسى.. لكنه أراد أن يهينه ويقلل من شأنه للدرجة التى يوحى فيها لمستمعيه أنه لا يعرفه من الأساس .

تصريح وزير الأعلام الاماراتى جاء على خليفة ما حدث فى مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى شرم الشيخ فى مارس الماضى قبل احتلال العراق بأيام ، كان الشيخ زايد قد تقدم بمبادرة إلى القمة تقضى بأن يتخلى صدام حسين عن الحكم فى العراق مقابل أن يتم تأمينه وتأمين أسرته.. رغم أهمية المبادرة.. وحساسية التوقيت إلا أن عمرو موسى لم يلتفت لها ولم يدرجها فى جدول أعمال القمة.. فلم تتم مناقشتها.. أعتبر الاماراتيون أن ما حدث إهانة ضخمة موجهة إليهم عن عمد.. ليس هذا وفقط .. فقد أغضب عمرو موسى الأمارات العربية عندما تجاوب مع الطلب الذى تقدمت به إيران للجامعة العربية لجعلها مراقبا كانت الامارات تريد عمرو موسى أن يرفض الطلب بشكل نهائى.. لكن عمرو موسى كانت له وجهة نظر أخرى.. حيث سيعرض الطلب الايرانى على مجلس

وزراء الخارجية العرب وهم وحدهم لهم القول الفصل فى قبول أو رفض هذا الطلب والبحث فى جميع الأمور المتعلقة بالطلب الايرانى.. اعتراض الامارات جاء لأن ايران مازالت تحتل بعض الجزر العربية.. فكيف يتم قبولها كمراقب فى جامعة الدول العربية؟!

قد يكون للإمارات حق فيما فعلته.. وللكويت قبل ذلك حق فيما قالته عن عمرو موسى فهما تعبران عن مصالحهما السياسية.. لكن من ليس له الحق فى موقفه هو عمرو موسى ، لقد كان يتصرف حيال أية إهانة توجه إليه بقوة.. فلماذا يتحمل الآن الإهانة تلو الإهانة؟! وهو صامت لماذا أصبح رد فعله بطيئا للغاية؟!.. هل أثرت عليه الجامعة العربية ببلادتها القاتلة؟! إن عمرو موسى لم يحاول حتى أن يلوم وزير الإعلام الاماراتى.. بل أصبح يردد اسطوانة مشروخة فى كل مكان يصل إليه وهو أن الخلاف فى الرأى جزء من طبيعة الحياة السياسية لكنه لا يفسد للود قضية .

أية قضية تلك التى يدافع عنها عمرو موسى.. وأى ود هذا الذى يقصده؟!.. إن عمرو موسى قامة هائلة وتاريخ فى العمل الدبلوماسى بدأه منذ تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام ١٩٥٧ ، يحمل على كتفيه الآن سبعة وستين عاما من العمل والإنجاز.. ومن الأفضل له أن يحتفظ بما أنجزه.. لا أن يفرط فيه ويشوهه.. بعد أن جعل نفسه - وعفوا فى التعبير - ملطشة ، إن الإهانات التى وجهت لعمرو موسى لن تكون الأخيرة إذا ظل على صمته.. وقبوله للإهانة لها ورضاه بها .

ليس مطلوبا من عمرو موسى أن يرد الإهانة .. فساعتها سيدخل نفسه فى مهاترات لن تجدى ولن تفيد أحدا.. كل المطلوب منه أن يستقيل.. أن يعلن للعالم العربى أنه ليس مستعدا لتحمل آثار تمزقه وانشقاقه وانحطاطه.. لماذا لا يتفرغ للمشروع الذى أعلن عنه أكثر من مرة وهو رغبته فى أن ينشئ مركزا للدراسات

والبحوث السياسية والفكرية.. وهو المركز الذى ينوى موسى أن يتخذ منه عملا خاصا يمثل اجتهاداته ولا يخضع لإشراف أية جهات رسمية لماذا لا يفعلها عمرو موسى الآن وليس غدا لماذا ينتظر حتى يغلق الستار عليه وهو واقف على مسرح انصرف عنه المشاهدون .

لقد تحمل عمرو موسى من الإهانات ما لم يتحمله بشر.. فى كل مرة كنا نقف لمن يتهجمون عليه.. لكننا الآن نسأله هو.. ما الذى يجبرك على أن تتحمل؟!.. هل تنتظر منصبا آخر يعطيك مالا وشهرة وجاها أكثر مما تملك؟!.. هل وعدك أحد بشيء لا تستطيع أن تحصل عليه بأفكارك وقدراتك الذاتية ولذلك تخضع؟!.. أم أنك تعتقد أنك نبى جديد جاء بسفينة نوح لينقذ هذه الأمة من الهلاك؟! نطمئنك يا سيدى العزيز أن الهلاك أصبح تاما ولا فرصة لأى نجاة فأنقذ نفسك .. قبل أن تفقدها إلى الأبد .

لم يعد أمام عمرو موسى إلا أن يحفظ ماء وجهه ويغلق الباب فى وجه كل الذين أهانوه.. ويرمى استقالته بكل قوته ويعتزل كل هذا "العك" السياسى.. لكن الرجل الكبير لا يسمع الكلام فصوته دائماً من رأسه.. قبل ذلك طرحت سؤالاً على عمرو موسى قلت فيه: لماذا يتحمل كل هذه الإهانات التى تلقيها على رأسه الأقطار العربية الشقيقة؟! وبعد النشر وجدت أمين عام الجامعة العربية على التليفون.. قال لى ببساطة إنه يتفق معى فى أن تصرفات بعض الدول العربية زادت على الحد.. وهدفهم فى النهاية أن يترك منصبه.. أن يستقيل لكنه لن يفعل ذلك لأنه يحمل أفكاراً لإصلاح الجامعة العربية وإخراجها من موتها.. وسيتمسك بمنصبة مهما كلفة ذلك ، قلت له: الناس فى الشارع المصرى تحديداً يريدون أن يسمعوا هذه الأفكار ، يريدونك أن تبرر لهم تحملك لكل هذه الإهانات فأنت بالنسبة لهم نموذج سياسى نادر يفتقدونه فى زمن بلا قيم.. وعدنى بأن يتكلم.. لكن يبدو أن انشغاله بإصلاح الجامعة (!!) حال دون أن نلتقى ولو لدقائق .

الآن ماذا يقول عمرو موسى؟.. وهل مازال عند رأيه؟.. قبل أيام من قمة تونس التى تم اغتيالها فى مهدها قال عمرو موسى إن القمة العربية المقبلة فى تونس تشكل مفترق طرق حقيقياً وأن المرحلة الحالية سيئة ودقيقة وخطيرة.. وسيكون أمام القادة العرب مقترحات محددة وفرصة إما أن يقوموا بإصلاح الجامعة أو يبقى الحال كما هو عليه.. الآن لم يبق الحال على ما هو عليه لكنه ازداد سوءاً وتدهوراً وانحطاطاً.. فماذا ينتظر عمرو موسى؟.. ألا يملك قراره؟.. ألا يستطيع أن يأخذ موقفاً يحسب عليه؟.. لقد استقال الشاذلى القليبى الأمين العام الأسبق للجامعة عندما رأى مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى أغسطس ١٩٩٠ يخضع لأمريكا ويأخذ قراراً بمشاركة الجيوش العربية فى قوات التحالف الأمريكية ، واستقال الأمين العام محمود رياض الذى سبق القليبى مباشرة احتجاجاً على زيارة الرئيس السادات للقدس المحتلة عام ١٩٧٧ ، فهل عمرو موسى أضعف من هؤلاء؟.. لا أعتقد ذلك .

قد يكون عمرو موسى رجلاً عنيداً للغاية.. تاريخ حياته يقول ذلك.. فهو من مواليد ٣ أكتوبر ١٩٣٦ ، قضى معظم سنوات عمره فى دهاليز العمل الدبلوماسى المصرى والعربى.. فبعد أن حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة بعام واحد وفى ١٩٥٨ التحق بالسلك الدبلوماسى ملحقاً فى الخارجية المصرية.. فى عام ١٩٧٧ أصبح مديراً لإدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجية ، وفى عام ١٩٨١ أصبح مندوباً لمصر لدى الأمم المتحدة.. ومن الأمم المتحدة سافر إلى الهند عام ١٩٨٣ سفيراً لمصر هناك.. وبعد ثلاث سنوات عاد مرة أخرى ليشغل منصبه الأول مديراً لإدارة الهيئة الدولية بوزارة الخارجية ، وفى عام ١٩٩٠ عمل مندوباً دائماً لمصر وهو المنصب الذى ظل فيه عشر سنوات.. ثم تركه ليتولى منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية عام ٢٠٠١ .

رأى عمرو موسى خلال حياته المهنية الطويلة انتصارات وانكسارات.. فتوحات وهزائم.. مد وجزر.. وبدلاً من أن تأتيه الأيام بما يره.. قذفته بما يؤلمه.. لا أعرف فى أى شيء يفكر أمين عام جامعة الدول العربية الآن.. لكنى أعتقد أنه ينظر خلفه بغضب.. ويتأمل ما هو فيه بتوتر.. كان يظن أن الأيام القادمة ستساعده على تحقيق أحلامه.. لكنها كسرته.. بعثرت كرامته.. أهانت تاريخه.. وتصوروا رجلاً بكل هذا [illegible] من الاعتزاز بالنفس وبعد أن تأخذ تونس قرارها المنفرد بتأجيل القمة يطلب عمرو موسى ومعه عدد من وزراء الخارجية العرب مقابلة الرئيس التونسى.. لعله أراد أن يعرف أسباب ما حدث.. فقد كان القرار الذى صدر دون أن يعرف أو يخطر به مثل صفعة موجهة له شخصياً.. لكن الرئيس التونسى رفض المقابلة بحجة أنه مصاب بأنفلونزا حادة.. كيف تحمل عمرو موسى هذا الموقف؟.. أم أنه لم يفكر من الأساس؟.. لقد تعجبت عندما سأل أحد المراسلين موسى بعد القرار قال له : هل تأجيل القمة سيجعلك تقدم استقالتك؟.. توقعت أن يقول عمرو موسى لقد استقلت بالفعل.. لكنه ويا للصدمة قال: لا تعليق .

لا تعليق على أى شيء يا سيادة الأمين العام.. على الاستهانة بمنصبك.. على خذلان الحكام العرب لشعوبهم.. على الخضوع الكامل للضغوط الخارجية.. أم أن هناك شيئاً لا نعرفه ولا تريد أن تفصح عنه؟.. إن عمرو موسى وكما قال لى فى اتصاله التليفونى لا ينتظر مالاً أكثر من منصبه فلديه ما يكفيه.. ولا يريد شهرة.. فشهرته أصبحت طاغية للدرجة التى جعلت فئات عديدة من المجتمع المصرى تطالبه بترشيح نفسه لمنصب الرئيس.. فماذا يريد بعد أن تحولت أحلامه إلى أوهام.. وأفكاره إلى سراب.. ومشروعاته لإصلاح الجامعة إلى حطام؟ .

إن الآلام التى يعيشها عمرو موسى الآن لا يعانيها رغماً عنه.. فهو مسئول عنها بدرجة كبيرة.. وأخشى أن أقول إنه مستمتع بها ويطلب المزيد منها طمعاً

فى أن يصبح مسيحاً جديداً يقدم حياته لإنقاذ سفينة الأمة العربية التى تركها الجميع لتغرق ولم يبق فيها سوى الفئران والبوم والغربان.. ثم إن عمرو موسى لا يريد أن ينتهى هذه النهاية المؤسفة.. فطوال حياته لم يعرف الفشل.. فكيف يختم حياته بسقوط مدو على أيدى الحكام العرب؟.. وكيف يرفع الراية البيضاء ويستسلم تاركاً الساحة بدونه وهو الرجل الذى عاش حياته تتبعه الأضواء أينما حل وحيثما رحل؟ .

إننى أصدق عمرو موسى عندما يقول إنه يعمل من أجل الصالح العام.. ولا أعطى أذنى كثيراً لمن يقولون إن الأمين العام ما هو إلا مشروع فردى يقوم وينام من أجل بناءه وإعلاء جدرانه ولا يهمه بعد ذلك أن يهدم المعبد على رءوس ساكنيه ، وهذا ليس إلا من غثاء القول وسخافاته.. والشواهد كثيرة.. كان عمرو موسى لا يزال وزيراً للخارجية.. وفى مدينة لوس أنجلوس دعا أبناء الجالية العربية ليلتقى بهم فى لقاء مفتوح.. نظمت اللقاء اللجنة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز وجاءه العرب من كل مكان .

تحدث يومها عمرو موسى عن القضايا التى تشغل المواطن العربى فى كل مكان .. وجنح بحديثه إلى الإصلاح الاقتصادي فى مصر ودعا أبناء الجالية العربية إلى الاستثمار فيها .. ودعا الموجودين كذلك إلى تقوية اللوبى العربى وليكن لنا وجود قوى يحمى مصالحنا فى كل مكان.. بعد ذلك توالت الأسئلة من العرب الغاضبين قالوا له: ماذا عن قصف لبنان؟ ولماذا الكلام لكم والفعل دائماً لإسرائيل؟ وهل ما يقوم به العرب سلام أم مجرد استسلام؟ وماذا عن أطفال العراق؟ وأين دور مصر الحقيقى ؟ وماذا عن الانفتاح السياسى والديمقراطية الحقيقية فى مصر ؟ لم ينفعل عمرو موسى يومها رغم أن الأسئلة كان فيها كثير من الحدة .

جاءت إجابات مزيجاً من الصراحة والدبلوماسية.. لأنه يعرف كيف يتحدث.. ومتى يصمت.. فى هذا اللقاء قامت سيدة قبطية وتحدثت بقسوة عن التمييز العنصرى والذى أدعت أن الحكومة المصرية تمارسه فى الوظائف بين المسلمين والأقباط.. حاول عمرو موسى أن يرد عليها بالمعلومات وبهدوء لكنها لم تعطه الفرصة.. قال إن التوظيف له قوانين ولوائح.. لكن السيدة كالت له الشتائم واتهمته بأنه كاذب ومخادع.. ولم تصمت السيدة إلا بعد أن اضطر منظموا اللقاء أن ينهوه.

وضح للجالية العربية وقتها أن شعبية عمرو موسى التى وصلتهم عبر أخبار الصحف لم تكن من فراغ.. فهو وكما أثبت يمثل حالة خاصة لسياسى عربى يحاول أن يعمل من داخل النظام السياسى العربى لتحقيق حد أدنى من المكاسب التى يطمح إليها العرب محلياً داخل بلادهم وإقليمياً فى المنطقة.. أثبت أنه سياسى يحاول أن يتحرك بأقصى قدر من التوازن فى حقل ألغام السياسة العربية.. يحاول كذلك أن يتمسك بمبادئه وقيمه ومثله.. وفى الوقت نفسه لا يغفل الواقع العربى الذى أصبحت فيه الكرامة مثل فاكهة الصيف فى عز الشتاء.. عمرو موسى كذلك مثقف من طراز رفيع فى زمن يزهد فيه السياسيون فى الثقافة باعتبارها مجرد رفاهية.. أو أنها جزء من ديكور يمكن الاستغناء عنه فى أى وقت .

لقد كانت الفترة التى قضاها عمرو موسى فى وزارة الخارجية فترة ازدهاره وتألقه ولمعانه.. للدرجة التى لم يكن فيها نجماً سياسياً فقط لمواقفه وتصريحاته.. لكنه أصبح فارساً لأحلام البنات رغم أن ملامحه لا رومانسية فيها.. فملامحه جامدة للغاية ، يجيد مخاطبة الكاميرا والاستعداد لها ، نعم ، لكن صوره تعكس جدية لا جدال فيها.. كان عمرو موسى حتى هذا الوقت هو الذى يوجه الضربات للجميع.. كان مزعجاً لأمريكا وإسرائيل ولدوائر صنع القرار فى مصر.. كان

الشعب المصرى بكل فئاته وطبقاته معجباً به.. كنا نعرف أنه مجرد منفذ للسياسا المصرية.. لكنه كان ينفذها بكرامة وإباء.. يربح بهما إعجاب الجميع وثقتهم .

لكن عندما شد الرحال إلى جامعة الدول العربية كأمين لها.. تغيرت الأحوال كثيراً.. كان يعلم أن الجامعة ليست إلا مقبرة للسياسيين.. وأنها أصبحت عاجزة لا تقوى حتى على الاعتراض.. وأن القادة العرب أسقطوها من حساباتهم.. وأن تاريخه السياسى يمكن أن ينتهى على أعتابها . وأنه سيدخلها نجماً هائلاً وسيخرج منها مجرد حطام لا قيمة له.. لكنه قبل التحدى.. أقنع نفسه أنه يستطيع أن يفعل شيئاً.. وبالفعل بدأ فى نفخ الروح فى الشرايين اليابسة.. لم يهتم بالسياسة فقط.. لكنه لفت الانتباه إلى الاقتصاد.. فالعرب ليسوا كائنات سياسية فقط.. لكنهم معنيون بالاقتصاد كذلك.. كان يريد أن يحتمى بالاقتصاد من غدر السياسة.. لكن السياسة قصمت ظهره !

جاءته الضربات والإهانات من حيث لا يدرى.. وقف إلى جوار العراق فاتهمته الكويت بالعمالة لصدام حسين.. وعندما رفضت لجنة المتابعة العربية الاعتراف بمجلس الحكم العراقى بعد أن سقط صدام حسين شن إياد علاوى رئيس حركة الوفاق الوطنى وعضو مجلس الحكم الانتقالى فى العراق هجوماً مفزعاً على عمرو موسى.. قال عنه : إن هذا الرجل يمثل نفسه فقط وأن الدبلوماسية العراقية سوف تسعى إلى تنحيته من منصبه فى أسرع وقت ممكن.. تحرك عمرو موسى فى الموقفين من أرضية مسئوليته السياسية عن أنظمة مهترءة.. لكن لم يقدر أحد جهوده.. أصبح متهماً من الجانبين.. وفى الطريق مر عليه هجوم وزير الإعلام الإماراتى.. عندما قال باستخفاف: من عمرو موسى هذا ؟!

مأساة عمرو موسى الحقيقية - التى أتمنى أن يدركها الآن وهو فى رحلاته المكوكية لإصلاح ما أفسده الحكام العرب - أنه رجل قوى فى مكان ضعيف.. رجل صاحب رؤية فى مكان لا يحترم أصحابه الأفكار ولا من يحملونها.. إن المكان الضعيف اعتبر أصحابه أن عمرو موسى مجرد موظف لديهم.. وماداموا

يدفعون له راتب فليس من حقه أن يتكلم إلا إذا سمحوا له بذلك.. ولا يفكر إلا إذا أعطوه التصريح ليفعل ذلك.. وحتى إذا أراد أن يستقيل فليس هذا من حقه فالموظفون فى وطننا العربى الكبير لا يستقيلون ولكن يقالون.. ويذهبون غير مأسوف عليهم .

كان عمرو موسى يدرك أن الجامعة العربية تعانى من مشكلات عديدة.. منها مثلاً البطء الشديد فى اللحاق بالتطورات الدولية.. فلا توجد مثلاً منظمة تجارة عربية ولا يوجد بنك استثمارى عربى ولا محكمة عربية ولا برلمان عربى.. وكان يدرك أن الجامعة العربية منظمة إقليمية لا تعمل فى السياسة فقط.. وهناك أمانة عامة ومنظمات تعمل فى مختلف التخصصات.. لكن جهودها الاقتصادية والاجتماعية ضاعت.. وكان يعرف أن هناك دولاً عربية بعينها لا تريد أن تدفع حصصها المالية وقد تجلت له هذه الأزمة فى الإعداد لمعرض فرانكفورت الدولى.. فقد امتنعت دول عديدة أو تلكأت فى دفع حصصها بما يهدد بفضيحة مدوية فى فرانكفورت.. ظل عمرو موسى يؤكد أن هذه المشكلات يمكن احتواؤها والتغلب عليها.. لكنه يصر أن يرفع الحطام عله يجد أى شيء سليم أسفله وهو واهم فالقرار التونسى جاء على كل ما تبقى فى الجامعة العربية .

إن عمرو موسى سياسى محترف.. لكنه يصر على أن يلعب فى فريق ضعيف احترف الهزيمة.. وأخشى أن تكون العشرة الطويلة التى اكتسبها عمرو موسى من عمله فى أروقة السياسية العربية قد جعلته متخاذلاً وضعيفاً ومتردداً وقابلاً للإهانة.. فالمهم هو الكرسى الذى يجلس عليه.. يا سيد عمرو موسى فليذهب الكرسى إلى الجحيم .. كفاك تحملاً .. وحملاً لكل الخطايا العربية.. لماذا لا تخلع القفاز وتلقى به فى وجه الجميع ، تقول كلمتك وتمضى؟ .

لقد حلمت الشعوب العربية أن تنقذ الجامعة.. وتعبر بها بحار الأزمات.. لكنك فشلت ويجب أن تعترف بذلك.. أم أنك فقدت الشجاعة حتى على الاعتراف بالخطأ؟.. لا نريد منك يا سيادة الأمين العام أن تفعل شيئاً سوى أن تحفظ ماء

وجهك وتحافظ على ما تبقى من كرامتك.. فلا شيء أكثر من أن نحتفظ لك بصورة براقة ومحترمة.. لماذا تصر على أن تحرم الشعوب العربية من مثل يحلمون بتكراره والغناء له؟.. لماذا تصر على تحطيم الصورة التى رسمها الناس لك؟.. ارحل حتى تريح نفسك وتريحنا.. خفف من أحمالك.. وانج بنفسك فقد هلك كل من كانوا قبلك .

لا أعرف ماذا يقول عمرو موسى لنفسه وهو يقف أمام المرآة.. ولا ماذا يقول لضميره وهو ذاهب إلى فراشة لينام.. هل هو راض عن نفسه.. عن موقفه.. عن صورته؟.. لقد أطاحت به الأنظمة العربية وكانت الضربة التى سقطت على رأسه كفيلة بأن تجعله يتراجع.. لكنه يصر على إكمال المشوار الذى انتهى من الأساس.. لا ندعوك للاستقالة لتتخلى عن دورك.. ولكن لعل استقالتك تقول للإخوة الأعداء إن هناك خطأ ما.. وأن الأمور ليست على ما يرام.. ابعث الأمل فينا وتخلى ولو للحظة عن أحلامك التى تحولت إلى أوهام وأثبت أن هناك قيمة يمكن أن يعيش الناس من أجلها.. للحظات كنت أشفق على عمرو موسى.. وأدعو الله أن يخفف عنه آلامه التى لا تتحملها حتى الجبال.. لكنى وفى لحظة صدق قلت إن عمرو موسى يستطيع أن يخلص نفسه من كل آلامه وبكلمة واحدة.. فلماذا لا يقلها؟.. وللمرة الثانية.. هل تطمع فى أن تعتقد أننا سنصدقك مرة أخرى إذا حدثتنا عن مشروعك لإحياء الموتى فى جامعة الفناء.. فالكل باطل.. وأنت تعلم ذلك جيداً.

2

حكايـــات من هيكـــل

حكايات من هيكل

لم يترك هيكل كاتباً كبيراً ولا مثقفاً لامعاً ولا أديباً مبدعاً.. إلا وضمهم جمعياً ليكتبوا عنده فى الأهرام عندما تولى كافة أمورها منذ دخلها عام ١٩٥٧ وحتى لحظة خروجه منها عام ١٩٧٤.. كان هيكل يرفع شعار "إذا كان عندك الشجاعة أن تكتب فعندى الشجاعة أن أنشر" وبهذه القاعدة نشر توفيق الحكيم روايته بنك القلق التى انتقد فيها الثورة ورجالها ، وتوالت روايات نجيب محفوظ "ميرامار" و "ثرثرة فوق النيل" و "أولاد حارتنا" مسلسلة على صفحات الأهرام.. وكان فيها هدم للمعبد الهزيل الذى حاولت أن تبنيه الثورة ، بل إن يوسف إدريس حاول نشر قصته القصيرة "الخدعة" التى فسرها رجال ناصر بأنه المقصود بها شخصياً ، وقبل أن يغضب عبد الناصر نزع هيكل فتيل اللعنة وخرج إدريس من الأزمة سالماً .

لا يعطينى التاريخ فرصة تفسير ضم هيكل للكتاب الكبار إلى كتيبته فى الأهرام تفسيراً تآمريا ، كما أننى لست من هواته.. لكن ما نقدر على قوله الآن على الأقل أن هيكل أراد أن يسبغ نقد الثورة بالرسمية.. فالنظام أراد أن يكون النقد خارجاً من جوفه يرعاه ويمد فى عمره.. بل ويقدمه للناس على جناح كاتبه الأوحد الذى كان يشارك فى صنع الأحداث قبل أن يكتب عنها .

فى دفاتر هيكل حكايات مازالت تكتنفها الأسرار عما جرى للأدباء والمثقفين زمن عبد الناصر ، فتح هيكل دفاتره أكثر من مرة.. فى كتبه ومقالاته وأحاديثه

وجلساته الخاصة ومن بين ما نشر وما قدمه هيكل قبل ذلك سنعثر على الكثير من الروايات.. هذه بعضها.. لا تتعجل بالتفسير.. ولا بالتحليل.. اقرأها أولا.. ثم قل عنها بعد ذلك ما تشاء .

رقبة يوسف إدريس

فى إبريل ١٩٦٩ نشر يوسف إدريس قصته القصيرة "الخدعة" فى جريدة الأهرام كانت القصة ببساطة عن رأس جمل يظهر للناس فى كل مكان ، فى منازلهم فى الحمام فى غرف نومهم فى الأتوبيس ، سافر يوسف بعد النشر إلى الإسكندرية ، قضى هناك عشرة أيام ، وعندما عاد ذهب إلى الأهرام فوجد الجميع ينظرون إليه بدهشة ، ثم اقترب أحدهم وقال له: صحيح أنت اترفدت يا د. يوسف؟ فقال له : أترفدت ايه يا ابنى.. أنا يادوب أتعينت من أسبوع واحد .

دخل يوسف إدريس على هيكل ساخراً قال له: تصور يا أستاذ هيكل الناس العبط اللى بره قالوا لى إنى أترفدت من الأهرام ، فقال له هيكل ببرود شديد ، أنت فعلا أترفدت ، سأله يوسف بدهشة: ليه فرد ، هيكل وهو يحتفظ بهدوئه: الجماعة فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ذهبوا للرئيس جمال عبد الناصر وأفهموه أن قصة الخدعة بتاعتك كتبتها عليه شخصياً ، وأنه المقصود برأس الجمل الذى يظهر للناس فى كل مكان .

لم يملك يوسف إدريس نفسه فقال لهيكل: يا نهار أسود ، طب وأنت قلت أيه؟ فقال له هيكل: أنا قلت أن رأس الجمل معناه النكسة التى تظهر للناس فى كل مكان ، والناس غير قادرين على نسيانها.. هه ايه رأيك؟ على العموم بعد شهر كده هترجع الأهرام تانى ومرتبك ماشى.. واعتبر مفيش حاجة حصلت !

غمرت السعادة يوسف إدريس ، فقد أنقذه تفسير هيكل من الهلاك ، فالقصة كانت أول عمل ينشر له على بلاطة ضد عبد الناصر وضد وجوده شديد الوضوح

فى الحياة ، كانت نهاية القصة تقول: إلى أمامه يتطلع ولا يتحرك ولا يغضب ولا يرضى ولا يحفز ولا يثبط ، لا يفعل شيئاً أبداً إلا أن يطل.. مجرد يطل .

مشاغبات نجيب محفوظ

أعطى نجيب محفوظ روايته "أولاد حارتنا" إلى على حمدى الجمال مدير تحرير الأهرام ليقرأها كان ذلك عام ١٩٥٩ ، لم يقرأ الجمال الرواية.. لكنه قال لهيكل: إن نجيب محفوظ طلب منه أن يقرأها بعناية لأنه على ما يبدو أن فيها لغما ، أخذ هيكل الرواية إلى بيته ليقرأها . لأن جو المكتب لم يكن ليساعده على قراءة الراوية ، أدرك منذ اللحظة الأولى مغزى تحذير نجيب محفوظ لعلى حمدى الجمال ، استقر رأيه على النشر ، وتصور فى البداية أن البعض سيحاول منع الرواية فقرر نشرها فى حلقات يومية . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تنشر فيها الأهرام رواية يوميا .

لم يستأذن هيكل عبد الناصر فى نشر الراوية ، لأنه كان يرى أن هذا عمله ، وبدأ النشر لم ينتبه أحد من رجال الدين للرواية إلا متأخراً ، فعندما نشرت الحلقة السابعة عشرة تحرك رجال الأزهر وأطلقوا نيرانهم على الرواية والروائى ، وقامت الضجة الهائلة ودخلت فيها الدولة ، وكانت الأهرام قد وصلت إلى الحلقة العشرين .

أصداء الأحداث جعلت عبد الناصر يسأل هيكل.. ايه حكاية الرواية.. فرد هيكل: أنا كنت مدركا لكل المحاذير قبل النشر ، لكن هذه راوية لنجيب محفوظ ، وعلى أى حال سينتهى النشر خلال أيام ، جاء قرار الأزهر بعد ذلك وانطبق القرار على طبعها فى كتاب وليس على النشر مسلسلاً فى الأهرام التى لم تكن طرفا فى قرار الأزهر ، ولم يكن لها صلة به ، بعد ذلك اتصل د. سيد أبو النجا

بنجيب محفوظ من أجل نشر الرواية فى بيروت ، لأن دار المعارف كانت لها أفرع هناك ، وكانت لها صلات بدور نشر كثيرة فى بيروت ، وكانت تابعة للأهرام فى ذلك الوقت .

بعد ذلك لم تنشر الأهرام روايات نجيب محفوظ . ففى عام ١٩٧١ نشرت له مجلة الأذاعة والتليفزيون راويا المرايا ، وفى عام ١٩٧٢ نشرت له مجلة الشباب التى كان يشرف عليها رجاء النقاش رواية الحب تحت المطر.. لكن هيكل يؤكد أن هذه الأعمال لم تعرض عليه مطلقاً.. بل إنه لم يقرأها.. فهو لم يقرأ جميع أعمال نجيب الروائية.. لكنه قرأ ما اعتبره أهمها أو ما نشرته الأهرام له ، لكن هيكل كان قد نشر لنجيب محفوظ قبل النكسة روايته "ثرثرة فوق النيل" وهى الراوية التى تنبأت بهزيمة يونيو.. وكان هيكل يرى ضرورة فتح الطريق أمام نشر أى أعمال أدبية تنقد أحوال المجتمع المصرى .

قلق توفيق الحكيم

كتب توفيق الحكيم روايته "بنك القلق" وانتقد فيها دور المخابرات .. وعلى الفور نشرها هيكل فى الأهرام ، غضب عبد الحكم عامر بشدة واتصل بجمال عبد الناصر غاضبا واشتكى بشدة وقال له إن الرواية بها كلام غير معقول ، اتصل عبد الناصر بهيكل وقال له : أنا لم أقرأ الحلقة الأولى التى نشرت من بنك القلق.. وقال له إن عبد الحكيم عامر متضايق جدا من هذا النص ، وقد أتضح بعد ذلك أن صلاح نصر رئيس جهاز المخابرات هو الذى قرأ الحلقة الأولى من بنك القلق، وتكلم مع عبد الحكيم عامر ، طلب عبد الناصر أن يذهب هيكل بالحلقة التى نشرت ولما قرأها لمح فيها من أول فقرة ما أشعل ثورة عامر ، أكمل القراءة لكنه توقف بعد عمود ونصف ونظر إلى عامر الذى كان حاضرا اللقاء وقال له متسائلا : إذا كان توفيق الحكيم قد نشر "يوميات نائب فى الأرياف" وقت الملكية،

ألا يستطيع نشر بنك القلق فى وقت الجمهورية ، هذا رأيه ومن حقه أن يقوله.. لابد أن تنشر كاملة دون أى حذف .

كان توفيق الحكيم قد قدم روايته بنك القلق لهيكل وهو يتصور أنها لن تنشر كان يجلس معه فى مجلس إدارة الأهرام وهو يتصور أنها لن تنشر ، أعطاها لهيكل وقال له خد أقرأ دى ، بس دى مش للنشر أنا باجرب شيء معين فى الكتابة، إنها كتابة لنفسى وليست للنشر أبداً ، قرأها هيكل وقال للحكيم سأنشرها ، فقال له.. لا تنشرها ، وإياك أن تفكر فى ذلك.. فرفع هيكل شعاره الأثير فى وجهه.. إن كانت عندك شجاعة الكتابة فستكون عندى شجاعة النشر .

الرئيس لطفى السيد

فى أوائل عام ١٩٥٥ طلب عبد الناصر من هيكل أن يذهب إلى أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ويعرض عليه أن يتولى رئاسة الجمهورية ، كان لطفى السيد من الكتاب والسياسيين الذين عرفهم هيكل وأحبهم بشدة ، كانت له رؤية محددة وهى أن مستقبل تطور مصر مرهون بأمرين لا ثالث لهما هما البرلمان والجامعة كان هيكل مباشراً قال للطفى السيد أنا قادم لك برسالة ، ونقل له ما أراده عبد الناصر بأن يتولى لطفى السيد رئاسة الجمهورية ، رد الرجل الكبير بوضوح شديد قال لهيكل: كل واحد يتصدى لعمل ينبغى أن يتحمل مسئولياته ، وأنا رجل فى نهاية عمرى ، ليست عندى الصحة للدخول فى عمل جديد وتجربة جديدة تبدأ الآن بالكاد .

لم يطلب لطفى السيد فرصة للتفكير أو مشاورة من حوله.. بل أكد على كلامة قال: أنا بدأت عمرى بتجربة دخلنا فيها كلنا ، وأنا الآن فى أواخر عمرى ولا أستطيع أن أتصور نفسى بادئا ، وداخلاً فى تجربة دخلنا فيها كلنا ، هذا أولاً ،

أما ثانياً فإن كل إنسان نهض بمسئولية عمل عام عنده هو وليس عند غيره تصور كيف يكملها .

كان محمد نجيب قد خرج من السلطة وعرف لطفى السيد ما جرى له.. بدلاً من أن يسدى نصائح طلب من هيكل طلباً محدداً.. قال له أبلغ عبد الناصر ألا يتوارى وراء أحد بسبب سنه ، فلمصلحته أن يطلع ويظهر باسمه وذاته وبصفاته للناس وأن يواجههم ، وإن كان عنده تصور أن الناس غير مستعدة لتقبل شاب فى مثل سنه ، فهذا غير صحيح لأن للناس يمكن أن تتقبل شاب فى مثل هذا السن جداً، بشرط أن يقول لهم ماذا يفعل وماذا سيفعل، فلابد أن يظهر البكباشى جمال عبد الناصر ويتحمل مسئوليته .

لم ينته طلب لطفى السيد قال لهيكل.. قل لعبد الناصر ألا يقلق من سنه . لأن العمر يحتاج إلى تجديد وإلى شباب والناس ستمشى معه . وسنه لن يكون له اعتبار يؤثر فى تقدير الناس له ، لأن الناس ستمشى معه بمقدار ما يستطيع أن يطرح لهم من تصورات ومن رؤى كل ما فعله هيكل أنه نقل الطلب لجمال عبد الناصر وأعتبر أن الموضوع قد أنتهى تماما .

أنت شيوعى يا دكتور سنهورى

بعد الثورة عرض الضباط الأحرار على سليمان حافظ أن يتولى الوزارة.. لكنه رفض تماما واقترح عليهم أن يستعينوا بالدكتور عبد الرازق السنهورى أستاذ القانون الدستورى.. لكن جمال عبد الناصر قال للسنهورى يا دكتور سنهورى أنت وقعت بيان أنصار السلام ، ولذلك فالأمريكان يتهمونك بالشيوعية، وبالتالى لا أستطيع أن أجعلك رئيسا للوزارة لأنه معنى ذلك أننا نستجلب على أنفسنا عداء الأمريكان ونحن نريدهم معنا فى مواجهة الإنجليز ، قال عبد الناصر

ذلك للسنهورى فى وجهه.. ولم يكن للكلام سند من المعلومات، حيث يعتقد هيكل أن السياسيين والمثقفين الكبار فى مصر كانوا يدسون لبعضهم البعض ويستغلون فى هذا الدس هؤلاء الشبان الصغار الذين قاموا بالثورة .

كان السنهورى هو الذى أقترح أن يدخل محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة طرفا فى مجلس الوزراء لأنه كان يريد إخراج على ماهر منها ، وكان هو نفسه الذى حاول طرح اسمه رئيسا للوزارة من خلال سليمان حافظ ولكن التجربة لم تنجح .. معنى ذلك أنه كان فى نفسه غرض لكنه لم يتحقق له .

متدين آه .. إخوانى أشك

اقترب جمال عبد الناصر من جماعة الإخوان فى فترة مبكرة من حياته ، لكن كان ذلك فى إطار عمله الفدائى ، وقد تعرف على عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد الرحمن السندى وبعض الذين كانوا فى الجهاز الخاص للإخوان وقد قرأ وقتها بعض أدبيات الإخوان المسلمين ، لكنها جميعا لم تكن مقنعه له ، حتى مقابلته لحسن البنا وجها لوجه لم تترك أثرا عميقا فى حياته ، قد تكون تركت أثرا ما .

لكنه لم يصل إلى الأعماق والترسب فيها ، وقد تكون الفكرة التى غزت عبد الناصر بعد لقاءه بالبنا هى فكرة المقاومة أى الطابع النضالى ضد المستعمر والمحتل ، وإن كان هيكل يصادر حتى هذا الأثر من حسن البنا حيث يقول إن فكرة إيمان عبد الناصر لم يكن لحسن البنا أى دخل فيها .

ومن شاطئ الإخوان إلى شاطئ الشيوعيين ، كان عبد الناصر معجبا جدا بعزيز فهمى الذى كان يمثل اليسار الوفدى أو الطليعة الوفدية ، واهتم كذلك بما كان يكتبه محمد مندور وعزيز فهمى وكانت هذه الكتابات تمثل له ثقافة اليسار عامة ، وقال ناصر لهيكل أكثر من مرة إن الشيوعيين عندهم أفكار جيدة لكنى أختلف معهم فى أمرين الأول موقفهم من الدين والثانى الأممية التى تتجاوز الوطنية .

علاقة عبد الناصر بالشيوعيين جعلت الإخوان يتهمونه بأنه لم يكن متدينا .. وهو كلام يرفضه هيكل ، فعبد الناصر عنده كان متدينا فى غير مغالاة ، كان يقينه مستريحا وكان شديد الإعجاب بالشيخ محمود شلتوت وكان يستمع كثيراً للشيخ أحمد حسن الباقورى ، وعندما كان يجد من يتكلم فى الدين بشكل جيد كان يحب أن ينصت إليه مهما كان الوقت الذى يستغرقه الكلام ، بشكل عام كان عنده احترام شديد للعقائد الدينية سواء الدين الإسلامى أو المسيحى أما اليهود فكانت تقف بينه وبينهم قضية فلسطين .

هذه مجرد حكايات.. تظهر منها بعض ملامح عصر بأكمله مازلنا نعيش فى ظلاله وبأصدائه.. لا نستطيع أن نقول قولا فاصلا.. قد نقول إن كل ما قيل عن ديكتاتورية جمال عبد الناصر كلام فارغ.. فقد سمح بنشر كل الروايات والقصص التى تنتقده فى عصره بل ودافع عن حقهم فى التعبير عن أرائهم وأفكارهم فإذا كانوا قد كتبوا بحرية فى العصر الملكى فكيف لا يكتبون بحرية أكبر فى عصر الجمهورية.. وقد نقول إن النظام من خلال هيكل الذى كان يده وعينه وعقله وقلبه أراد أن يستوعب كل طاقات الكتاب والمبدعين والمثقفين.. فالمعارضة من الداخل.. وتحت رعاية الحكومة تفقد بريقها ورونقها وتأثيرها.. ولم يكن عبد الناصر يريد أكثر من ذلك..

رأيك فى النهاية أنت حر فيه.. فالحكايات أمامك.. والتفاصيل مسئول عنها هيكل ومن عاصروه.. أعد قراءتها مرة أخرى.. ألقها على آخر ذراعك.. أرفضها تفاعل معها لكنها تظل فى النهاية مرآة عصر نلعنه رغم أننا كنا نتمنى أن نعيش فيه .

نهاية وبداية

3

نهاية وبداية

الذى يريد أن يعرف الفرق بين عظمة الحياة وانحطاط العدم ، بين حب الناس والتآمر عليهم ، بين الذين يعشقون النور والذين لا يعرفون غير لون الدم ، من يرغب فى معرفة ذلك ينظر فقط وبدون تنظير ولا فلسفة إلى أخبار عمنا الكبير نجيب محفوظ والأخبار التى تأتينا عن عمر عبد الرحمن الذى غذت فتاواه اغتيال السادات ، ودعمت يد الشباب الجاهل الذى أمسك بالسكين وأغمدها فى عنق نجيب محفوظ.. ومن الاغتيال إلى الاعتداء آلاف من الضحايا الذين راحوا ضحية فتوى عابثة أصر فيها عبد الرحمن على تكفير المجتمع .

لا جديد عن عبد الرحمن القابع فى أحد سجون أمريكا إلا ما نشر عن رفض السفارة الأمريكية بالقاهرة منح تأشيرة دخول لأمريكا لعائشة حسن لزيارة زوجها الدكتور عمر ولابنه عبد الله ، ولأن المريد يعيش فى جناح وليه فقد أطلق أتباع عمر عبد الرحمن تحذيرات عنيفة للإدارة الأمريكية أكدوا فيها على أن جماعتى الجهاد والجماعة الإسلامية ستردان بعنف على سياسية أمريكا العنصرية ضد الشيخ عمر ومحاولتها قتله في السجن بمنع الدواء عنه وسجنه فى زنزانة مليئة بالبخار السام الناتج عن المغسلة المجاورة له .

أتباع الدكتور كانوا أكثر تحديداً عندما أعلنوا أنه على أمريكا أن تدرك جيداً أن مصالحها وجميع منشآتها ستكون هدفاً لهم فى جميع أنحاء العالم ولن يستطيع أحد السيطرة عليهم ، مرة أخرى يؤكد أتباع الرجل أنهم لا يجيدون سوى العنف لغة والتهديد وسيلة ، يغالطون أنفسهم فهم يدركون جيداً أن عبد الرحمن هو الذى

سعى لأمريكا يطلب رضاها وودها ، ومع ذلك يطالبون الحكومة المصرية بالتدخل لإنقاذه.. ونسوا أن عبد الرحمن لم يكن يريد تدمير الحكومة فقط.. ولكن تدمير الشعب نفسه .

أخبار الرجل بهذا الشكل طبيعية للغاية ، فقد أختار طريقاً لم يكن لينتهى به إلى ما انتهى إليه بالفعل السجن والتعذيب فى سجون أمريكا التى ذهب يستعين بها على أهله فأذاقوه آيات الإذلال والإهانة ، قد يرفض البعض هذه النهاية للدكتور عمر على اعتبار أنها تناقض كل مواثيق حقوق الإنسان ، وقد يسعد آخرون فالرجل الذى مات على يديه الآلاف يشقيه الله الآن بعذابهم ، ورغم اقتناعنا بآثار عمر عبد الرحمن التدميرية ، لكننا لم نسعد بنهايته نحن فقط نرصدها .

وبعيداً عن عمر عبد الرحمن الذى يتألم فى سجنه بأمريكا يسعد نجيب محفوظ بأيامه فى منزله على نيل العجوزة ، رجل يهتم به الجميع ويسعون إليه ، عاش حياته يدعو للحب والسلام والعدالة الاجتماعية والمحافظة على حقوق الإنسان والرحمة بالفقراء ، والضعفاء والمعذبين ، فأحبه الجميع وكرموه.. عظمة نجيب محفوظ ليست فى إبداعه الروائى العظيم ولكن فى مقاومته لكل أدوات الفناء والعدم ، ليست أدوات تشويه السمعة والتقارير والبلاغات إلى الأزهر وجهات الأمن ، ولكن نجيب قاوم الرصاص ، والسكين وواصل نجاحاته واهتمام العالم به ، فكل ضيوف القاهرة مفكرين وسياسيين يسألون عنه ويطلبون تحديد موعد لرؤيته ومقابلته والاطمئنان عليه .

قد يبدو الربط بين نجيب وعبد الرحمن غريباً.. لكنه منطقى للغاية ففى الوقت الذى ينتهى فيه عمر عبد الرحمن يبدأ نجيب محفوظ فى طريق الخلود ، فالناس لا يذكرون إلا أصحاب الدعوة للحياة أما أعداء الحياة فلا يهتم بهم أحد.. لقد تسبب عمر عبد الرحمن بفتوى قالها فى محاولة قتل نجيب محفوظ ، قال بعد أن كتب سلمان رشدى روايته "آيات شيطانية" ، لو كنا قتلنا نجيب محفوظ يوم كتب "أولاد حارتنا" لما فعل سلمان رشدى ما فعل ، كانت الكلمة صريحة وحادة ومحرضة.. ورفع شاب جاهل السكين على رقبة نجيب محفوظ تباركها فتوى عبد الرحمن ، لكنه فشل وبقى نجيب محفوظ ! .

وليس غريباً بعد ذلك أن تطل علينا روايته "أولاد حارتنا" من جديد تعلن عن نفسها وتطالب بحقها فى النشر والانتشار ، خرجت هذه المرة فى شكل مسلسل إذاعى مأخوذ عن جزء منها تطالب بالإفراج والموافقة من الأزهر ، لقد طلب نجيب بنفسه موافقة الأزهر ومن المنتظر أن يرفض الأزهر.. لكن يبقى لنجيب محفوظ ولنا أمل أن يأتى يوم نتداول فيه "أولاد حارتنا" كما نتداول الصحف اليومية.. فهى رواية تنتصر للحياة.. ولا نعتقد أن هناك من لا يحب الحياة .

سيد قطب فى أمريكا

يحاول الأمريكان أن يكتشفوا الإسلام ، قد تفرح بهذا الكلام وتعتبره نصراً من الله وفتحا مبيناً ، لكن المفاجأة أن الأمريكان لا يعيدون النظر فى الإسلام حتى يدخلوه لا سمح الله ، لكن ليعرفوه ، بعد أن هدد حياتهم وأرق منامهم وبعثر أحلامهم ، وهدم الدنيا على رءوسهم ، يريد الأمريكان أن يعرفوا السر وراء هؤلاء المسلمين الذين يقدمون على الموت دون أن تهتز لهم شعره.. يرحبون بالموت وهم فى راحة نفسية يحسدون عليها .

لا يدرى الأمريكان وهم فى غمرة بحثهم عن الإسلام.. أنهم كانوا وراء صنع واحد تعتبره الجماعات المتطرفة أبا روحيا لها ، أعطت أمريكا لسيد قطب الدافع القوى للتمسك بالإسلام واعتباره المخلص الوحيد من حالة تتردى فيها تعيشها الدول الإسلامية ومنها مصر بالطبع ، بعد أن عاد من أمريكا أصبح منظرا إسلاميا كبيراً رفض كل الحلول التى يطرحها السياسيون والمثقفون والكتاب ووضع بنفسه الحل فى كتابه "معالم فى الطريق" الذى قاده فى النهاية إلى حبل مشنقه مجدول !

لكن لماذا سافر قطب إلى أمريكا ، وماذا كان يعمل قبل سفره ، كان سيد موظفا باللجنة الثقافية بوزارة التربية والتعليم ، وكان يكتب مقالات فى النقد الأدبى فى مجلة الرسالة ، فقد كان أول من قدم نجيب محفوظ ككاتب روائى ،

عندما أوصى بأن تقرر روايته رادوبيس على طلبة المدارس حتى يستفيدوا بها ، أصدر كذلك كتابين هما "التصوير الفنى فى القرآن" و" مشاهد القيامة فى القرآن" وكلاهما درس من دروس بلاغة التعبير فى القرآن ، كان يكتب كذلك عن فنانى عصره ومن أشهر مقالاته ما كتبه فى مجلة الرسالة تحت عنوان "نسخ بالكربون" عن سيدة الغناء أم كلثوم وعن الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وكيف أن أم كلثوم خامة صوتية كونية مدهشة لم تجد بعد الملحن الذى يحررها من طابع التطريب فى الأفراح والليالى الملاح ومجالس السمر ، وكيف أن من يحاولون تقليد أم كلثوم نسخ بالكربون ، لا ترقى إلى أصالة الأصل وبهائه ونصوعه .

عاش سيد قطب حياته بالطول والعرض ، ورغم أن حياته العاطفية لا تزال لغزاً غامضا لكن من كتبوا عنه يؤكدون أنه عاش عاشقا مهزوما بعد تجربة أهتز لها كيانه ، وأنه لم يتخلص من قسوة ما عاش إلا بعد أن حول التجربة إلى أدب ، وصاغ ما جرى فى رواية لا يكاد يمسها الخيال من بعيد أو قريب أسماها "أشواك" صدرت عام ١٩٤٧ ، وهو العام الذى سبق سفره إلى أمريكا.. فقد سافر إليها عام ١٩٤٨ .

كانت لسيد قطب علاقات عديدة بأدباء ومفكرى عصره ، بل كان تلميذا مخلصا للعقاد ، لولا أن حدثت بينهما جفوة ، يحكى عنها سيد قطب لصديقه سليمان فياض قائلا: كنت للعقاد تلميذا محبا وكنت أقدم له كتبى فيثنى على ويقربنى منه حتى طلبت منه ذات يوم أن يكتب مقدمة لكتاب لى ، يقدمنى به للناس ، فأبى ذلك على نفسه وعلى وشعرت بالغيظ ، حين آثر أن يقدم لكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" لخليفة التونسى ولا يقدم كتابى ، فجفوته وجفانى وهجرت مجلسه .

وبنفس الجرأة التى يعترف بها عن سبب هجره العقاد ، أعترف وهو يلقى محاضرة فى قاعة "على مبارك" بكلية الآداب جامعة القاهرة ، أنه ظل ملحداً أحد عشر عاما من حياته ، وظل على هذا الحال حتى أخذ يكتب كتابه "العدالة

الاجتماعية فى الإسلام" فإذا به يعثر على الطريق إلى الله ويخرج من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان ، يومها أكد على عدم فصل الإسلام بين الدين والدنيا، والمادة والروح والجسد والدولة مثلما تفعل حضارات الغرب والشرق .

كان سيد قطب قد أمسك ببداية الخيط.. لكنه كان فى حاجة إلى دافع قوى ، وكان لابد أن يسافر إلى أمريكا ، كان قد قدم عدداً من البحوث والمقترحات لإصلاح نظام التعليم لعدد من الوزراء من بينهم نجيب الهلالى وطه حسين ، كان ذلك من موقعه كموظف باللجنة الثقافية فى وزارة المعارف ، لقيت أبحاثه ومقترحاته كلها الإهمال المتوقع.. وأغلب الظن أن هذه البحوث التى كانت تظهر فى صورة مشاكسات كانت سببا فى اختيار سيد قطب لإرساله فى بعثه إلى أمريكا ، فلم يعلن عن هذه البعثة كالمعتاد ، كما أن سيد وقتها كان قد تجاوز الأربعين من عمره أى أنه تجاوز السن المناسبة للبعثات ، كما أنه كان موظفا لا يصلح لأن يكون طالب بعثة ، لكنه كان قد نقل إلى منصب فى مكتب الوزير ليصبح مؤهلا للبعثة .

صدمة سيد قطب فى أمريكا بدأت قبل أن ينزل على شاطئها ، فقد اعترف لرفيقه فى السجن بعد ذلك أنه وقع تحت إغراء الأوساط الأمريكية بكل الوسائل ، ولكنه لم يسقط في شباك أى منها ، لم يحدد سيد قطب طبيعة هذه الإغراءات ولا مداها ، ولكن أغلب الظن أنها كانت إغراءات جنسية ، فعلى سطح السفينة التى حملت سيد إلى نيويورك ، صدمته امرأة ذهبت الخمر بعقلها وهى نصف عارية ، فراودته عن نفسه ، لكنه قاومها وأستطاع أن يمسك نفسه ، ولابد أن اللعنات التى صبها سيد قطب على أمريكا لم تأت من امرأة واحدة راودته عن نفسه ، ولكن لابد أن هناك نساء كثيرات فعلن نفس الشيء ، لكنه عصم نفسه وقهر الشيطان وأغلق الباب فى وجه الفتنة .

ترك سيد قطب نفسه للمجتمع الأمريكى كى يتعلم.. وتدلنا رسائله التى بعثها إلى أصدقائه ومقالاته التى كتبها عن رحلته بعد أن عاد إلى مصر على أن مظاهر الحياة الأمريكية جعلته يتمسك بما استقر عليه قبل سفره ، بل إنه وهو فى أمريكا

حاول أن يوثق علاقاته مع جماعة "الإخوان المسلمين" ، فقد كتب إلى صديقه "محمد جبر" الذى كان زميله فى دار العلوم ، يطلب منه أن يكتب إليه بالتفصيل عن أحوال وأخبار وزارة المعارف ويقول "إنه يهمنى أن أكون على تمام الصلة بالإخوان وبحركاتهم أولا بأول مدة وجودى هنا .

أفزعت الحياة فى أمريكا سيد قطب ، فقد رأى رجلاً عصر المصعد الكهربائى عنقه وتدلى لسانه ، والناس من حوله لا يرتجفون للمشهد ، وإنما يضحكون له ويقلدون تدلى اللسان من الفم المفتوح فى العنق المعصور ، لقد شعر سيد قطب بموت الإنسانية فى أمريكا وملأته الدهشة وهو يقول ساخراً لامرأة أمريكية جاورته على مائدة الطعام: إن الناس فى الشرق يأكلون البطيخ وعليه الفلفل والشطة ، فتسارع بسكب الفلفل والشطة على البطيخ وتأكله وتتلذذ وتصيح: أوه.. كم هم لذيذ ! .

عاد سيد قطب من أمريكا ساخطا عليها ومهاجما لحضارتها ، بل أكثر عداء لها مما كان عليه قبل السفر.. ولذلك أسبابه الكثيرة ، فقد رأى أن شيئا واحدا ينقص الأمريكيين على حين تزخر أمريكا بكل شيء ، شيء واحد لا قيمة له عندهم.. الروح ، فهناك بحث يقدم للدكتوراه عن أفضل الطرق لغسل الأطباق ، أحب إليهم ألف مرة من رسالة عن الإنجيل ، إن لم يكن أهم من ذات الإنجيل ، لقد رأى سيد شابا أمريكا يثبت على صدره "سبعا" ويجثم على ظهره "فيل" كان السبع رسما يملأ فراغ رباط العنق ، والفيل رسم كذلك يملأ فراغ صدره ، رسم السبع باللون البرتقالى الفاقع على أرضية "أخضر زرعى" ورسم الفيل باللون الكحلى على أرضية "كرنبى" وهذا السبع مع رباط الرقبة مدلى فوق الصدرية لا تحتها حسب مزاج التقاليع .

أدرك سيد قطب كما قال فى رسائله لأصدقائه أنه يمكن أن نستفيد من أمريكا فى البعثات العلمية البحتة ، الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة ، أما حين نحاول أن نستفيد من أمريكا فى الدراسات النظرية ومنها طرق التدريس فإننا نخطئ أشد الخطأ ونتساق وراء الطريقة الأمريكية فى الإعلان ، لقد دفع هذا سيد

قطب لأن يقول: إن الذين يتحدثون عن أمريكا كما يتحدثون عن الأعاجيب السبع إنما يحاولون أن يستمدوا قيمة جديدة لأنفسهم من وراء هذا التهويل .

لقد تساءل سيد قطب بعد أن عاد من أمريكا عما تمثله هذه البلاد من قيمة قال: أمريكا هذه كلها ما الذى تساويه فى ميزان القيم الإنسانية وما الذى أضافته إلى رصيد البشرية من القيم ، أو يبدو أنها ستضيفه إليه فى نهاية المطاف؟.. أخشى - والكلام لسيد - ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية فى أمريكا وعظمة الإنسان الذى ينشئ هذه الحضارة ، وأخشى أن تمضى عجلة الحياة ، ويطوى سجل الزمن وأمريكا لم تضف شيئا - أو لم تضف إلا اليسير الزهيد - إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم التى تميز بين الإنسان والشيء ، ثم بين الإنسان والحيوان .

اهتز سيد قطب لما رآه من السلوك الإنسانى عند الأمريكان ، فقد أعترف أن شعب أمريكا يبلغ فى عالم العمل والعلم قمة الارتقاء والنمو ، بينما فى عالم الشعور والسلوك بدائى لم يفارق مدارج البشرية الأولى ، بل أقل من بدائى فى بعض نواحى الشعور والسلوك ، ويعلل سيد ذلك ، بأن الإنسان فى أمريكا ولد على موائد العلم ، فآمن به وحده بل آمن بنوع خاص منه وهو العلم التطبيقى ، والأمريكى عند سيد قطب على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن إلا أنه بدائى فى نظرته إلى الحياة ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة ، ولعل لهذا التناقض الواضح أثره فى ظهور الأمريكان بمظهر الشعب غريب الأطوار - فى نظر الأجانب الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد ، ويعجزهم التوفيق بين هذه الحضارة الصناعية الفائقة وذلك النظام الدقيق فى إدارة الأعمال وإدارة الحياة وبين هذه البدائية فى الشعور والسلوك ، تلك البدائية التى تذكر بعهود الغابات والكهوف .

لقد تعجب سيد قطب من عنف المجتمع الأمريكى ، فهو يصف الجماهير وهى تتابع مباريات كرة القدم ، التى لم تكن فى حقيقة الأمر كرة قدم ولكنها لعبة

"البيسبول" الأمريكية الشهيرة بقوله: يحاول كل لاعب أن يخطف الكرة بين يديه ويجرى ليقذف بها إلى الهدف ، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة بما فى ذلك الضرب فى البطن وتهشيم الأذرع والسيقان بكل عنف وشراسة، منظر الجماهير وهى تتابع هذه اللعبة كان صدمة لسيد قطب ، فقد أخذته الدهشة وهو يسمع هتافات الجماهير للاعبيين تحثهم على العنف: حطم رأسه ، دق عنقه ، هشم أضلاعه ، اعجنه عجنا ! .

هذا المشهد كان وراء اعتقاد سيد قطب الجازم بأن الجمهور الأمريكى يتابع بهذه الروح العنيفة القاسية صراع الجماعات والطوائف ، وصراع الأمم والشعوب الأخرى فى كل أنحاء العالم ، ولهذا كان من حق سيد أن يتعجب كيف راجت فى العالم وبخاصة فى بلاد الشرق تلك الخرافة العجيبة التى تقول إن الشعب الأمريكى شعب محب للسلام ! .

ولأن سيد قطب أخذ حقه من الحب ومعرفة النساء قبل أن يسافر أمريكا ، كان طبيعياً أن يهتم بنساء وفتيات أمريكا ، يقول قطب: الفتاة الأمريكية تعرف جيدا موضع فتنتها الجسدية ، وتعرفها فى الوجه ، فى العين الهاتفة والشفة الظامئة ، وتعرفها فى الجسم ، فى الصدر الناهد والردف الملئ وفى الفخذ اللفاء والساق الملساء ، وهى تبدى هذا كله ولا تخفيه ، وتعرفها فى اللباس: فى اللون الزاهى توقظ به الحس البدائى ، وفى التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد، وهو بذاته فى الأمريكية فتنة حية صاعقة فى بعض الأحيان ، ثم تضيف إلى كل هذا الضحكة المثيرة والنظرة الجاهزة والحركة الجريئة ، ولا تغفل عن هذا لحظة أو تنساه ، وينتقل سيد من الفتاة الأمريكية إلى الفتى الأمريكى الذى يعرف جيدا أن الصدر العريض والعضل المفتول هما الشفاعة التى لا ترد عند كل فتاة ، وأن أحلامها لا ترف على أحد كما ترف على رعاة البقر .

هذا الوصف الدقيق لمفاتن بنات أمريكا يؤكد لنا أنه لم يكن تبين معالم الطريق بعد ، فقد اهتم بكل التفاصيل اهتمام باحث وليس اهتمام داعية ، عاد سيد

قطب إلى مصر عام ١٩٥١ وكان عمره وقتها ٤٥ سنة ، ويبدو أن اتصالاته المتعددة والقوية بجماعة الإخوان جعلت البعض يعتقد أنه أنضم إليها بعد فترة وجيزة من عودته ، ولكن سيد ينفى ذلك فى مذكرة اعترافه التى كتبها بعد أحداث ١٩٦٥ قال فيها: استغرقت عام ١٩٥١ فى صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ويبدو أن سيد قطب انضم إلى الإخوان على حد قوله عام ١٩٥٣ .

لا يهمنا التاريخ كثيرا فقد انضم سيد قطب إلى الإخوان بعد عودته من أمريكا.. لقد أدرك هناك أن ما تقدمه أمريكا للعالم لن يقدم الحل لمشاكله.. وأن الحل فى الإسلام.. ولكن وعلى ما يبدو أن سيد قطب اقتنع أن الإصلاح لن يأتى إلا بالعنف الذى شهده فى أمريكا.. فكان نبيا من أنبياء العنف – كفر المجتمع.. وصفحات كتابه "معالم فى الطريق" تشهد بذلك فقد كتب على صفحة ٢١ منه "نحن اليوم جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الإسلام أو أظلم ، كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية - ومراجع إسلامية وفلسفة إسلامية وتفكيرا إسلاميا ، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية" .

لقد ذهب سيد قطب إلى أمريكا ليتعلم ، لكنه عاد ناقما عليها ، ورأى ماديتها - كما قال ، فرمى نفسه فى أحضان الإسلام الدين الروحى.. اتهم المجتمع كله بالجهل وحكم عليه بالإعدام فتم إعدامه هو للأسف ، لقد وضعت أمريكا دون أن تدرى فى سيد قطب بذرة العنف الذى أصبحت تعانى منه الآن!

فرج فودة.. الشهيد

عندما قتل فودة لم يحزن عليه أحد ، بل كان يوم الاثنين ٨ يونيو ١٩٩٢.. وهو اليوم الذى تلقى فيه رصاصة غادرة من شاب جاهل يركب دراجة بخارية

يوم عيد عند الكثيرين ، فقد تخلص منه جميع الذين أقلق منامهم وأرق صحوهم.. وأحرجهم فى مواقعهم بآرائه وأفكاره التى كان يطلقها دون حساب للمكسب والخسارة ، أو طلباً لرضا جهة تمنحه جائزة أو مكافأة .

ارتاحت الجماعات الإسلامية التى تصدى لأفكارها التى حاولت بها الاستيلاء على عقل الوطن والسيطرة على قلبه ، هدأت ثائرة شيوخ الأزهر الذين كشف زيف دعوتهم وهوان فتاويهم ، اطمأن الكتاب الكبار الذين يدعون وصلاً بالإسلام.. فقد كان يفند ما يكتبون ويقدمه للرأى العام وقد ظهر هزالهم وضحالة ثقافتهم وسخافة منطقهم ، قالت الحكومة ألف بركة فقد تخلصت من الرجل الذى ينال منها.. ويطالبها بالحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان والوقوف بقوة فى وجه جماعات الإرهاب الدينى والسياسى ، بل لن أكون مغالياً إذا قلت أن رفاق فرج فودة قد ارتاحوا بموته.. فقد مضى الرجل الذى كان يحرجهم بشجاعته بينما هم قابعون فى جلساتهم الخاصة يجترون الأفكار والعبارات الضخمة - لكنهم لا يجاهرون بها خوفا من رصاصة من جماعة عابثة أو أمر اعتقال من حكومة لاهية .

لم يساند أحد فرج فودة فى معاركه.. تركه الجميع يواجه الإعصار وعندما قتل لم يتحسر عليه أحد صديق أو عدو.. وبعد عشر سنوات من اغتياله لم نقدم له شيئاً إلا ندوة بلا جمهور عقدت فى مقر حزب التجمع.. وكحال الندوات فى مصر فقد عقدت وانتهت دون أثر حتى أننى عندما أستعرض المشهد كاملاً أشعر أن فرج فودة دفع حياته بلا ثمن .. فقد ضحى من أجلنا جمعيا .. لكننا وقبل أن يسدل الستار على حياته أعطيناه ظهورنا ونمنا قريرى العين .

فى مطلع عام ١٩٩٢ أخبرت وزارة الداخلية فرج فودة أنه موضوع على قائمة الاغتيالات التى وضعتها الجماعات الإسلامية ، أسابيع قليلة وضعت فيها حراسة مشددة على بيت د. فرج فودة وأمام مقر عمله.. بالإضافة إلى حارس شخصى ، لكنه طلب رفع هذه الحراسة.. لأنه لا يستطيع أن يعيش بحارس يقيده.. ويعرقل حريته.. ويملعه أن يتنفس كما يريد.. ويعيش كما يريد..

بعد أيام قليلة من رفع الحراسة وقعت الواقعة.. شاب عابر يركب دراجة بخارية وأمام مكتب د. فرج أطلق عليه الرصاص.. وحاول أن يفر هاربا لكنه فشل.. بعد أن ساعد المارة سائق الدكتور فى القبض عليه.. كان اسمه عبد الشافى أحمد رمضان.. حياته لم يكن لها معنى ووجوده لم يكن له أهميه.. كان طالباً فاشلاً مفصولاً من المعهد الفنى الصناعى بالمطرية.. عمل ميكانيكى كهرباء.. وانضم فى مرحلة لاحقة إلى تنظيم الجهاد.. ألقى القبض عليه ضمن مجموعات الجهاد.. لكنه أفرج عنه.. حاول أن يستقر فى حياته فتزوج وأقام بالزاوية الحمراء.

أيام الاستقرار لم تدم طويلاً .. فقد قرر عبد الشافى أن يخلص العالم من فرج فودة ، قرر ذلك دون أن يعرف عن الرجل ولا عن أفكاره شيئاً يذكر.. كل ما كان يعرفه وذكره فى تحقيقات النيابة.. أنه قرأ بيانا أصدره علماء الأزهر قالوا فيه أن فودة يلعب بورقة الأقباط فى مصر ، ويجعل من نفسه حاميا لحماهم.. كما أنه من أتباع اتجاه لا دينى !! .

التحريض كان سافراً.. حمل عبد الشافى بيان علماء الأزهر ، وعقد محاكمة قال عنها شرعية.. كان حكمها هو إهدار دم فرج فودة.. والسبب أنه ينفذ سياسة أمريكا فى مصر ، قبض على عبد الشافى.. لكن جماعته كانت حرة طليقة.. أصدرت بياناً مستفزاً قالت فيه: "لقد قتلنا فرج فودة الكافر المحارب للإسلام.. ليس قمعا لحرية الفكر ولكن وقفا لحرية الكفر.." ولأن الحكومة ظلت صامتة.. كان لابد أن تسخر جماعة عبد الشافى منها ، ولذلك أضاف البيان.. "لقد قتلنا فرج فودة وقتلنا المحجوب ونجا من بين أيدينا زكى بدر وعبد الحليم موسى.. فاليوم فرج وأمس المحجوب.. وغدا آخر لا يعلمه إلا الله" .

اغتيال فرج فودة جعل المفكرين والكتاب والصحفيين والمثقفين والأدباء يحجمون عن الكلام ، آثروا السلامة.. وفضلوا أن يسيروا ليس جانب الحائط ولكن فى داخله.. حتى يحافظوا على أكل عيشهم ويربوا أولادهم ، لكن الحكومة

انتبهت أخيراً.. فخرجت لتجفيف المنابع وتضرب الجماعات الإسلامية فى سويداء القلب .. فقد كانت تهديدات الجماعات صريحة للدرجة التى تجبر الحكومة على الحركة وسرعة التصرف.. جولات متعددة خاضتها الحكومة مع الجماعات الإسلامية انكسرت فى بعضها.. لكنها انتصرت عليها فى النهاية.. ولعل مشهد قيادات الجماعة الإسلامية وهم يعلنون توبتهم وإقلاعهم عما فعلوا.. وليعتذرون عما فعلوه من أخطاء فى المجتمع.. دليل على أن الحكومة سحقت الجماعات الإسلامية وجعلت منها كيانا هشا.. يسعى فقط وراء حق الحياة.. هذه النتيجة التى وصلنا إليها.. كان مقتل فرج فودة عاملاً مساعداً ودافعاً للوصول إليها.. فلولا اغتياله ما تنبهت الحكومة للخطر الذى يستهدفها.. ورغم أهمية هذا الرجل.. وأهمية أفكاره.. لكنه لم يكرم لا فى حياته ولا بعد موته .

فى حياته تركه رفاقه وليمة لشيوخ الأزهر ولقادة التيار الإسلامى.. فشوهوا سمعته ونالوا من علمه وأفكاره.. جريدة الوفد ومن بعدها جريدة الأحرار شككتا فى درجته العلمية وقالتا أنه غير حاصل على شهادة الدكتوراه ولا حتى من جامعة "بخ بخ" وتجرأت جريدة الشعب لتتهمه بأنه نصاب ، أدعى لقباً علمياً لم يحصل على شهادته .

كان الموقف غريباً.. ففرج فودة لم يدع أنه حاصل على دكتوراه فى فلسفة الاقتصاد الزراعى ، فهو خريج زراعة من جامعة عين شمس.. وعليه فلا علاقة لهذه الشهادة بموقفة من الإرهاب الدينى والسياسى.. ولذلك كان غريباً جداً أن يطالب خصومه أن يثبت أنه حاصل على الدكتوراه ، كان الاتهام قاسيا.. وكان لابد لفرج فودة أن يرد ، فى حوار له مع مجلة "أخر ساعة".. اضطر لنشر صورة من شهادة الدكتوراه.. وفى نفس الحوار حمد فرج فودة الله أنه حاصل عليها من جامعة عين شمس المصرية حتى لا يتهمه أحد بشرائها من الخارج .

وعندما فشل التشكيك فى شهادة الدكتوراه العلمية.. والتى لم يكن لها أهمية فى حواره ومعاركه الفكرية.. تحولت دفة الاتهامات إلى الادعاء بعلاقة فرج فودة

مع إسرائيل.. وتعاون مجموعته الاستثمارية مع رجال أعمال مصريين ، فى حياته قال فرج فودة إن الذين يتهمونه بالتعاون مع إسرائيل لم يقدموا بيّنة أو دليلاً على ما يقولون.. لكن اتهامى بذلك يتسق مع التخلف والتطرف ، وهما مترادفان.. وفيهما محاولة استدراج البسطاء بعيداً عن المعركة الأساسية

وبعد موته تؤكد السيدة راوية فودة شقيقته أن أخاها لم يسافر إلى إسرائيل.. فجواز سفره لا يحمل تأشيرة إسرائيل.. فكيف سافر إليها إذن، وقد رفض د. فرج فودة استقبال وفد إسرائيلى ذهب له فى مكتبه حتى يقنعه بإنشاء مشروع مشترك بين شركته التى كانت متخصصة فى المشروعات الزراعية وبعض الجهات الإسرائيلية .

لم تسلم عائلة فرج فودة من التشهير.. فقد نالتها سهام الافتراء ، فى حياته قالوا أنه زوج ابنته للسفير الإسرائيلى.. مع أن ابنته وقتها كانت طالبة فى المدرسة الثانوية ، الضربة التى كانت أقوى لأسرة فودة عندما كتب الشيخ صلاح أبو إسماعيل فى جريدة الأحرار.. أن فرج فودة يدعو فى كتابه "قبل السقوط" إلى إباحة الزنى.. ولذلك فهو يطلب منه أن يأتيه بزوجته وأهله.. فإذا فعل ذلك فلا كرامة له ، وإذا لم يفعل فإنه - أى فرج - أنانى" .

من الصعب أن أصف هذا التشهير.. لكنى أتعجب أنه خرج ممن أدعوا أنهم دعاة إسلام وأتباع للرسول.. د. فرج فسر فى مقدمة كتابه "حوار حول العلمانية".. دوافع هذا الهجوم المتدنى.. فخصومه شعروا بالعجز عن المواجهة والفشل فى الرد والقصور فى التصدى.. فحاولوا تشويه صورته.. وخداع الناس باستدراجهم إلى غثاء لا نفع فيه وتطاول لا رد عليه ! .

بعد مقتله كانت الضربات أوجع.. تبرأ منه الجميع.. حتى كتبه التى كان من بينها.. "قبل السقوط" و "الحقيقة الغائبة" و "حوار حول العلمانية" و"الملعوب والإرهاب والطائفية إلى أين".. كلها توارت ودخلت فى المساحة الباهتة من اهتمامات الناس.. وأصبح اقتناؤك كتاب لفرج فودة أو تصفحك له جريمة يحاكمك عليها من حولك حتى لو لم يكونوا على دارية بأفكار الرجل وتوجهاته ! .

ذهبت السيدة راوية شقيقة د. فرج فودة إلى نقابة الأطباء بعد وفاة أخيها لاستخراج أوراق خاصة بزوجها الطبيب ، وإذا بها أمام شخص طويل اللحية.. أخذ يتابعها بنظراته وهو يتصفح أوراقها ، وفجأة سألها أنت تقريبي للرجل اللى اسمه " فرج فودة" تسمرت راوية فى مكانها وأجابته دون تردد.. لا.. لا أعرفه!

هذا الموقف يصور باختصار محزن حالة عائلة فرج فودة بعد مقتله.. فقد ترك خلفه زوجته وابنتين وولدين توفى أحدهما.. وبعد أن كان الرجل كل حياتهم.. يوفر لهم مستوى مرتفعاً من المعيشة وجدوا أنفسهم أيتاماً فى الحياة.. أصبحوا يكرهون الكتب والفكر والنظريات حتى التى كان يقولها أبوهم.. فقد كانت السبب من وجهة نظرهم فى حرمانهم منه وإلى الأبد.. وياليتهم استفادوا شيئاً.. فكل ما فعلته الحكومة أنها خصصت لهم معاشاً شهريا قدرة خمسمائة جنيه تصرفها لهم وزارة الشئون الاجتماعية.. وهو مبلغ ضئيل لا يسمن ولا يغنى من جوع .

لم يكن غريبا أن نفعل مع أبناء فرج فودة ذلك .. فقد فعلنا فى أفكاره ما هو أشد وأوقح.. تم تصوير الرجل فى الشارع المصرى على أنه ملحد لا يؤمن بالله.. جعل كل همه هدم الإسلام والقضاء عليه.. وبتر جذوره .

تركنا عملاء الإسلام يصورونه للناس على أنه الكافر الذى يساند إسرائيل ويريد أن تصبح مصر دولة لا دينية .. مع أن أفكاره الحقيقية.. لا تقول ذلك.. فقد كان فرج فودة يريد الإصلاح.. لأمته ولشعبه وأهله الذين تركوه يقتل على قارعة الطريق.. دون أن يشعرولو بواخزة واحدة فى ضمائرهم وهم يسمعون خصومه الذين ما زالوا يتنفسون الحرية بيننا يردون عنه.. أن فرج فودة وقف حياته على حرب الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة الدولة الإسلامية فى أى صورة من الصور وبأى وسيلة من الوسائل.. وقد أعلن ذلك فى مختلف كتبه ولقاءاته الفكرية .

هذا رأى الخصوم.. لكن ما هى حقيقة أفكار فرج فودة.. لم يكن يختلف على الإسلام.. لأنه لا يجوز الاختلاف عليه.. لكنه كان يفرق بين الإسلام الدين والإسلام الدولة ، كان الإسلام الدين عنده فى أعلى عليين.. أما الإسلام الدولة فهو كيان سياسى وكيان اقتصادى وكيان اجتماعى يلزمه برنامج تفصيلى يحدد أسلوب الحكم ! .

لم يكن د. فرج فودة يلقى رأيه هذا على عواهنه ويمضى.. ولكنه كان يستند لما يقوله أنصار الدوله الإسلامية.. بل وقدم عدة حجج لرفضه لها:

الحجة الأولى: عند د. فرج فودة جاءت فى مجلة لواء الإسلام الصادر فى ٧ فبراير ١٩٨٧ ، فقد سئل مأمون الهضيبى.. أنتم متهمون بأنكم لا تقدمون برنامجاً تفصيلياً لحل المشكلات التى تواجهها البلاد وتكتفون بالشعارات الفضفاضة والمبادئ العامة ، فرد الهضيبى بقوله: إننى أقول للذين يطالبون الإخوان ببرامج تفصيلية أقول لهم الأولى بكم أن تطالبوا السلطات بكف يدها العنيفة عن الدعاة إلى الإسلام حتى يتاح المناخ الصالح للدراسات والأبحاث والابتكارات ، ويضيف د. فرج فودة أن باقى من أجابوا عن مثل هذا السؤال لم يخرجوا عن هذا الإطار فى الإجابة .

الحجة الثانية: أخذها فودة مما كتبه الشيخ محمد الغزالى فى جريدة الوفد فى ٢ فبراير ١٩٨٩ عن أن دولة الخلافة الراشدة قامت على شورى صحيحة أما دول الخلافة الأخرى بقية الألف وثلاثمائة سنة عدا ثلاثين سنة ، فقد فقدت صفة الرشد، وأصبحت خلافة فقط لأن الشورى فيها غائبة أو مشوهة وصاحب السلطة فيها يستطيع أن يفتئت على الشعب ويلغى إرادته ، بعد الخلافة الراشدة كان حكم الخلافة الأموية أكثر من تسعين سنة ، ويسأل فرج فودة.. فأين الفترة التى حكم فيها بالدين الصحيح ؟ سنتان ونصف السنة فقط هى عمر خلافة عمر بن عبد العزيز..

الحجة الثالثة: استند فيها فرج فودة إلى الواقع الذى يعيشه الناس.. وقال بصراحة للإسلاميين.. الدولة الدينية ليست وهماً ولا حلماً.. فهناك دول بجانبنا تحاول أن تجرب هذا النموذج.. أعطونا المثال هل هى الدولة التى تطبق ذلك فى الجزيرة العربية ، هل هى الدولة التى تطبق ذلك فى إيران؟ هل هو حكم النميرى فى السودان؟.. ويأخذ فرج فودة الإسلاميين من أيديهم ويضعهم فى مواجهة مع الشيخ الغزالى .. حيث يقول لهم إن الشيخ الغزالى قال فى مجلة صباح الخير يوم ١٢ إبريل ١٩٨٩ إن الإسلاميين منشغلون بتغيير الحكم أو الوصول إلى الحكم دون أن يعدوا أنفسهم لذلك .

حجة الرفض الرابعة للدولة الإسلامية صاغها فرج فودة بما يشاهده من الإسلاميين وقبل أن يدخلوا إلى الدولة الدينية.. فهو لم ير إلا إسالة الدماء وتمزيق الأشلاء والسطو على المحلات العامة وتهديد القانون وتمزيق الوطن بالفتن.. فإذا كان هذا ما يحدث وهم على البر.. فماذا يمكن أن يحدث لهذا الوطن إذا حكمت الجماعات الإسلامية.. وإذا كانت هذه هى البدايات فبئس الخواتيم .

أراد فرج فودة بدعوته إلى رفض الدولة الدينية أن ينزه الإسلام عن ممارسات السياسة.. ويضرب فودة المثل.. ففى مؤتمر عقد فى جدة جعلوا صدام حسين فى أسفل سافلين بالإسلام ، وكان هناك فى الوقت نفسه مؤتمر فى بغداد جعلوا صدام فى أعلى عليين بالإسلام أيضا.. فمن الذى نزل بالإسلام إلى هذا المنزلق غير المزايدات السياسية.. وهنا فى مصر.. كان لدينا من الإسلاميين من ارتفعوا بالسلام وبمن صنعه إلى أعلى عليين بالفتوى ، ومنهم من طالب بقتله بالفتوى أيضاً.. فالإسلام أنزه من ذلك .

من هذا المنطق كان فرج فودة يتحدث دائما.. يملك المعلومات والأفكار والمنهج الصحيح.. وعندما كان يعجز خصومه عن الرد عليه.. كانوا يهربون من المناقشات إلى السباب والشتائم والافتراء.. ويبدو أن الشيخ الغزالى كان ناقماً على فرج فودة لأنه كان يحاربه بكلامه وتصريحاته المعلنة.. ولهذا كان طبيعياً أن

يفتى الشيخ الغزالى بحل دم فرج فودة فى المحكمة . وهو ما كان غريبا على الشيخ الغزالى.. لأن ذلك كان يناقض ما يعلنه عن نفسه من آيات السماحة وملامح الاعتدال .

كان د. فرج فودة هدفا للانتقام لأنه كان يواجهه دون مواربة.. كان يصب هجومه على الأشخاص وليس الأفكار المطلقة .. تعرض لأحاديث الشعراوى فى التليفزيون.. واعتبر أنها واحدة من أخطاء التوجه الإعلامى المصرى.. أصبح الشعراوى قوة لدرجة أنه عندما مست أحاديثه عقيدة الأقباط ومشاعرهم أكثر من مرة لم يستطيع التليفزيون أن يفعل شيئاً ، وترتب على محاوله حصر برنامجه فى وقت أكثر محدودية أن ثار المشاهدون وعبروا عن ثورتهم بسيل من الخطابات.. وجد المشرفون على التليفزيون أنفسهم فى مأزق بسببها فأبقوا على البرنامج فى موعده ، لم يكن فرج فودة ينافق أو يهادن.. أو يمسك العصا من المنتصف .. ولذلك قتلوه هو.. وتركوا غيره .

لم يفعل د. فرج فودة ذلك.. لأنه كان رجلاً خارقاً للعادة.. أو عبقرياً أكثر من الآخرين.. ولكنه فعله لأنه أدرك منذ البداية أنه صاحب رسالة ، ولد فى مدينة الزرقا بمحافظة دمياط فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٤٥.. حصل على بكالوريوس الزراعة فى يونيو ١٩٦٧ ، بعدها حصل على ماجستير العلوم الزراعية فى أبريل ١٩٧٥ من جامعة عين شمس ، ثم حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد الزراعى عام ١٩٨١ من نفس الجامعة ، عمل معيداً بكلية الزراعة جامعة عين شمس ثم مدرساً بزراعة بغداد ثم خبيراً اقتصادياً فى بعض بيوت الخبرة العالمية.. وبعد أن استقر فى القاهرة أسس مجموعة فودة الاستشارية المتخصصة فى دراسات تقييم المشروعات .

ظل عضوا بحزب الوفد.. وألف كتاباً عن المستقبل فى ظل الحزب منحه اسم "الوفد والمستقبل" عام ١٩٨٢ ، لكنه أعلن استقالته من الحزب بعد تحالف الوفد

مع جماعة الإخوان عام ١٩٨٤.. حيث اعتبر ذلك من قبيل الردة السياسية والتخلى عن المبادئ الأساسية التى قام عليها الحزب ، بعدها سعى د. فرج فودة لتأسيس حزب "المستقبل" لكنه لم يتمكن من ذلك حتى تم اغتياله .

حياة الرجل كانت عادية إذن.. لكن الذى لم يكن عاديا هو إصراره على موقفه وتقديمه حياته ثمناً لأفكاره وآرائه.. كان فودة مفكراً جديراً بالاحترام على الأقل.. ظل صلبا حتى لحظة مقتله.. لم يتراجع رغم الضغوط الشخصية ومحاولات النيل منه وتشويه صورته.. لقد رأيته مرة واحدة .. فى المناظرة التى عقدت بينه وبين عدد من العلماء والمفكرين منهم الشيخ الغزالى و د. محمد عمارة والمستشار المأمون الهضيبى.. جرت أحداث الندوة فى معرض الكتاب وأدارها د. سمير سرحان.. كان د. محمد خلف الله يجلس إلى جوار د. فرج فودة فى خندق واحد.. لكنى شعرت أن د. فرج كان الأشد صلابة وضراوة وهجوماً وانقضاضاً.. حضر أكثر من ثلاثين ألف شاب المناظرة وعلت أصوات أغلبهم بالتكبير والتهليل أكثر من مرة .. لكن هذا لم يرهب د. فرج فودة الذى أعتبره أنا شهيداً من شهداء الإسلام.. أراد أن يحافظ على الثوب النقى من الشوائب التى تعلق به من أيدى من يدعون أنهم يدافعون عنه ! .

ضاقت الحياة بأسرة فرج فودة بعد ما حدث لكبيرهم.. وبعد ما رأوا الجميع يتخلون عنه.. خافوا من أفكاره بعض الوقت.. لكنهم عادوا إليها مرة أخرى.. وعندما صدرت طبعات جديدة من بعض كتبه.. أعلن ورثته أنهم على استعداد لتلقى رسائل القراء المعارضة أو المؤيدة لأفكار الدكتور فودة.. ووضعوا إلى جوار الإعلان رقم الصندوق البريدى والعنوان حيث يقيمون بمصر الجديدة.. فهم فى شوق إلى عطر عائلهم حتى لو كان العطر مجرد مناقشة لأفكاره.. !

اعترافات عارية

4

اعترافات عارية

هل تريدون الصراحة؟ نحن لا نكف عن الكلام فى الجنس.. على المقاهى فى المدن وعلى النواصى فى الريف.. فى الحجرات الخاصة المغلقة وفى مكاتب الموظفين العامة ، وفى أتوبيسات الفقراء المزدحمة وفى أتوبيسات الأثرياء المكيفة ، فى سهرات المساطيل التى تتصاعد فيها أنفاس الحشيش والبانجو وفى جلسات المثقفين الذين يتعاطون الكلام فى الفكر وفنون الغرام ، الكل يتحدث عن الجنس ، المتعة والعذاب - المرأة المثيرة والمرأة الباردة الوضع المريح والوضع المرهق ، رجال يرون لأصدقائهم تفاصيل لياليهم الحمراء ، ونساء يعترفن بفحولة أو خيبة رجالهن.. الكل يتحدث والكل يسمع ، وعندما تستوقفنا الأحداث الكبيرة ، نطويها صفحة من كتاب حياتنا ، ثم نمضى فى ممارسة عادتنا الأثيرة فى تعاطى الجنس ممارسة وحديثاً ، حتى ضحايا الكوارث والحروب لن يحصلوا منا إلا على بعض كلمات وقراءة الفاتحة ، وبعد ذلك سنعود وربما عدنا إلى القراءة فى كتاب الجنس .

ورغم أن هذا صحيح لكننا لا نعترف به.. نخفيه ونعتبر التصريح به عيبا وكأنه رجس من عمل الشيطان ، نلعن إحسان عبد القدوس بسبب ما يشاع عن أنه كاتب جنسى ، ونشهر بإيناس الدغيدى بسبب عرايا أفلامها ، ونعتبر كل من يكتب أو يتحدث عن الجنس قليل الأدب ، رغم أن كل تفكيرنا فيه ولا نستطيع أن نقاوم مقالاً أو كتاباً يتحدث عن العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء ، عدد كبير من أدبائنا الكبار كسروا الحاجز واعترفوا ببساطة عن أسرار حياتهم الجنسية.. البعض أشار على استحياء.. لكن منهم من ألقى بالقفاز فى وجه الجميع وكتب دون حرج.. وهل تريدون الصراحة مرة أخرى بعد أن نقرأ هذه الاعترافات.. سنقول رغم اهتمامنا الشديد بما نقرأه.. إيه قلة الأدب دى.. !

قد تتصور أن إحسان عبد القدوس هو أكثر الأدباء حديثا واعترافا عن حياته الجنسية الخاصة ، لأن الصورة المرسومة له عند الجميع أنه رجل متحرر أكثر من اللازم ، نساء رواياته يمارسن الجنس مع أى رجل وفى أى وقت ومكان ، وبنات قصصه يبحثن عن الحرية بمعناها الجنسى قبل أى معنى آخر ، المفاجأة أن إحسان عبد القدوس كان شيئا آخر تماما عن كل ما تعتقده أو تظنه .

كان إحسان شخصية محافظة للغاية ، لدرجة أن شخصيته تتناقض مع كتاباته، فالبيئة التى تربى فيها جعلت منه إنساناً صعباً للغاية ، فقد كان ملتزما بالمعنى الاجتماعى ، فلم يكن يسمح لزوجته "لولا" بأن تخرج من البيت بمفردها، وعندما يكون مسافراً يطلب منها ألا تخرج ، بل وترفض كل الدعوات التى توجه إليها مهما كانت ، بل إنه كان صعبا معها فى موضوع الملابس ، لدرجة أنه كان يشترط عليها أن تكون كل ملابسها محتشمة لا تصف ولا تشف .

بلغ من محافظة إحسان والتزامه أن أمه السيدة روزا اليوسف أرسلت أخته إليه التى كانت أكثر تحرراً كى يعاقبها بنفسه ، فقد كانت أخته تركب "البسكلتة" مع ابن الجيران ، فأرادت والدته أن تضع حداً لشقاوتها مع ابن الجيران ، فأرسلتها إلى أخيها لتعيش معه فى العباسية ، هذا التكوين الاجتماعى منع إحسان عبد القدوس من الاعتراف بأسراره الخاصة ، فلم يعترف ألا بعلاقته النسائية الأولى يقول: الحب الأول فى حياتى كان لبنت الجيران ، كانت صديقة لابنة عمتى ، وكان حبا أعتبره من أرقى وأنظف وأعمق أنواع الحب الذى يجمع بين صبى وصبية ، كان عمرى وقتها ١٤ عاما وهى ١٣ عاما ، وكان حبا قويا بالنسبة لى شخصياً ، وكان لا يتجاوز أنها تزور ابنة عمتى وأجلس معها كما كانت التقاليد ، كان شيئا راقيا فى معناه، وكنت أنتظرها على محطة الترام وأركب معها لأوصلها إلى مدرستها "السنية" ثم أعود على قدمى بعد ذلك إلى مدرستى فؤاد الأول ، وكل الذى كان يجمع بينى وبينها لا يعدو أكثر من أن أمسك يديها وكان ذلك منتهى الرومانسية .

هذا المدخل يمكن أن تعتبره بارداً لموضوع عن الاعترافات الجنسية لأشهر الأدباء والكتاب العرب ، لكنها كانت مهمة لنفض الاشتباك حول ما يثار عن

إحسان عبد القدوس ، فالناس يظنونه كاتبا متحرراً من كل التقاليد والأعراف الاجتماعية ، مع أنه ملكى أكثر من الملك ، بل وتصلح نهايات أبطاله الذين يبغون الحرية للتدريس وأخذ العظة والعبرة .

إدوارد سعيد

المفكر العربى الكبير إدوارد سعيد الذى ولد عام ١٩٣٥ فى القدس ، وكان يعمل قبل موته بروفيسور شرف فى اللغة الإنجليزية والأدب المقارن فى جامعة كولومبيا فى نيويورك ، أخرج حياته الشخصية فى كتاب منحه اسم " خارج المكان" يقدم الكتاب لسيرته الذاتية التى لم يحجب فيها اعترافه عن حياته الجنسية، حتى الخامسة عشرة من عمره ، كان لا يزال متبتلا كليا ومعاشرته الجنسية للفتيات كانت معدومة ، يقول إدوارد: لم يكن توجد مجلات جنسية أو أفلام فيديو إباحية متوافرة علنا بالنسبة لى ، ثم إن المدارس التى ارتدتها فى مصر والولايات المتحدة إلى حين بلوغى السابعة عشرة والنصف كانت تمنع كل شيء وتنزع عنه كل صفة جنسية ، وينطبق الأمر نفسه على جامعة برينستون حيث درست إلى حين بلوغى الحادية والعشرين .

كان الجنس ممنوعا لإدوارد سعيد فى كل مكان بما فى ذلك الكتب ، ومع ذلك فقد تمكن من قراءة وصف يتضمن التفاصيل الوافية عن العملية الجنسية فى مذكرات "ويلفرد ده سانت ماندى" يقول سعيد: صار ويلفرد واحداً من رفقاء مراهقتى الصامتين السريين ، لكن أهلى كانوا قد أبعدونى عن كل ما من شأنه إثارة الغريزة الجنسية لدى ، لكن حاجتى العارمة إلى المعرفة والاختيار هى التى خرقت قيود الأهل ، إلى أن حدثت مواجهة علنية ما أزال أرتعد لذكراها بعد مضى ست وأربعين سنه عليها .

دخل عليه أبوه وأمه فى غرفته بعد ظهر يوم أحد قارس البرد فى أواخر نوفمبر عام ١٩٤٩ ، فتش أبوه فى ملابسه وقال له : أنا وأمك لا حظنا أنك لم تستحلم وهذا يعنى أنك تعبث بجسدك ، كان الوالدين قد حدثا ابنهما عن مخاطر العبث بالجسد ، رغم أن أباه لم يكلمه أبداً عن ممارسة الحب الذى هو الجنس ،

كان إدوارد قد طرح سؤالاً على أبيه عن كيفية ولادة الأطفال ، فكان الجواب أقرب إلى ترسيمة جاهزة ، يقول سعيد: إن حمل أمى المتكرر وخصوصا انتفاخ بطنها بطريقة تنذر بالخطر خلاله ، لم يسهم فى الإجابة عن السؤال عن الحمل والوضع، كانت الإجابة كل مرة هى "كتبنا رسالة مرة إلى يسوع فبعث إلينا بطفل" ، أما ما قاله أبى بعد تحذيره الصارم من العبث بالجسد فكلمات شحيحة عن كيفية وضع الرجل "أعضاءه الحميمة" فى "الأعضاء الحميمة الخاصة بالمرأة" ، لا شيء عن النشوة أو القذف أو عن موضع تلك الأعضاء الحميمة من الجسم .

سأل إدوارد أباه ذات مرة : كيف يعلم المرء أنه قد استحلم ، فقال له بسرعة تعلم ذلك فى الصباح ، عاد إدوارد ليسأله وهل هو مثل البيبى ، فرد الأب للمرة الثانية نعم أنه يشبه البول إلى حد ما لكنه دبق أكثر من البول ويعلق على منامتك أى وسادتك .

لم يتعرف إدوارد سعيد على الاستمناء بنفسه ولكنه شاهده صوتاً وصورة يقول: كنت أتسكع فى غرفة تبديل الثياب فى نادى المعادى ، وكنت بخجلى المعهود أدخل الغرفة لارتداء المايوه ، اقتحم الغرفة عصبة من الفتيان يكبروننى سنا ، يرشحون ماء من السباحة يتقدمهم إيهاب ، كان ثريا مطمئنا ومستقراً فى مكانه ، طلب منه أصدقاؤه أن يفعلها ، قالوا له افعلها يا إيهاب ، أنزل الشاب سرواله واعتلى المقعد ، وفيما هو يتلصص من فوق الجدار على منطقة التشمس حول حوض السباحة ، بدأ يستمنى ، سمعتنى تتفلت منى كلمات "افعلها على نية كوليت" ، وكوليت هذه كانت فتاة عشرينية جذابة جنسيا ترتدى مايوها أسود ، وكانت تنعم على بحضور طيفها أوهامى الجنسية ، لم يلاحظ أحد ذلك ، فالجميع كان يراقب إيهاب وهو يستمنى ببطء إلى أن قذف وببطء أيضاً ، مطلقا ضحكة مغرورة وكأنه فاز بكأس فى مباراة رياضية .

عبد الله الطوخى

وإذا كان إدوارد سعيد قد تعرف على عالم الجنس من حواراته الدائمة مع أبيه ، فإن عبد الله الطوخى الكاتب الراحل الكبير تعرف على الجنس فى طفولته

بمفرده، فذات يوم من أيام الصيف فى قريته التابعة لمدينة المنصورة ، كانت القرية كلها ساكنة ، هرب الأهالى من جبروت الشمس والحر يقول الطوخى: ظللت أمشى وحدى ، كنت حافياً أحسست بلسعة التراب فى قدمى ، لمحت إحدى الأشجار الباسقة الملاصقة لإحدى الزرائب ، ذهبت إليها وجلست على مصطبة الزريبة فى ظلها ، كان السكون يخيم على البلد ، فلا صوت عصفور أو يمامة أو غراب ، فجأة سمعت صوتا أدركت أنه من داخل الزريبة ، لم يكن صوتا ، بل حركة وقدرت أنه حركة أقدام بهائم ، لكنها كانت حركة غريبة وغير عادية فى نفس الوقت .

نهض الطوخى من جلسته فى حذر ، ونظر إلى داخل الزريبة ، وإذا بمنظر جعله يجرى ويجرى حتى صعد الجسر وبلغ نهر النيل وجلس فى ظل شجرة ، استرد أنفاسه واسترجع المنظر . أحد أفراد القرية يمسك البقرة من خلفيتها وهو فى شدة هياجه والبقرة لا تريد أن تستسلم له ، يقول الطوخى ، كان ممسوسا بالرغبة ومنهمكا فى محاولة تحقيقها ، فلم ير هذا الذى ينظر من الطاقة عليه ، حمداً لله أنه لم يرنى ، إذ خيل لى لو أنه كان قد رآنى وأنا أراه مع البقرة لأمسك بى وخنقنى دون أن يرانى أحد ثم تاوانى تحت الأرض حتى لا أمشى فى البلد وأنا أعرف سره أو عاره .

واقعة البقرة لم تكن الوحيدة فى حياة الطوخى يقول: بينما أنا جالس ذات ظهر فى ظل شجرة ، تحت ضريح مشهور عندنا هو ضريح سيدى حسن البادى، إذ بى أسمع وأرى شابين من أقربائى يخططان فى السر للحصول على حمارة واتيانها ، لم تكن الحمارة من قريتنا ، بل جاءت يركبها صاحبها الذى حل ضيفا على والد واحد منهما ، أدركت من فرحتهما السرية بوصول الحمارة ما ينويان عليه ، فثار فضولى وأردت أن أتيقن ، فظللت أراقب حركتهما من مكمنى تحت الشجرة دون أن يريانى ، حتى رأيت ابن المضيف وقد تسلم الحمارة من صاحبها ليذهب بها إلى الدوار ، وقفلا الباب خلفهما ، فنهضت من مكمنى واتجهت إلى الدوار دون أن ألفت نظر أحد إلى أن شيئا يحدث ، كان باب الدوار الخشبى قديما وبه شقوق

رفيعة يمكن النظر من خلالها ، واقتربت على أطراف أصابعى ونظرت فإذا بى أرى أحدهما يعدل من وضع الحمارة لكى يسهل للثانى إتيانها .

اعتراف الطوخى لم يكن على الآخرين فقط.. ولكنه اعترف على نفسه أيضا، فقد كان يريد أن يتعرف على متعة الجنس دون أن يقع فى الزنا يقول: لم تكن فكرة فعل الجنس تشغلنى فى صباى بل الذى يشغلنى هو أن أحظى به أولاً ، وأجرب متعته السحرية التى يتحدث عنها الأولاد الكبار هامسين ، وقد فتحت أمامى طاقة أمل مبهجة وسعيدة ، حين عرفت أن بعض الأولاد يشعرون بهذه المتعة دون أن يلجأوا إلى الزنا ، بل تأتيهم وهم نيام يستحلمون، بدا لى الاستحلام أمراً سحرياً يؤكد لى أنى كبرت وأحس أحاسيس الرجال ، دون أن آتى شيئا فى الحرام ، وكنت أنام على أمل أن يحدث لى ذلك ، لكنى كنت أحزن ، إذ أصحو فأجد ملابسى جافة لا أثر فيها لذلك السائل السحرى .

نجيب محفوظ

نجيب محفوظ رغم هدوئه الظاهر ، فإن اعترافه عن علاقاته النسائية وذكرياته الجنسية يثير الصخب ، كانت نظرة نجيب محفوظ للمرأة جنسية بحتة يقول: عشت فى العباسية أول قصة حب حقيقية فى حياتى ، وهى قصة غريبة ما زلت أشعر بالدهشة لغرابتها ، كنت أيامها على أعتاب فترة المراهقة، وقبل أن أدخل هذه التجربة كانت علاقتى بالبنات لا تزيد على مداعبات تتجاوز الحد أحياناً، وكانت هذه التجاوزات البريئة تصطدم بالإحساس الدينى ، لدرجة أننى كنت أتوجه إلى الله يوميا ، أعيش فى عذاب مستمر من تأنيب الضمير .

كانت الفتاة التى أحبها نجيب تكبره سنا ، كانت فى العشرين من عمرها وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، جذبها إليه بالإضافة إلى جمالها أنها كانت مختلفة عن كل البنات اللاتى عرفهن قبلها ، فلم تكن فتاة تقليدية مثل بنات العباسية ، بل كانت تميل إلى الطابع الأوروبى فى مظهرها وتحركاتها .

ويعترف نجيب نحفوظ ببساطة يقول: فى الفترة التى سبقت زواجى عشت حياة عربدة كاملة ، كنت من رواد دور البغاء الرسمية والسرية ، ومن رواد

الصالات والكباريهات ، ومن يرانى فى ذلك الوقت لا يمكن أن يتصور أبداً أن شخصا يعيش مثل هذه الحياة المضطربة وتستطيع أن تصفه بـأنه حيوان جنسى ، يمكن أن يعرف الحب والزواج ، كانت نظرتى للمرأة فى ذلك الحين جنسية بحته، ليس فيها أى دور للعواطف أو المشاعر ، وإن كان يشوبها أحيانا شيء من الاحترام ، ثم تطورت هذه النظرة وأخذت فى الاعتدال بعدما فكرت فى الزواج والاستقرار .

رءوف مسعد

هذه الاعترافات تظل مهذبة ، تسبح فى العالم الجنسى للأدباء وكبار الكتاب ، لكنها لا تصرح بل تلمح ، تفضح لكن دون تفاصيل ، التفاصيل نجدها عند آخرين، منهم مثلاً الكاتب والأديب رءوف مسعد الذى ولد فى السودان عام ١٩٣٧.. ويستقر الآن فى هولندا منذ العام ١٩٩٠ ، فى سيرته الذاتية التى أعطاها اسم بيضة النعامة "صال وجال فى ذكرياته الجنسية ، فى حكايته الأولى يقول: أسند الخادم مكنسته المصنوعة من زعف النخيل على الكرسى ، ووقف خلف الولد الذى كان منحنيا لم يحس به الولد ، التصق الخادم زنقه بين فخديه واضعا يده على فمه يسده والأخرى ترفع جلابية الولد ، وهكذا حسم الخادم الموقف الذى كان يتنامى بينهما خلال أسبوع طويل من المطاردة ، الخادم لا يتجاوز عمره السابعة عشرة ، يعمل فى البيت من حوالى أسبوعين ، أم الولد مشغولة فى أرجاء البيت الواسع وهى تحاول أن تضع الولد دائما تحت مراقبتها ، ولكنه كان يهرب منها ، تنادى عليه فلا يجيبها ، كانت أحيانا ترسل الخادم للبحث عنه ، حينما يجده يتسلل إليه من الخلف ويحتضنه ، أحيانا كان الولد يرفضه ويخمش وجهه ، أحيانا أخرى كان يتجاهله فيظل الخادم يحتضنه ساحبا إياه ببطء باتجاه صوت الأم المنادى ، حينئذ يتركه ويراقب الموقف عن كثب هل سيشتكيه الولد الآن ؟ لكن الولد لم يشكه أبداً ، هناك ذلك التواطؤ الصامت بينهما ، الخادم يكشف مكانه يحتضنه ، يجلسه أحيانا على حجره ، الولد يتصرف فى هذه الأحوال كأن شيئا لم يحدث ، لكنه يسحب نفسه فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن يضطر للاعتراف لعقله

الصغير بما يحدث ، حينما كان الخادم يفقد الأمل منه ، ويبتعد لبضعة أيام كان الولد يحس بالترك ويبدأ فى مناغشته ، يحتك به يخبئ أشياءه ويلاحقه فى أرجاء البيت ، حتى هذا اليوم الذى حسم فيه الخادم الموقف وأحس للحظات قصيرة بأنه السيد .

سهيل إدريس

هذا الاعتراف عن شذوذ الطفولة ينافس اعترافا آخر صاحبه هذه المرة سهيل إدريس صاحب مجلة الآداب البيروتية ، ففى سيرة حياته التى كتبها تحت عنوان "ذكريات الأدب والحب" أعترف سهيل بشذوذ والده الجنسى ، لقد أخذ البعض على سهيل هذا الاعتراف لكنه يقول: لقد أخذ على البعض ما ذكرته عن سلوك أبى من شذوذ جنسى، ولكنهم لا يستطيعون أن يشعروا بما كنت أشعر به شخصيا، حين كتبت ما كتبته ، لم يكونوا ليشعروا بالخجل الذى عاينته من سلوك أبى ، وهذا شيء إنسانى وطبيعى ، ومن المفروض أن أتحدث عنه كما أشعر بالخجل من أى سلوك يكون فيه الكذب هو الطاغى والتزوير والتضليل هما الأساس .

نعود إلى اعترافات صاحب بيضة النعامة مرة أخرى لنسمع إلى سؤاله الذى يقول: هل يمكن السير فى مظاهرة بدون ملاحظة أرداف من أمامك من البنات؟ يقول: ثمة مظاهرة للاحتجاج على اتفاقية كامب ديفيد التى وقعها أنور السادات ، سرنا جمعيا باتجاه السفارة المصرية ، المصريون الذى يعملون فى العراق ، والطلاب الذين يدرسون هناك ، رأيتها.. رأيت أولا الردفين وقد تكورا خلف البنطال الرمادى ، كنت على بعد خطوات من مؤخرتها ، فاقتربت أكثر لأرى وجه صاحبة الردفين ، إنها يمامة التى تدرس فى كلية الطب ، أعرف والدها على خفيف ، سألت نفسى مؤنباً لماذا لم أهتم بها من قبل ، الردفان يقبلان ويدبران يتلاطمان ويتراعشان ، قلت لنفسى لو لم تكن تمتلك يمامة شيئا سواهما لشفعا لها.

ويواصل رءوف اعترافه : انتهت المظاهرة كما قدر لها ، وضعت ذبذبتى فى مجال جسدها ، تبادلنا بعض الملاحظات ، وجهها الخفيف السمرة يتضرج انفعالا

وينضح عرقا يتجمع فوق شفتها العليا التى تبرز قليلا فوق السفلى وينحدر فوق رقبتها ويلصق بلوزتها البيضاء الخفيفة على صدرها الصغير بالنسبة إلى الردفين، القدم صغيرة متناسقة مع الكف ، الفخدان معقولا الطول ، الخصر نحيل متماسك ، الظهر منسجم بانسياب ورائحة جسدها نظيفة ممتزجة برائحة انفعالها وتوترها وعرقها .

هذا الوصف غير البرئ لملامح أنثى ناضجة فواره يقود رءوف مسعد من بغداد إلى القاهرة يقول : فى بدروم صغير فى حى جاردن سيتى فى القاهرة وفى سنتى الجامعية الأولى وفى الشقة التى يسكن فيها أصدقائى الطلاب السودانيون ، سألت المرأة التى صدناها من شارع قصر النيل والتى كانت فى منتصف العمر خلاص؟ فأجابت: طبعا هى شغلانة؟ أرتدى ثيابى وكنت ما أزال مشغولاً بالسؤال الأبدى الذكورى: هل أنا رجل بما فيه الكفاية؟ وما هو التكنيك الصحيح الذى يسعد المرأة ؟ وهل للحجم علاقة بكل ذلك ؟ أجلس فى الصالة أدخن سيجارة بينما يلغط الأخرون ويضحكون بتوتر ، أسير إلى ميدان التحرير ، الباص إلى شقتنا فى الضاهر ، أختى الكبرى تسألنى مسترييبة كنت فين ، فأتلعثم ، تقول دون أن تنظر إلى ، ريحتك غريبة أذهب إلى الحمام ، أدعك جسدك بالليفة والصابونة.

محمد شكرى

نصل إلى المحطة الأخيرة الأكثر شراسة وسخونة وإثارة وفضيحة ، تلك هى محطة محمد شكرى ، الكاتب المغربى صاحب راوية "الخبز الحافى" التى صدرت لأول مرة باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٣ . الفصل الثالث من الرواية ليس اعترافا مكشوفا عن عالم شكرى الجنسى ، ولكنه اعتراف يصل إلى حدود الفضح، يصف فيه شكرى لقاءاته الجنسية الأولى وصفا كاملا ، يحكى عن المرأة الأولى التى أختبر معها رجولته يقول : انتقلنا إلى حى الطرانكات ، أعين أمى فى بيع الخضر والفواكه ، أنادى بصوت صاخب على المشترين بالأسبانية ، كل مساء آخذ لنفسى دون علم أمى النقود لشراء معجون الحشيش والكيف والجلوس

فى المقهى والدخول إلى السينما ، التقيت صديقى التفرسيتى اشترينا نصف زجاجة من الماحيا وشربناها عند حافة جبل درسة واتفقنا أن نذهب إلى الماخور .

فى الماخور ابتسمت لهما المرأة الأحرودة التى تعتبر فى عرف المراهقين معلمة فى النكاح ، تفحصا وجهها الذى كان يلمع بالمساحيق وعيناها مكحلتان ، يقول شكرى نظر إلى رفيقى فأكدت للمرأة أننا لم نشرب كثيرا ، فقط نحن مرحان ونريد أن ننعس معها كما فعل رفاقنا فى الحى ، ظلت تفحصنا بنظرات باسمة ونحن نخاف أن ترفضنا قالت لنا : طيب من سيبدأ الأول؟ نظرت إلى رفيقى قال: أرجوك أدخل معها أنت الأول ، طلبت منى أن أدفع لها المال مقدما لم أتردد هى تبيع جسدها ونحن نشتريه ، أخذت تتعرى والسيجارة فى فمها ، دخانها يجعل عينيها ناعستين ، شفتاها شهوانيتان حمراوان قالت لى : افتح فمك .

فتح محمد شكرى فمه ، كان خائفا منها ، وضعت سيجارتها فى فمه المفتوح، ادارات له ظهرها ، فك لها رافعة صدرها متأملا بشهوة الزغب الخفيف عند منبت ظهرها ، استدارت وواجهته باسمة رافعة نهديها بيدها ، استعادت سيجارتها إلى فمها ، وابتسمت لها خوفا من جسدها ، وسط هذا الجو المتوتر يقول شكرى : أفك أزرار بنطالى باضطراب قلبى يخفق بعنف ، هذه المرأة ستتركنى أدخل فى لحمها كما تدخل السكين فى اللحم ، سأجرح لها فرجها .

لم يكن شكرى خبيرا بعالم النساء ولذلك لم يتحرج أن يتحدث عن اللحظات الحميمة كما وقعت بالضبط يقول: ادخل بين فخديها بحذر وخوف ، تضغط على بساقيها من الخلف ، تضمنى إليها قالت منزعجة: أنت لا تعرف بعد كيف تدخل فى المرأة ، لم أعرف ما أقوله لها ، أبعدتنى عنها قليلا ثم قالت ادخل الأن - وأكملت: مالك ادخل أو قم من فوقى ، لا تخف - لن أكلك أنت جميل.. أدخل .

حاول محمد شكرى هذه المرة بحذر ، لكنه ظل غشيما.. صرخت المرأة مرة ثانية وقالت فى زهق : من أجل هذا أكره النكاح مع الأطفال ، لا تلمسنى.. لاشك أنك هذه أول مرة تنام فيها مع امرأة.. يقول شكرى: لم أقل لها شيئا ، أوشكت أن أقول لها بأننى لعبت بجسدى فى الحى مع رفاقى ، لم ترد أن تعطينى فمها ، تعطينى خدها ، نهداها ينفلتان منى ، أنها مثل سمكة تنزلق فى اليد ، تنزلق يدى من على صدرها .

لم يكد شكرى أن ينتهى حتى قالت له المرأة: هيا.. إنك انتهيت.. لقد أتى دور رفيقك دفعتنى عنها ، وقبل أن ينسحب حذرته المرأة ، ليس هكذا تلوث لى الفراش انتظر حتى أريك كيف ينبغى لك أن تنسحب ، لم يجد شكرى تعليقا على هذه النهاية المهينة إلا أن يقول: أنها حمقاء هذه المرأة: أليست هى التى أمرتنى أن أقوم من فوقها؟ تدير لى ظهرها اشتهى مؤخرتها أيضا ، فكرت أنها معلمة الجماع كما قيل لنا ، لكنها تشكو كثيراً .

تعود محمد شكرى وصديقة التفرسيتى أن يتردد ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع ليكتشفا امرأة جديدة تقبل أن تدخل معهما ، يقول شكرى : بعضهن يرفضن ، كلهن تقريبا يتشابهن فى الفراش (هيا .. انته بسرعة) كنا نعود عند اللواتى يعطيننا شفاههن ونهودهن ويتركننا نفعل الحب معهن على مهل ، قلت للتفرسيتى : النعاس مع امرأة بلا تقبيل الشفتين وضم النهدين باليدين ليس نعاساً كاملاً .

هذه النظرية التى وضعها الصعلوك المغربى "تقبيل الشفتين وضم النهدين باليدين" كان لابد من تحويلها إلى واقع مرئى ومسموع وملموس – ذهب شكرى إلى الأسبانيات .. المرأة هذه المرة كان اسمها ايريس فورتى يقول شكرى : تعرت من كل ثيابها ، تمددت على الفراش رافعة ساقيها ضامة فخديها ، ثدياها صارا مثل خبزتين صغيرتين مدورتين ، لم تقبض على بمقصها ، تمددت مثل تونة كبيرة ، ثنت ساقها تحت الساق الأخرى ، نظرت إلى انفراج ساقيها وضع غريب على ، تركتنى أقبلها فى فمها بلطف ، فمها حلو وحار ورائحة عطر تنبعث من خلف أذنيها ، تألمت قالت : لحظة سأغير وضعى ، هذا الوضع يبدو أنه لا يلائمك ، ربما يلائمك هذا ، غيرت وضعها ، خفت ألا تتركنى أدخل فيها مرة أخرى ، اعجبنى الوضعان تركتنى ألمس نهديها برفق ، حينما ملأت فمى بنهديها ولسانى يدغدغ حلمتها قاومت رغبة قوية حتى لا أعضها .

بعد أن أنتهى شكرى سأله رفيقة كيف هى ؟ فقال له : أحسن من كل الأخريات ، تعطى جسمها كله ، نظيفة ومعطرة وليست مستعجلة مثل الأخريات ،

سترى بنفسك وأتمنى أن أموت فوق جسد امرأة مثلها ، وفى الليل حلمت أنى أرضع نهد امرأة ، حليبها يفور فى وجهى حتى كدت أختنق ، غرق محمد شكرى فى الجنس لدرجة أنه عندما مات أخوه ، لم يحزن على موته ، لأنه كان غارقا فى همومه وتشرده فى عالم الملذات ، فقد أصبح ينفق كل ما يربحه وصديقه على شرب الخمر والنوم مع نساء حى السانية .

لم يفضح محمد شكرى حياته الجنسية الخاصة به وحده ، لكنه ألقى بصورة للعلاقة الخاصة بين أبيه وأمه فى وجوه قرائه يقول : كان أبى يغيب يوما أو يومين ، وحين يعود يتشاجر هو وأمى ، غالبا ما كان يدميها ، لكننى فى الليل أسمعهما فى الفراش يتضاحكان ويتأوهان بلذة ، بدأت أعرف ما كانا يفعلان ، إنهما ينامان عاريين ويتعانقان هذا ما يصالحهما إذن ، عندما أكبر ستكون امرأة سأخاصمها فى النهار بالضرب والشتم وأصالحها فى الليل بالعرى والعناق ، إنها لعبة جميلة ومسلية بين الرجل والمرأة .

اعترافات محمد شكرى تظل هى الأكثر صراحة وفضحاً وإيلاما من الآخرين ، ليس لأنه أشجع منهم ، ولا أكثر قيمة أدبية أو ثقافية ، فهو لم يتعلم القراءة والكتابة حتى العشرين من عمره ، ولم تكن حياته التى قضاها فى الجنس بالطول والعرض تعبيراً عن فكره ، بقدر ما كانت تعبيراً عن القهر الذى عاشه فى ظل أب يكره أولاده ، فقد قتل الأب العابث أحد أبنائه فى لحظة غضب ، ظل محمد شكرى شريراً فى أزقة مظلمة وخطرة بحثا عن قليل من الطعام أو زاوية لينام فيها ، هذه التجربة الحياتية القاسية قادته للتعرف على دنيا السارقين والمدمنين للخمر ، ولذلك كان طبيعيا أن يفضح نفسه قبل أن يفضح مجتمعه ، ولما كان هذا المجتمع لا يخاف إلا من الفضيحة الجنسية فقد ضربه على رأسه بالحذاء وأخرج لسانه - وربما أشياء أخرى ليقول له "طظ فيك" .

5

نساء
في غربة

نساء فى غربة

كنت فى زيارة زميل لى يسكن إحدى قرى الصعيد ، وبينما كنا نجلس نتبادل القفشات دخلت علينا جدته ، جاءت تسلم على زملاء حفيدها.. وإذا بها تسلم عليه أولاً وتقبل يده.. وعندما جاء على الدور فى السلام بادرت أنا وقبلت يد السيدة الكبيرة ، وقعت فى حيرة ، سألت زميلى.لماذا تترك جدتك تقبل يدك والمفروض أن تفعل أنت ذلك.. رد على ببساطة مازلت أحسده عليها.. إنها تفعل ذلك احتراما لى !.

وفى قريتى الصغيرة الساكنة على نيل دمياط ، أنهت إحدى قريباتى خطبتها لأن السيد خطيبها وكان من قرية مجاورة قال لها.. عندما تأتين بيتنا وعندما تسلمى على أى رجل فى العائلة يجب أن تقبلى يده.. ولما سألته مستنكرة ، ليه يعنى.. قال لها ببساطة تماثل بساطة زميلى الصعيدى: لأنك مرة !

وجدت صدى لهذه الأحداث فى ذاكرتى بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب الذى أعدته د. إيمان بيبرس وأعطته عنواناً دالاً هو "بطلات وضحايا.. النساء والرفاهة وانحياز الدولة فى مصر".. الكتاب فى أصله رسالة دكتوراه أعدتها د. إيمان خلال عشرين شهراً فى سبع مناطق فى مدن مصر وقراها ، قابلت خلالها سيدات مصريات وجدن أنفسهن فجأة بدون عائل وبدون مهارات وبدون تعليم ، وكان عليهن أن يواجهن الحياة بمفردهن تقف فى طريقهن أشباح لقمة العيش والخوف على البنات ، والخوف من الولد وعليه والتحرشات الجنسية من رجال يرغبون فى المتعة بلا ثمن .

عبر الدراسة الجادة التى قدمتها د.إيمان بيبرس للمجلس الأعلى للثقافة وصدرت فى كتاب تضع يدك على أسباب قهر النساء فى مصر.. فالمرأة مقهورة

على الدوام ، عندما تولى وجهها شطر الدولة لا تستطيع أن تحصل على حقها ، وعندما تضع مصيرها فى يد الدين تصبح أسيرة.. تتكلم بحساب لأن صوتها عورة ، ولا تخرج من بيتها إلا بحساب.. لأن خروجها حرام ، ولا تعمل إلا بشرط حتى لو كانت عائلة لأولادها وزوجها ، وتنفق عليهم ، وعندما تركن ظهرها على حائط المجتمع تجده قاسياً ينظر لها بريبة شديدة.. فهى إما معقدة نفسيا.. أو عاهرة تخرج لاصطياد الرجال .

فى دولة عبد الناصر التى قدمت نفسها كأداة اجتماعية واقتصادية للتغيير، ضمنت الدولة التعليم المجانى والخدمات الصحية المجانية وفرص العمل للرجال فى الحضر والريف ، وعلى يد عبد الناصر كانت مجانية التعليم فرصة حقيقية للنساء ، حيث ضمنت لهن وظيفة مضمونة ووفرت لهن دخلاً ثابتاً ومنتظماً حتى ولو كان محدوداً ، وكان ذلك طبيعياً بعد أن أقر دستورا ١٩٥٦ و ١٩٦٣ المساواة بين جميع الأفراد بغض النظر عن الجنس ورفض التمييز بين الجنسين على أى أساس كان .

فى هذه الفترة سعت الدولة إلى توفير فرص العمل لجميع خريجى الجامعات والمدارس الثانوية وأسست مراكز لرعاية الطفل ، وسنت قوانين عمل متعاطفة مع ظروف النساء ، ومن ثم وفرت الدولة للنساء إمكانية اختيار العمل بأجر.. وبالتالى فقد أصبح عمل المرأة موضوعاً يهم الرأى العام .

فى دولة السادات اختلف وضع المرأة شيء ما ، فقد أفرز تحرير الاقتصاد وسياسات الانفتاح أشكالاً جديدة من الإدارة ، كان لها أثرها على معدلات الطلب على عمل المرأة، مما أدى إلى انخفاض فرصها فى العمل ، تجاهلت قوانين السادات القوانين التقدمية التى صدرت فى الخمسينيات والستينيات ، وظهر التمييز فى فرص التشغيل فى سوق العمل بشكل واضح ، كان أبرز ما فيه الإعلان عن وظائف للذكور فقط فى القطاع الخاص .

الآن.. وبعد أن أصبحت سياسة الخصخصة هى السائدة.. أصبح القطاعان غير الرسمى والزراعى المصدرين الأساسيين للدخل بالنسبة للنساء ، فى القطاع غير الرسمى تعمل النساء دون تمثيل نقابى أو أى حماية قانونية و لا يتمتعن بأى

حقوق للعمل مثل الأجازات مدفوعة الأجر أو ساعات عمل ثابتة أو رعاية صحية أو حضانات لأبنائهن ، وعليه فإن الأمر لا يقتصر على انخفاض مشاركة النساء فى سوق العمل العام والرسمى وحسب،وإنما ارتبط خروجهن إلى القطاع غير الرسمى بحرمانهن من العديد من المنافع الاجتماعية اللاتى كن يتمتعن بها.

نتحدث حتى الآن عن نساء متعلمات.. لديهن القدرة على العمل والمقاومة.. لكن ما بال من لم تتعلم ليس لديها قدرة على العمل .. لا تعرف من الرجال إلا زوجها ولا تعرف من الحياة إلا أنها أمرت فيجب أن تطيع ، ومثل هذه المرأة كثيرات للغاية بين سطور البطلات والضحايا .

فالمجتمع لا يرحم المطلقات ، السيد عنتر من مساكن الإيواء يقول بقسوة: إية اللى يخلى الست تسيب جوزها ، إلا إذا كانت حاطه عينها على راجل تانى واعدها بمال أكثر ، المطلقة دى ست طماعة ، يا إما عاوزة فلوس أكتر ، إما بتدور على متعة جنسية فى الحرام ، علشان كده لازم العين تبقى عليها طول الوقت" ، الغريب أنك قد تفهم تحامل عنتر فهو رجل.. لكن أم تفيده من سكان منطقة المقابر كانت أكثر قسوة قالت : الواحدة لازم تتحمل ، علشان كده إحنا ستات ، إذا الواحدة منا تمردت على الحال ، يبقى لازم فيه حاجة لئيمة فى بالها ، أنا شخصياً عمرى ما أصاحب متطلقة ، أكيد هتبقى عينها من جوز الواحدة" .

هذا التعامل العنيف مع المطلقات ولو نظرياً.. جعل هند تتزوج أول عابر بعد أن طلقت دون أن تسأل عن أى شيء.. تقول من بيتها فى منطقة المقابر: ما كان سهل إنى أكون متطلقة ، كنت صغيرة ، وحلوة وكل الستات اللى فى الشارع بطلوا يتعاملوا معايا ، كان إحساس وحش قوى . وكنت حاسة إنى لوحدى وإنى مهملة ، وكان نفسى أموت نفسى ، وبعد كده اتجوزت أول واحد أتقدم لى ورضيت بنصيبى ، على رأى المثل ، ضل راجل ولا ضل حيطة الراجل برضه بيحميك".. نبذ المطلقات جعل النساء يصبرن على الضيم والقهر ولا يرحبن بالانفصال،ست البنات إحدى نساء مساكن الإيواء قالت:كنت كارهة حياتى معاه ، وكنت كتير باسرح وأحلم إنى أخد حريتى لكن كنت بخاف أطلبها ، لكن هو طلقنى علشان واحدة تانية ، يومها عيطت وحسيت إنى خايفة قوى ، أهلى فقرا وعايشين فى قرية فى الصعيد.. وأنا هنا لوحدى خالص .

ولأن الناس لا ترحم فإن المرأة ترجع صاغرة إلى بيت زوجها بعد أن يطلقها، حدث هذا مع هانم.. التى تسكن هى الأخرى فى مساكن الإيواء تقول: جوزى اتجوز على لأن كل خلفتى بنات ، غضبت ورحت أعيش مع أبويا ، طلقنى عشان يعاقبنى ، الناس كانت بتتكلم على ، خفت على سمعتى وسمعة بناتى، رجعت له وقبلت كل شروطه.. ده نصيبى ما أقدرش أغيره .

ولا تبتعد حكاية أمل كثيرا ، بل ربما تكون جارة هانم فى مساكن الإيواء ، تقول: جوزى كان بيضربنى وكان وحش أوى معايا ومع ولادى.. فهربت ، بس بعد يومين رجعت له تانى واستحملت كل الإهانة والضرب ، مالقتش حتة أروحها، ماحدش رضى يأجر لى أوضة صغيرة ، وماعرفتش اشتغل لأن ما حدش كان عايز الولاد معايا فى مكان الشغل و ما عنديش مكان أسيبهم فيه .

قهر المرأة المطلقة يجعلها تتمنى الموت لزوجها .. فأن تعيش أرملة أرحم من أن تعيش مطلقة ، أم أشرف أرملة بلغت من العمر ٥٠ عاماً ولديها خمسة أطفال ، تزوجت فى عمر ١٥ سنة وبعد ٢٠ سنة من الزواج أراد زوجها أن يتزوج بأخرى ، تقول: أنا ارتحت لما عرفت إنه عاوز يتجوز الست التانية دى ، ماكنتش عاوزه أعاشره خلاص ، وكنت عاوزه ينشغل بحد تانى ، كلنا عشنا مع بعض فى نفس البيت لما مات فرحت وحسيت إنى قوية ، وإن حياتى رجعت تانى بقت فى ايدى ، بقيت متحكمة فى حياتى وفى روحى ، ما حدش يقدر يجيب سيرتى لأنى ست كويسة ، وعاوزة الحق ، أنا ما يهمنيش ، أنا عارفة روحى وأنا مبسوطة من غير راجل .

ليس لقسوة المجتمع حدود.. فالمرأة التى تطلق تصادر منها الحياة.. تفعل الدولة ذلك.. والحالة هذه المرة لمريم ٤٥ سنة مطلقة من منطقة إعادة التوطين تقول: لما اتطلقت جوزى طردنى من البيت لأنى ما خلفتش ، وعلشان كده القانون ما بيدينيش الحق فى بيت الزوجية ، ما عرفتش أروح فين ، بعت كل دهبى واستلفت من إخواتى وقدمت على برنامج الإسكان المدعوم بتاع الحكومة ، لكن هم رفضوا يكتبوا السكن الجديد باسمى ، وطلبوا لأخويا أو أبويا أو جوزى ، أنا مش مالية عين الحكومة لأنى واحدة ست .

ومرة تصادر الحياة من قبل الجمعيات التى تدعى العمل لصالح النساء بعيداً عن الحكومة.. قابلت د.إيمان أحد أعضاء الجمعية الشرعية قال لها: لا.. إحنا بندى إعانات بس للأرامل مش للمطلقات ، كان مفروض يفضلوا فى بيوتهم ويحافظوا على عائلاتهم ، الست اللى ما تعرفش تحافظ على جوزها ست فاشلة.. والنتيجة فى جميع الحالات واحدة .. ضياع امرأة وانحرافها .

وإذا كان المجتمع لم يرحم جزءا منه وهو النساء .. فإن الدولة كانت أشد قسوة وأصلب قلبا وأغبى عقلا،أحد المسئولين بوزارة الشئون الاجتماعية قال لإيمان بيبرس عندما سألته .. لماذا لا يساعد امرأة طلبت إعانة والكلام بالنص : أنا سبق قبل كده إنى رفضت أساعد الست دى ، وأنا مصمم إنى ما أساعدهاش علشان كده من فضلك ما تتدخليش ، دى واحدة ست سايبة ، اتجوزت مرتين وفى كل مرة كانت بتتطلق ، وجاية دلوقتى تطلب مساعدة ، مين سمع عن كده الست دى جت قبل كده ، وأنا قلت لها إنها واحدة ست بتاعة مشاكل وأنها مش عايزة تعيش زى الستات المحترمين وعلشان كده الحكومة مش هتساعدها .

الكلام بلا ديكور.. يعبر بصراحة تصل إلى درجة الصفاقة أن الدولة لا تساعد إلا بشروط.. ومن بينها أن تكون الست مؤدبة ومهذبة وليست بتاعة مشاكل ولأن المرأة مطلقة.. فلا بد أنها ليست محترمة ولذلك فهى لا تستحق المساعدة والشارع أولى بها.

المفارقة أن الدولة ليست وحدها هى التى ترفض مساعدة النساء الفقيرات العائلات لأسرهن ، فعلتها مريم - ٣٩ سنة - رفضت أن تذهب لوزارة الشئون تطلب المساعدة لأنها تخشى الفضيحة تقول : اتجوزت لمدة ١٤ سنة ، وعشت معاه فى الفيوم ، خلفت أربع مرات ، وجم كلهم بنات ، علشان كده راح اتجوز واحدة تانية علشان يجيب الولد ، أنا رضيت بالوضع الجديد لأن ماليش حتة أروحها ، لكن أول ما جابت له الولد طلبت منه إنه يطلقنى ، راح طاردنى من البيت ومن ساعتها جيت أعيش مع أختى فى إسكندرية ، إحنا قلنا للجيران إن جوزى فى ليبيا، أنا عندى أربع بنات وعايشة مع أختى الأرملة ، إذا الناس عرفوا إن أنا متطلقة هنخسر سمعتنا وسط الناس ، أنا سمعت عن المساعدات اللى

بتقدمها الشئون بس ما قدمتش عليهاسمعت إنهم بيتدخلوا فى الحكايات وبييجوا يسألوا عن الواحد فى الحتة بتاعته وكمان ما بيحفظوش سر وممكن ينموا على الواحدة منا ، أنا مش عاوزه وجع دماغ وما أقدرش أجازف ، أنا مش عاوزه حد يعرف حقيقة حكايتى !

الدولة لا تساعد إذن إلا إذا فضحت.. ولدينا فى مصر نساء فقيرات لكنهن عفيفات.. يمتن جوعا ولا يهتك سر حاجتهن،لكن القانون المصرى لا يقدر فهو يعيش بصمم مزمن ، ففى قانون رقم٧٩لعام١٩٧٥ يحق للمطلقة الحصول على معاش زوجها إذا توافرت فيها عدة شروط: ألا تكون هى من طلبت الطلاق وأن يكون الطلاق قد حدث ضد رغبتها "فالقانون يعاقب المرأة التى تطلب الطلاق دون النظر لأسبابها التى دعتها لذلك" ، وأن تكون قد تزوجت المتوفى لمدة عشرين سنة على الأقل ، وألا تكون قد تزوجت مرة أخرى بعد طلاقها ، وألا يكون لديها مصدر آخر للدخل .

وإذا كان قلب القانون صلبا، فإن قلب موظفى الشئون الاجتماعية أصلب.. وهذا حوار دار بين سيدة وموظف قال لها: أنت ليه عاوزه التأمين؟ مش هتاخدى إلا ٦٠جنيه فى الشهر وإنتى دلوقتى بتكسبى أكتر من كده ، ردت الست : عندى تلات أولاد وجوزى مات من ٥ سنين ، الولاد محتاجين كل مليم علشان المدرسة والواحد بيكبر ما بيصغرش ، فرد الموظف بسخافة: وليه توديهم المدارس؟ الشغالات اللى زيك بينضفوا البيوت وبيكسبوا كتير من غير ما يوجعوا دماغهم بالمدارس والكلام ده كله ، وعلى ما يبدو أن موظفا آخر كان يسمع الحوار فاشترك معهما قائلا: ده غير اللى بيكسبوه على جنب عن طريق السرقة ، أنا كان عندى شغالة سرقت الحلق الدهب بتاع بنتى ، عمرهم ما بيقدروا أد إيه إحنا كويسين معاهم وفى الآخر دايما يخونوا.. تأثرت الست من الاتهامات الظالمة فردت عليهما: أنا مش حرامية وكل اللى أنا عاوزاه إنى أقدم على التأمين الاجتماعى ، نهرها الموظف الأول الذى لم يعجبه دفاعها عن نفسها قال: إياكى تعلى صوتك ، وأوعى تنسى إنتى مين ، وعلى كل حال ما عندناش استمارات تأمين النهارده.. ابقى عدى فى وقت تانى .

ليس هذا جزءاً من حوار تضمنه مسلسل تليفزيونى ممل ، ولكنه نموذج لكيفية تعامل الموظفين مع السيدات اللاتى يعتبرونهم أقل منهم فى المكانة والقيمة ومن ثم يدفعونهن بعيداً عن الخدمة ، إن موقف موظفى الحكومة من الفقراء عموماً والنساء على وجه الخصوص هو موقف السيد المتعالى ، ينظرون إلى النساء اللاتى بلا رجال على أنه لا حول لهن ولا قوة.. وهذا مسئول يعبر عن وجهة نظرة يقول: إحنا بنحاول اللى نقدر عليه علشان الأرامل الغلابة دول ، بيبقوا لا حول لهم ولا قوة بعد ما يموت الراجل اللى كان بيصرف عليهم .

صدرت الحكومة للفقراء الطرشة فوقعن فى يد جماعات لا ترحم.. تأخذ من الدين ستاراً لتحقيق أغراضها فى السيطرة على القاعدة الشعبية من الناس ، وفى كلام أم سلامة أرملة تسكن المقابر ما يكفى قالت:أنا قلت لبنتى تروح لأم هيثم فى الجامع ، الست فى وزارة الشئون الاجتماعية ست وحشة ، هى بتاخد مرتب علشان تخدمنا لكن هى رأيها إننا ناس لمامة ، أنا لا يمكن أروح للحكومة علشان أى خدمة ، الموظفين اللى هناك دول مناخيرهم فى السماء ومش عاوزين يساعدونا ، أصلهم لو إدونا فلوس مرتباتهم هم مش هتزيد ، وتلاحق منى من العشوائيات كلام أم سلامة تقول: أم هيثم بتاعة الجامع وأصحابها جم لبيتى وشربوا شاى معايا ومع ولادى ، جت علشان تتأكد أن أنا فقيرة بطريقة مؤدبة،البت الخايبة بتاعة الشئون ما تعبتش نفسها حتى أنها تدخل البيت وسألت عنى فى الحتة وسألت عنى الجيران عملت لى فضيحة ، أنا رفضت أخذ منها فلوس "الحكومة تفضح.. أما بتوع الجامع فيسترون" .

ما يدهشك أن ما تريد الحكومة أن تتجاهله فضحته أم خالد من مساكن الإيواء وهى تشير إلى أفراد الجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين قالت: السنة دول ماليين الدنيا هنا ، وعاوزين ياخدوا الشباب معاهم ، إذا قبلت منهم المساعدة هيبتدوا يحطو شروطهم ويحاولوا ياخدوا ابنى معاهم ، أنا مش عاوزة مشاكل مع الحكومة ، أم صابر زوجة أرزوقى وتسكن فى مساكن الإيواء كانت أكثر صراحة قالت: إذا أخدنا فلوسهم هيطلبوا منا نصلى ونلبس الحجاب ، واحنا مش عاوزين كده.. إحنا عاوزين حريتنا .

هل تريدون ما هو أكثر وأفضح.. يوجد المزيد ، والكلام هذه المرة لصباح عمرها ٣٣ سنة أرملة وتسكن المقابر تقول: السُنة دول بيبعتوا للستات المحجبة بس ، دول اللى لابسين أسود فى أسود ، أو رمادى فى رمادى ، ومش بيبصوا لنا خالص ، أنا لابسة المنديل بتاع الفلاحين على رأسى ومش عاوزة ألبس الحجاب ، وعلشان كده بيعاقبونى وما ياخدوش الطلب بتاعى ، يخلونى استنى وخلاص .

لا نجد عند نساء إيماء بيبرس ما يسر.. كلهن بائسات أحوجتهن الأيام فى مجتمع لا يرحم.. ودولة ترى بعين واحدة.. وجماعات لا تتورع عن استخدام الدين فى استغلال حاجات الفقراء.. لقد وضعت دراسة د. إيمان أعيننا على فئة من النساء فى مصر.. لا تطالب بالمساواة مع الرجال.. لا يشغلها كثيراً إن كانت المرأة ستصل إلى كرسى القضاء أم لا . لا تعرف شيئاً عن نوال السعداوى واهتمامها بحرية المرأة الجنسية.. لم تسمع عن المجلس القومى للمرأة الذى لا يكف عن الندوات والمؤتمرات والصيحات التى تتبدد فى الهواء.. لكنها فئة تبحث عن الحق فى الحياة.. يبحثن عن لقمة العيش وتربية الأولاد.. لكن لا أحد يساعدهن على ذلك .

وصلت دراسة "بطلات وضحايا" فى محطتها الأخيرة إلى أن كل برامج المساعدة الاجتماعية التى تقدمها الدولة أو حتى أية جمعيات أخرى ، لم تكن متعاطفة مع النساء ، وكانت قواعدها ولوائحها تقمع وتهمش النساء المحدودات الدخل والعائلات لأسرهن ، كانت إيمان بيبرس تعرض ذلك قبل أن تبدأ فى دراستها. كما يعرفه المسئولون فى الدولة.. وكما يعرف أفراد الجماعات الإسلامية .. وكما تدرك كافة الجمعيات الأهلية التى تعمل من أجل المساعدة فى توفير حياة ولو شبه كريمة.. ولكنها تكتفى أحيانا بعقد المؤتمرات والندوات واللقاءات وطبع الكتيبات وكأن مشاكل النساء الفقيرات ستحل بهذه الوسائل.. فلا الدولة تفعل شيئاً حقيقيا.. ولا الجمعيات الأهلية تفعل شيئا ملموساً.. وهذا طبيعى ومنطقى فإذا حلت الدولة جميع المشاكل فلا داعى لوجودها.. وإذا أصبح الفقراء من الرجال والنساء أغنياء فلا حاجة للجمعيات الأهلية التى ترفع شعار المساعدة منهاجاً لها.. ولما كانت الدولة لا تريد أن تزول.. وكانت الجمعيات الأهلية لا تريد أن تغلق أبوابها.. فإن المشاكل ستظل قائمة.. ولا عزاء لفقيرات مساكن الإيواء والمقابر والعشوائيات !

بيكار

أبانا الذى فى الزمالك

6

بيكار.. أبانا الذى فى الزمالك

قبل أن يموت حسين بيكار بعدة أيام داعبه أحد أصدقائه المقربين قائلا عايزين نحتفل بعيد ميلادك التسعين يا عم بيكار ، فرد عليه هامساً الحمد لله.. كفاية قوى كده ، كان تلاميذ بيكار يتعشمون في وجه القدر ان يترك لهم أستاذهم ، الذي كان سيتم عامه التسعين في ٢ يناير ٢٠٠٣ لكن الأستاذ كان على ما يبدو قد شبع من الحياة التي أرهقها وأرهقته .

لم ينصت القدر لخفقات قلب المريدين . فخطف الولي الذي كان فناناً وحفاراً ورساماً وموسيقياً وناقداً وشاعراً ، ولأنه لم يكن فناناً تقليدياً فقد اختار أصدقاؤه أن يكون تأبينه متمرداً ، فقد أقيم العزاء في نقابة التشكيليين ، وجاء القارئ الطبيب أحمد نعينع لتنساب منه آيات القرآن نوراً ورحمة ، أراد أن يقرأ من خلال مكبر صوت لكن القائمين على العزاء رفضوا فقد أرادوه عزاء هادئاً.. وطبيعيا لم يحضر مندوب من الرئاسة لتقديم واجب العزاء ، رغم أن بيكار حصل على جائزة الدولة التقديرية عام١٩٨٠ وحصل على جائزة مبارك للتفوق عام ٢٠٠٠ ، لم ينشغل أصدقاء وتلاميذ بيكار بعدم حضور مندوب رسمي للعزاء ، فقد كان الفقيد عزيزا والفقد مؤلماً .

بيكار واحد من أبناء الإسكندرية الذين أعطتهم عبقريتها وشموخها بعد تخرجه في قسم التصوير في مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٢٨ تدرج في وظائف التدريس بالمدارس الثانوية ، وفى عام ١٩٤٢ انتقل بيكار إلى كلية الفنون الجميلة التى أصبح رئيسا لقسم التصوير بها .

حمل عام ١٩٤٤ مفاجأة لبيكار، فقد أرادت وزارة المعارف طبع كتاب" الأيام" لطه حسين عرضت الوزارة على بيكار ان يقدم الرسوم التوضيحية فكانت سعادته لا توصف لأنه ولأول مرة ستخرج أعماله لجمهور يتجاوز دوائر الفنانين

والأصدقاء إلى جمهور أوسع ، بعد أيام طه حسين طلب على أمين من رشاد منسي أن يرشح له رساماً يثق فيه ليعمل معه في أخبار اليوم .

ظل بيكار يجمع بين عمله الحكومي في كلية الفنون وعمله الصحفي في أخبار اليوم طوال خمسة عشر عاماً كان بيكار يشعر أنه يجمع بين زوجتين وفى عام ١٩٥٩ قالها له على أمين صريحة يا بيكار ليس من مبادئنا تعدد الزوجات وعليك أن تطلق زوجتك الحكومية فوراً وتتفرغ للصحافة ، إن مكانك هنا في أخبار اليوم .

طلب بيكار مهلة إسبوعا ليفكر.. فالقرار صعب فكيف يهجر زوجته الحكومية التى قضى معها ثلاثين عاماً دون سبب ، كان على أمين يعرف مقدار بيكار جيداً لم ينتظر إسبوعاً ثلاثة أيام فقط طلب "على" بيكار وقدم له ورقة عليها إمضاؤه وقال له اكتب شروطك وفى اليوم التالي كانت استقالة رئيس قسم التصوير أمام عميد كلية الفنون الجميلة .

وإذا كان على أمين هو الذي حول مصير بيكار من العمل الأكاديمي إلى العمل الصحفي فإن محمد حسنين هيكل هو الذي اكتشفه منذ البداية فعندما كان هيكل رئيسا لتحرير أخر ساعة قال له: يا بيكار نفسي في فنان يكتب.. أنا عايزك تكتب يا بيكار عايز تلقائية الفنان.. وتحت إلحاح هيكل كتب بيكار قصة ورسمها كان اسمها "المصباح الأحمر" .

رحلة طويلة قضاها بيكار في العمل الصحفي حصل خلالها على عدد كبير من الجوائز أقام معارض لا تعد ولا تحصى شارك في مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه بكليتي الفنون الجميلة والتربية الفنية بالقاهرة أصدر كتبا ووضع آلاف المقالات حضر مئات المعارض احتضن عشرات الفنانين الشباب كل هذا يعرف عنه الذين يتابعون أعماله لكن بيكار الإنسان.. الهادئ الصاخب.. الشامخ المتواضع.. المبدع الخلاق ظل مجهولا .

وإذا أردت الخلاصة عن بيكار فهي في نصف كلمة كتبها الكاتب الساخر أحمد رجب عنه فبيكار عنده فنان مهذب جداً إذا ألقى التحية على أحد قال له من

فضلك صباح الخير ، وإذا رد التحية على أحد قال: من فضلكم السلام عليكم ورحمة الله . ويقال وهى رواية غير مؤكدة أنه تترفز فى المرة الأولى فى حياته من ٢١ سنة ولكن صوته لم يرتفع ولم يفقد ابتسامته الهادئة ولكنه قال للشخص الذي استفزه من فضلك عيب كده ، إن عيب كده - كما كتب أحمد رجب - هي أكبر شتمه في قاموس بيكار ، وحينما سمعت بعض الصحفيات هذه العبارة منه "عيب كده" غطين وجوههن وقلن.. إياه !

لا يستطيع أحد ممن يريدون أن يتحدثوا عن بيكار أن يخرجوا عما كتبه أحمد رجب فقد أعطانا بيكار الإنسان في كلمات قليلة لكن الفنان والكاتب الكبير إبراهيم عبد الملاك قفز فوق جميع محبي بيكار عندما وضعه في مكانة الأب الكبير.. فهو لا يكتب ولا يتحدث عنه إلا بقوله "بيكار.. أبانا الذي في الزمالك" فقد كان بيكار يعيش في الزمالك منذ انتقل إليها من مصر الجديدة عام ٦٥ .

عبد الملاك قال لى إن رفعه بيكار إلى هذه الدرجة جعل الكثيرين يغضبون منه لكنه لم يلتفت إليهم فهو لم يقصد المعنى الدينى من الكلمة.. لكنه كان يعنى المعنى الإنساني الراقي الذي يصبح معه الإنسان ملاكاً يمشى على الأرض وقد كان بيكار كذلك كان متواضعاً لدرجة تحرج الآخرين يوجه ملاحظاته بأستاذية لاحظها الحاج إبراهيم عبد الرحمن صاحب قاعة بيكاسو التى كان يعرض بيكار فيها معظم أعماله منذ عام ٩٦ فعندما كان يقيم فنان صغير معرض ويدعو بيكار كان يحضر إلى القاعة قبل الافتتاح بفترة كان يبدى إعجابه باللوحات في البداية ويقول للفنان: نفسى أتعلم ده منك.. آنت عملتها ازاى.. وعندما يأتى للنقد يقول له لوحتك يمكن أن تكون أفضل لو عملت الجزئية الفلانية بيكار نفسه حكى أنه زار مرسم إحدى الفنانات الواعدات وكان تعليقه الأول على لوحاتها أنها لوضعت داخل إطارات أفضل لبدت أجمل مما هي عليه وفعلا عملت الفنانة بالنصيحة وكسبت لوحاتها الشيء الكثير .

لم يكن بيكار يهتم بالفلوس فلم يبالغ في أسعار لوحاته فأغلى لوحة باعها وكان مقاسها ٦٠×٨٠ سم كانت بثمانية آلاف جنيه وأقل لوحة كانت بـ ٢٠٠ جنيه وكانت عبارة عن بوستر ضم أهم أعماله وعليها توقيعه وقد كان يبيع لوحاته الصحفية بـ ٣٠٠ جنيه فقط وما يؤكد أن الفلوس لم تكن تعني شيئا لديه أنه عندما حصل على جائزة مبارك للتفوق وكان قيمتها مائة ألف جنيه قال لأصدقائه أنا لم أتعود على مسك الفلوس الكثيرة لا أعرف كيف أعدها وكان طبيعيا بعد ذلك أن يتبرع بقيمة الجائزة للأطفال مرضى السرطان .

اهتم بيكار بشئ آخر فبعد إعلان الجائزة سيطرت عليه فكرة كانت تؤرقه فقد كرمته الدولة هذا صحيح لكن ماذا يقول عنه الناس كان يقول: المبدع يخاف موت لو لم يعجب الناس فلو أم كلثوم نزلت مرة ووجدت الصالة خالية لانتحرت لان عدد المقاعد المشغولة هي النجاح فما يخيفني فعلا هو حب الناس وتقبلهم عملى ، فأنا عندي تقدير ورقة رسمية ولا أحد يكذبنا فيه لكن لو قلت الناس بيحبوا وراضيين بما قدمته .. فكيف نثبت هذا ؟

الخوف من رأى الناس وضع بيكار في حالة قلق مستمر فقد كان ينكر على الفنانين تفكيرهم في الاعتزال فذات يوم أعلن المثال مصطفى نجيب أنه سيحطم جميع تماثيله التى في حوزته وأنه لن يعود إلى صناعة الأصنام على حد تعبيره بعد ذلك وذات يوم آخر وقف المثال جمال السجينى على شاطئ النيل أمام داره بالزمالك وأعلن أنه سيلقى بجميع تماثيله في أعماق النهر بعد أن ضاق ذرعا بأشباحها الحجرية التى تزاحمه الهواء الذى يستنشقه وتحملق فيه بغباء وكأنما تطالبه بأن يطلق سراحها كي ترى النور وذات يوم ثالث أعلن الفنان السكندرى عصمت داوستشى أنه سوف يختفى عن الأنظار إلى الأبد.. لم يقتنع بيكار بكل ذلك.. اعتبر ما قالوه مجرد يأس وأصوات انتحارية تعلو فى الفضاء ثم تتبدد كما تتبدد أصوات انفجارات القنابل عقب خروجها من فوهات المدافع فالفنان لا يستطيع ان يعتزل فنه لأنه بذلك يعتزل الحياة .

ولأن الفن كان خلقا كاملا عند بيكار فقد كان يرى أن محمود مختار نبياً في النحت الحديث وأن أزميله اله يبعث الحياة فى الحجر والصخر هذا الإحساس الفنى جعل علاقته بالله أشبه بعلاقات الصوفيين بوجه ربهم كان يردد ان الله يغفر الذنوب جميعا والحسنات يذهبن السيئات وأن العدل هو قانون السماء ولكن هل تسرى عدالة السماء فوق هذا الكوكب المظلم الظالم ؟

هذا الإحساس الصوفى جعل عملية الإبداع عند بيكار أشبه بالصلاة فاللوحة بالنسبة له كانت لقاء قمة ، يدخل إليها برهبة وكأنه داخل إلى معبد لهذا كان عمله كله طقوساً ، كان يشعر بالمسئولية والقداسة والصفاء الروحانى كان يشعر وكأنه متوضئ للصلاة لا يخامره أى شعور بالعبث .

هذه الظلال الإيمانية جعلت بيكار ينسج علاقة خاصة بالله .. وقد استاء للغاية عندما نشرت الصحف – وكان فى مقدمتها الأهرام والأخبار - أن بيكار "بهائى" وأن بطاقته الشخصية تحمل فى خانة الديانة "البهائية" وليس الإسلام أخذ بيكار قرارا بالا يرسم لجريدة الأخبار وألا يكتب لها أشعاره فقد اعتبر ما فعلته الصحافة تدخلا سخيفا فى حياته وعقيدته فهو حر طالما لم يروج لأرائه وأفكاره .

لم يكن بيكار متعصبا.. ولكنه كان يعيش كمسلم فى خانة الدين المعاملة وهى الخانة التى تعنى بالسلوك وفيها كان بيكار صادقا مع نفسه فقد كان متسامحا لأقصى مدى .

لم يكن يحب أن يستغل الناس ، فى أول معرض أقامه فى قاعة بيكاسو كانت هناك لوحة بألفيا جنيه أراد الحاج إبراهيم ان يبيعها بألفين وخمسمائة لكن بيكار اعترض وقال له ، الخمسمائة التى ستزيد خذها منى أنا فرغبتى الأولى أن يتمتع الناس بفنى .

لم يكن بيكار يتحدث عن كونه بهائيا وعندما كان يجرجره أحد إلى الكلام عن هجوم الصحف عليه كان يؤكد ان البهائية التى يعتنقها لاضرر منها مطلقا وأنها فى النهاية مثل الصوفية فهو كان صوفيا ولكن على طريقته كان يتحدث فى الدين بوعى شديد وفهم عميق .. وكان يكره التطرف .. لأنه كان يراه ضد الحياة ذاتها.

صفاء بيكار الروحى جعله لا يشكو مطلقا لم يكن يتحدث عن أوجاعه حتى لو تكاثرت عليه ، كان مثل البلسم لأصدقائه الذين ظلوا حتى آخر يوم فى حياته يحرصون على سماع صوته ، كان بينه وبين د . ثروت عكاشة تليفون أسبوعى يوم الجمعة يطمئن كل واحد منهما على الآخر ، أصوات أصدقائه نعم الباز وحسن سليمان وصلاح طاهر وأبو صالح الالفى وتوفيق صالح وعدلى رزق الله وتحية حليم التى كان يحب أن يناديها بتوحة .. لم تنقطع عنه أصواتهم حتى أسلم روحه لخالقها فانقطع عنهم دفئه وإحساسه وحبه للحياة .

الفقد فى بيوت أصدقاء بيكار موجع لكن الفقد فى بيته هو ولدى زوجته قاسمة يكاد يكون مميتاً كان بيكار يحفظ تاريخ زواجه ولا يحفظ تاريخ ميلاده ، تزوج فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٥ وظل طوال عمره يردد أن زواجه كان عقلانيا عمل حسبة ودراسة جدوى قال أنا مش عايز واحدة فى غاية الجمال ولا مليونيرة ولامعاها دكتوراه ولا من العائلة المالكة لكن عايز واحدة على مقاسى تمنحنى الراحة والأعمال بالنيات وبالطبع لم يكن ذلك بشكل حسابى وإنما عن اقتناع داخلى لأنه من غير ذلك لا أجد النصف الاسطورى الآخر المكمل لى .

وكما كان يتحدث عن زواجه بحب كان يتحدث عن زوجته بامتنان شديد فهى وكما قال بعد أن حصل على جائزة التفوق إن زوجتى لها نصف النجاح والتقدير والجائزة فان لم تكن الزوجة ذراع الفنان اليمنى واليسرى معا فشل فى حياته وأنا كل عملى فى البيت رسم أو كتابة تحت عينيها ورعايتها وتتوالد الأعمال من بين مشاعرنا معا لذلك فهى تملك النصف لأنها تحملتنى وفهمتنى وساندتنى .

أعلم أن الفقد الشديد لكنه حدث بعد سنوات من المرض لم يغلق فيها بيكار باب بيته ولا نوافذ قلبه ولذلك لم يحزن آلاف عشاقه على وداع الفنان والشاعر والموسيقى والناقد فيه فقط ولكنهم بكوا فيه الإنسان الذي لم يعط أحداً فرصة ليكرهه أو يحقد عليه .. لأنه فى حياته لم يكره أحدا .. ولم يحقد على أحد فقط أحب الحياة كما هى .. بحلوها ومرها .. لم يطمع فيها .. حتى عندما اقتربت أيامه لم يفزع صفت روحه وسمت.. وردد هامسا الحمد لله .. كده كفاية قوى .

7

فارس آخر الزمان

فارس آخر الزمان

لا أحد يعرف على وجه التحديد هل مازال أيمن الظواهرى حياً أم حصدته الطائرات الأمريكية التي ذهبت لتحارب ما أسمته الإرهاب فى أفغانستان فقضت على الأخضر واليابس ، هل مازال هارباً مع رفيقه أسامة بن لادن ، أم تخلى عنه دون أن يعرف إلى أين المصير ، حتى أميمة عزام نفت بمرارة أن يكون ابنها قد اتصل بها مؤخراً ، فهى لم تسمع صوته ولا تعرف شيئاً لا عن أخباره ولا عن مصير أسرته !

الخبر الوحيد المؤكد عن أيمن الظواهرى هو كتابه الأخير الذي أعطاه عنواناً دالاً وهو "فرسان تحت راية النبى" ، فهو ورغم كل ما فى عقله من قتل وتدمير وترويع للآمنين وانتقام من المسالمين ، كما أعترف بنفسه فى كتابه ، يعتبر نفسه فارساً من فرسان النبى الذين جاءوا ليكملوا رسالته ، جريدة الشرق الأوسط السعودية التى نشرت الكتابة على حلقات أراحت نفسها من دلالة العنوان ، واختارت أن تنشره تحت عنوان "الوصية الأخيرة" رغم أن ما جاء فى سطور الكتاب لم يكن وصيه بقدر ما كان تشفياً فى أعداء الظاهرى وفضحاً لجماعة الأخوان المسلمين وشماتة فى القتلى المصريين بداية من جمال عبد الناصر ، ومروراً بضحايا حادث الأقصر الشهير ونهاية بقتلى السفارة المصرية فى باكستان.

قصة حصول " الشرق الأوسط " على الكتاب مريبة ، فقد أكد الظواهرى فى مقدمة كتابه أنه يتوقع ألا ينشره ناشر ولا يوزعه موزع ، وكل ما حدث أنه تم تهريبه مع أصولى مصرى من أعوان الظواهرى المقربين رمزت له الجريدة بـ "ع . ص" خرج به من أحد كهوف أفغانستان بمنطقة قندهار إلى مدينة بيشاور الحدودية ، ثم إلى لندن حيث تلقفته الجريدة ، وقامت بنشره.

جماعة الجهاد التى يتولى أيمن الظواهرى قيادتها وضعت الكتاب على عدة مواقع على شبكة الإنترنت منها المرابطون والبيان ، وظل الكتاب موجوداً بالفعل لعدة أيام ، وفجأة رفع الكتاب ، ولا أحد يعرف حتى الآن من الذين رفعوه ، هل فعلها أعوان الظواهرى ، أم أن أمريكا أرادت ألا يقرأ ما كتبه الظواهرى عنها فرفعت الكتاب خاصة وهو يقول صراحة "أردت بهذا الكتاب أن أوضح بعضاً من معالم الملحمة الدائرة بين الأمريكان والمجاهدين فى أفغانستان ، وأن ينبه قراء الكتاب إلى الأعداء المتوارين والظاهرين ذنابهم وثعالبهم حتى لا ينته بهم قطاع الطرق" !

كتاب الظواهرى يقع فى ثلاثة أجزاء ويحمل عنواناً فرعياً هو " تأملات فى الحركة الجهادية ، ويتكون من ٢١ فصلاً تحدث فى بعضها عن زملائه القدامى ، خصوصاً يحيى هاشم وكيل النيابة الذى أقنع الظواهرى فى النصف الثانى من عقد الستينيات بالانضمام إلى خليته الجهادية التى كانوا يطلقون عليها "الخلية النائمة" ، وخصص فصلاً كاملاً لرفيقه السابق عصام القمرى ضابط المدرعات الذى قتل عقب اغتيال السادات بعدما تمكن من الفرار من سجن طره ، وكل من تابع نشأة وتطور الحركات الإسلامية يعرف الصلة الوثيقة التى كانت تربط الاثنين الظواهرى والقمرى .

اهتم الظواهرى كذلك بذكر تفاصيل العملية التى قادها عناصر الجهاد فى تفجير السفارة المصرية فى إسلام آباد ، وتعتبر هذه الرواية هى الاعتراف الأول والمباشر عن تفاصيل انتقام جماعة الجهاد من الحكومة المصرية بتفجير السفارة المصرية في باكستان التي كانت الأجمل والأروع تصميماً بين سفارات مصر فى الخارج.

يعترف الظواهرى ، فبعد حملة مطاردة المجاهدين العرب فى باكستان بدأت الحكومة المصرية تستأسد فى باكستان ، مستندة إلى الدعم الذى تقدمه لها الولايات المتحدة بنفوذها القوي لدى الحكومة الباكستانية ، وذلك لأن علاقة الحكومة المصرية كانت - منذ الخمسينيات - سيئة مع الحكومة الباكستانية بسبب موقف الحكومة المصرية المساند للهند فى قضية كشمير ، واعتبار الحكومة المصرية منذ عهد عبد الناصر كشمير مشكلة داخلية هندية.

بدأت الحكومة المصرية فى تعقب من تبقى من العرب والمصريين خاصة فى باكستان ، ووصل الأمر إلى ترحيل الطلاب المقيمين قانونياً من الجامعة الإسلامية فى إسلام آباد ، تم القبض على مصريين يحملان الجنسية الباكستانية لزواجهما من باكستانيين ، ووصل استسلام الحكومة الباكستانية لدرجة أنها سلمت الشخصين الحاصلين على الجنسية الباكستانية إلى الحكومة المصرية أثناء نظر القضاء فى تظلمهما دون اعتبار للدستور أو القانون الباكستانى.

كان لابد من رد لتوسيع الحكومة المصرية لحملتها المعادية للأصوليين فى مصر ونقلها المعركة إلى خارجها ، ولذا قرر الظواهرى أن يكون الرد منصباً على هدف يؤلم التحالف الخبيث بين أمريكا ومصر ، وبعد الدراسة تقرر تشكيل مجموعة للرد على النحو التالى: أولاً ضرب السفارة الأمريكية فى إسلام آباد ، فإن لم يتيسر فليضرب أحد الأهداف الأمريكية فى باكستان ، فإن لم يتيسر فلتضرب سفارة دولة غربية مشهورة بعدائها التاريخى للإسلام ، فإن لم يتيسر فلتضرب السفارة المصرية.

ويبدو أن الخيارات الثلاثة الأولى لم تكن متاحة ، فبعد الاستطلاع المكثف والمفصل تبين أن ضرب السفارة الأمريكية فوق إمكانات المجموعة المكلفة ، وتم استطلاع أحد الأهداف الأمريكية فى إسلام آباد فتبين أن به عدداً قليلاً جداً من الموظفين الأمريكان ، وأن الإصابات ستلحق معظمها بالباكستانيين ، كذلك تبين أن ضرب السفارة الغربية الأخرى فوق إمكانات المجموعة المكلفة ، فاستقر الأمر على ضرب السفارة المصرية فى إسلام آباد ، التي لم تكن فقط تدير حملة المطاردة للعرب فى باكستان ، بل كانت أيضاً تقوم بدور تجسسى خطير على المجاهدين العرب ، بالإضافة إلى ما اكتشفته أجهزة الأمن الباكستانية فى مبانى السفارة المدمرة من وثائق تكشف عن التعاون الهندى - المصرى فى مجال التجسس .

ويؤكد الظواهرى أنه قبيل التفجيرات أرسلت المجموعة المنفذة له تخبره عن إمكانها القيام بضرب السفارة الأمريكية والمصرية معاً إذا دبر لها مبلغ إضافياً ، لكنه كان قد قدم كل ما معه ، ولم يكن يستطع تدبير المزيد ، وهكذا ركزت

المجموعة على نسف السفارة المصرية وتركت رسالة بليغة المعنى واضحة البيان .

ما كتبه الظواهرى فى كتابه واستشهاده بكثير من المؤلفات التاريخية والوثائق البريطانية ، بالإضافة إلى كتاب محمد حسنين هيكل "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" ، وكذلك ما تنشره الصحافة المصرية والعربية عبر إطلاعه على الإنترنت ، كل ذلك يؤكد أن زعيم الجهاد المصرى وهو قابع فى كهوف أفغانستان لم يكن بعيداً عن مجريات الحياة اليومية فى الشرق الأوسط، فقد عرف أيمن محمد ربيع الظواهرى نجل عميد كلية الصيدلة السابق وخريج كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٧٤ هدفه منذ البداية ، كل خطواته تؤكد ذلك. فقد انضم الظواهرى إلى إحدى جماعات الجهاد عام ١٩٦٦ بمنطقة المعادى التي ضمت رائد سلاح المدرعات عصام القمرى ، الذى هرب من الخدمة العسكرية فى أبريل عام ١٩٨١ ، عقب اعتقال سلطات الأمن المصرية لعدد من الضباط العسكريين ، ظل الظواهرى يواصل طريقه حتى أصبح الطبيب الشخصى لأسامة بن لادن، وكان الاثنان قد التقيا فى مطلع الثمانينيات حين انطلق الجهاد الأفغانى ضد الغزو السوفيتى ، وكان عبد الله عزام البروفيسور الفلسطينى هو وسيلة تقاربهما ، وقد كان الظواهرى قد غادر مصر أواسط الثمانينيات بعد أن أمضى عقوبة السجن ثلاثة أعوام بسبب تورطه في مقتل السادات ، وتنقل الظواهرى بين السعودية والسودان والولايات المتحدة قبل أن يستقر فى أفغانستان مع بن لادن.

كتاب أيمن الظواهرى " فرسان تحت راية النبى" ليس كتابه الوحيد ، فقد ألف عدة قبل ذلك أشهرها " الحصاد المر " الذى يتعرض فيه لعلاقة الإخوان المسلمين بالسلطة خلال عهود الملك فاروق وعبد الناصر والسادات ، وفيه نقد مرير لرموز حركة الإخوان المسلمين و "الكتاب الأسود" و"كتاب ثالث بعنوان" شفاء صدور المؤمنين ، ويتعرض فيه للحكم الشرعي فى العمليات الإستشهادية ، ولم يفت الظواهرى فى كتابه أن يعلق على موقف الحركات الأصولية الأخرى غير الجهاد مثل الجماعة الإسلامية التى أحدثت تحولاً استراتيجياً حين أصدرت في مارس ١٩٩٩ قراراً تاريخياً بوقف شامل للعمليات العسكرية داخل مصر

وخارجها، استجابة لمبادرة سلمية كان القادة التاريخون للتنظيم أطلقوها فى يوليو ١٩٩٧.

الأمر الذى ليس مفاجأة على الإطلاق ، أن أيمن الظواهرى كان متشفياً لأقصى درجة وهو يكتب عن أعدائه ، وقد يكون هذا طبيعياً ، فقد انتهى من كتابه، وهو محاصراً مطلوباً حياً أو ميتاً ، يصف ما حدث فى اغتيال الرئيس السادات باستمتاع يقول: دارت أحداث تمرد أكتوبر ١٩٨١ فى مصر على محورين ، الأول: الهجوم على السادات وأركان حكمه خلال العرض العسكرى يوم ٦ أكتوبر ، فى محاولة لقتل عدد من رؤوس الحكم ، وما صاحب هذا الهجوم من محاولة للاستيلاء على الإذاعة ، والثاني: القيام بانتفاضة مسلحة فى مدينة أسيوط للاستيلاء عليها.

جاءت انتفاضة جماعة الجهاد بعد اغتيال الرئيس السادات بيومين ، أى بعد أن نجح الجيش فى السيطرة على البلد وتأمين النظام ، وقد نجحت هذه الانتفاضة - كما يسميها الظواهرى - فى الاستيلاء على بعض مراكز الشرطة ، ولكن الحكومة استدعت القوات الخاصة التي بدأت فى دك مواقع مقاومة الجهاد ، فاضطر الشباب إلى ترك هذه المراكز لما نفذت ذخائرهم.

لقد كان محكوماً على تمرد أسيوط المسلح بالفشل ، فقد كان الظواهرى يرى أن الانتفاضة كانت عاطفية ذات نصيب متواضع من التخطيط ، فقد جاءت متأخرة عن قتل السادات بيومين ، كما كانت تستند إلى خطة غير واقعية تهدف إلى السيطرة على مدينة أسيوط ثم التقدم شمالاً نحو القاهرة لفتحها ، متناسية أية أرقام عن وقوع العدو وعتاده ، لكن قائد تنظيم الجهاد يرى أن الأمر يجب ألا ينظر إليه بنظرة محدودة تتعلق بمسارح هذه الأحداث الضيقة ، بل يجب أن ينظر إلى تلك الانتفاضة بنظرة أوسع تتعدى مكانها وتمتد إلى آثارها التى تبعتها والحقائق التى أثبتتها ومنها شجاعة الأصوليين الذين هاجموا قوات تتفوق عليهم مضاعفة فى العدد والعتاد والخبرة العسكرية ، أظهرت الأحداث كذلك الطبيعة الهجومية للحركة الأصولية التى قررت أن تهاجم النظام فى محاولة للقضاء على رؤوسه فى وسط جموعه وحشوده، الانتفاضة أكدت للجهاد أيضاً أن تغيير النظام

البعيد عن الإسلام أصبح الفكرة المحورية التى تشغل بال الإسلاميين متخطين بذلك مناهج الإصلاح الجزئى وأساليب الترقيع ووسائل تلوين وجه النظام القبيح ببعض الإجراءات الإصلاحية ، وصل الإسلاميون كذلك إلى فكرة العمل من خلال القوانين الحكومية والخضوع للدستور العلمانى المفروض بالاستفتاءات والاعتراف بشرعية الحكومة أصبحت أفكاراً بالية ، ولذلك قرروا حمل السلاح ليدافعوا عن العقيدة المغيبة والشريعة الممنوعة وحرماتهم المستباحة ووطنهم المحتل بالاستعمار الدولي الجديد ، ومقدساتهم التى باعتها اتفاقيات الاستسلام مع إسرائيل!

لكن أهم ما ظهر للظواهرى بعد اغتيال السادات وانتفاضة أسيوط أن أجهزة الأمن المصرية لم تكن على علم بأن البلد يموج بالتيار الجهادى الذى استطاع اختراق القوات المسلحة ، وأخرج منها كميات من الأسلحة واستطاع الوصول إلى أرض العرض العسكرى رغم إجراءات الأمن الطويلة لتأمين ذلك العرض.

التشفي الذى أظهره أيمن الظواهرى فى الجميع كان له جذوره ، تحديداً منذ العام ١٩٦٦ عندما انضم أيمن إلى جماعة الجهاد التى بدأت عملها فى مصر - كما يقول الظواهرى - بعد منتصف الستينيات ، عندما قام عبد الناصر بحملته فى عام ١٩٦٥ ضد الإخوان المسلمين ، وأودع السجون سبعة عشر ألفاً ، وتم إعدام سيد قطب أبرز مفكرى الإخوان واثنين من رفاقه ، ظن عبد الناصر أنه قضى بذلك على عناصر الجهاد بغير رجعة ، ولكن يبدو أن حملته تلك كانت بداية الشرارة التى بعدها انطلقت نيران الجهاد.

فبعد أن أعدم عبد الناصر سيد قطب اكتسبت كلمات الأخير بعداً لم يكتسبه كثيراً من كلام غيره ، فقد أصبحت كلماته فى نظر الشباب المسلم معالم الطريق ، واتضح لهم مدى فزع الحكم الناصرى وحلفائه الشيوعيين من دعوة سيد قطب ، فقد أصبح قطب عند الظواهرى نموذجاً للصدق فى القول وقدوة للثبات على الحق، فقد نطق بالحق فى وجه الطاغية ودفع حياته ثمناً لذلك ، وزاد من قيمة كلماته موقفه العظيم عندما رفض التقدم بطلب للعفو من جمال عبد الناصر ، وقال كلمته المشهورة "إن إصبع السبابة التى تشهد لله بالتوحيد فى كل صلاة تأبى أن تكتب استرحاماً لظالم" .

8

اعترافات

صافي ناز كاظم

اعترافات صافى ناز كاظم

لم تختلف صورة "صافى ناز كاظم" التى رسمتها فى أوراقى الخاصة ، عن صورتها التى رأيتها عليها وأنا جالس إليها فى بيتها لمدة ثلاث ساعات ، أجرى معها حواراً طويلاً عن سنوات عمرها الخمسة والستين ، كاتبة صاخبة عنيدة.. تطلق آراءها - الكلمة الأدق - سهامها فى كل اتجاه.. تقول رأيها وأجرها على الله.. تدافع عن أفكارها بحماس شديد ، وكأنها مازالت شابة تدخل معترك الحياة وتقرر أن تنتصر ، عندما تكرهك تقول لك فى وجهك أنا أكرهك.. وعندما تغضب منك.. تنذرك.. ثم تصفر لك وإن لم تتراجع تضربك بظهر يدها على وجهك.. لكنها في كل الحالات ضاحكة.. بشوشة وبنت نكته.. قد تكون النكتة عليك.. لكنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك ! .

أكثر ما لفت انتباهى بعد أن أنهيت حديثى مع صافي ناز أنها لم تتغير.. وحتى أؤكد ذلك فلابد لى من شهادة واحد من أهم أساتذتها ، إنه أحمد بهاء الدين.. تعرف عليها عام ١٩٥٩ ، كانت وقتها كما يقول بهاء: الفتاة المتخرجة من قسم الصحافة ذات الضجيج العالى فى ردهات "أخبار اليوم" بطوابقها الأحد عشر ، وكانت عائدة من أول رحلة لها ، قامت على طريقة "Auto stop" متاعها القليل - كالكشافة - على ظهرها - تطوف أوروبا ببنطلون خشن وقروش قليلة ، تعمل لتأكل وتكتب إلى مجلة الجيل الجديد "حلقات رحلتها المثيرة " ، وفى عام ١٩٧٠ قدم بهاء لكتاب صافى "رومانتيكات" قال: صافى ناز هي المسافرة أبداً على الطبيعة أو على الورق ، وأقوى ما يشعر به من يعرف صافي ناز هو أن رحلتها لم تتم ، إنها لم تصل بعد إلى ذلك المرفأ الذى يهدأ داخله الموج ، ولا تصبح

العواصف فيه غير أصوات تأتى من بعيد ، فيمكن إلقاء المرساة والاطمئنان إلى السكون ، صافى دائماً على سفر فى الناس وفى الفن وفى الزمان والمكان.. ليت رحلتها لا تتم أبداً.. ليتها لا تفقد شبابها.

تمنى أحمد بهاء الدين.. وقد تحقق له ما تمنى.. فمازالت صافى ناز كاظم على سفر.. ومازالت رحلتها لم تتم.. ومازالت تحتفظ بشبابها.. وليس أدل على ذلك من كتاباتها المشاغبة ومعاركها الصحفية التى تدخلها مدافعة عن أفكارها.. لا يهمها أن تنجح أو تفشل .. تهتم فقط بأن تقول ما تعتقد أنه صواب.. أمور كثيرة اختلف فيها مع "صافى ناز".. وأمور أكثر تختلف فيها معى ، لكن هذا لم يمنع أن أذهب إليها فى مساكن أعضاء هيئة تدريس جامعة عين شمس.. ليمتد حوار أنقله كما جرى..

قبل أن أبدأ الكلام بدأته هى قالت لى: أنا مش محتجة على أنك زعلان إن فرج فوده قتُل ، لأنى أرى أنه ليس كل واحد كافر نقتله ، لأن الله كان يقدر ينسف الشيطان تماماً ، وهذا ما أقوله للمتحمسين ضد ما تكتبه أحيانا.. فالقرآن قال للنبي محمد: "ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر". وهناك فرصة باستمرار للإنسان الضال المعادى للإسلام.. إنه فى يوم من الأيام يؤمن ، وأنا كنت أرى أن فرج فوده - وخصوصاً إنه كان برج الأسد - كان يمكن أن يرجع عن غيه ، لأنه كان فى غى شديد للأسف ، وإنه يتوب ، يعنى اللى خلى الأخت سحر حمدى تتوب عن طريق الضلال تماماً ، وتبقى معتزة إن الطرحة اللى كانت على وسطها تبقى على رأسها ، لماذا لا يجعل أى أحد يرجع إلى الإسلام .

كان لابد أن أتدخل لأقول لها إن فرج فوده لم يكن كافراً قالت: أنا معك إن فرج فوده كان يجب ألا يقتل.. لأن مفيش حكم صدر.. لا من جماعة مسلمين.. ولا من جماعة رأى عام ولا من سلطة شرعية بحكم قتل فوده ، لكنى ضد اعتزازك بأنه كان أول من نادى بتجفيف الينابيع.. لأنه في إطار هذه الكلمة حدث ظلم كبير جداً.. فقد تم اعتقال آلاف من الشباب لم يفعلوا شيئاً وتم إلقائهم فى السجون مدة طويلة بلا ذنب..

حمّلت صافي ناز فرج فوده مسئولية ما حدث للشباب.. فسألتها؟ وهل معنى أن يطلق مفكر دعوة فتستخدمها السلطة استخداماً مغلوطاً أن يقتل هذا المفكر؟ قالت: إلى حد ما يتحمل المفكر جزءاً من المسئولية.. فعلى المفكر قبل أن يطلق فكرة أن يتأمل المكان الذي يطلقها فيه فالذين فكروا في القنبلة النووية ندموا لأنهم أوصلوا البشرية إلى هذا الدمار ، فهم أطلقوا الفكرة بحسن نية.. لكنهم كان يجب أن يعرفوا أن الشر أقوى من الخير ، ففرج فوده عندما كان يقول تجفيف الينابيع. كان يعلم أنه يتحدث فى دولة يد بوليسها طارشة ، فأيام عبد الناصر كل شىء كان كويس لمصلحة الثورة ، أيام أنور السادات تحفظ على عدد كبير من المثقفين عشان ما يدوشوش دماغه.

كان لابد أن أصل إلى نقطة اتفاق معها فقلت لها مرة ثانية عندما يطرح كاتب فكرة ويثبت بعد ذلك أنها كانت مدمرة.. يهدر دمه.. فقالت للمرة الثانية.. لم يكن من المفروض أن يقتل فرج فوده لأن من قتله ضيع منه فرصة أن يتوب ، هو كان مخطئ وكتاباته كانت غلط فى غلط ، ورغم أنه كان مشاغباً وكانت له علاقات واضحة جداً مع إسرائيل وكان له دخل مبالغ فيه ولما مات اكتشفنا أنه كان يحصل على هذا الدخل بذراعه.. لكن ذلك كله لم يكن مبرراً لقتله ، بل كان من المفروض أن يترك حتى يتوب.

هذه المناقشة كانت المدخل الطبيعي لعالم صافى ناز كاظم.. قلت لها.. أسمع كثيراً عن تحولك الفكرى.. كنت شيوعية متعصبة فتحولتى إلى كاتبة إسلامية.. ردت بسرعة وقبل أن أكمل كلامي قالت: هذا الموضوع بيجنني.. قلت لها: ولكن عبد الرحمن بدوى عندما رأى صورتك بالحجاب.. سأل متى ارتدت صافى ناز كاظم الحجاب وهى طول عمرها شيوعية متعصبة.. قالت دون حتى أن تبلع ريقها.. عبد الرحمن بدوى قال كده.. هو يعرفنى؟ وبعدين هو مش عاجبه حجابى قلت لها: مش حكاية إعجاب.. بدوى قال لم أفهم قالت: ما هو لم يفهم في الأول علشان يفهم فى الآخر ، وبعدين عبد الرحمن بدوى واخذ حجم أكبر من حقيقته ، أنا

عندى ٦٥ سنة النهاردة وتكويني الثقافى كله من سنة ١٩٤٢ وحتى اليوم ، عبد الرحمن بدوى لم يساهم فيه بقشر لبة ، فهو فيلسوف كبير مافيلسوش كبير.. "طز" علشان يعنى ترجم نيتشه وشوبنهاورر.. وإيه العبقرية فى أنه ترجم لكبار الفلاسفة "اللى هم لا يساوون عندى خردلة" شوبنهاورر ونيتشه "طز" فيهم دول ناس ما يعرفوش ربنا ، دى أم رأفت الأمية أفضل من نيتشه اللى قال إن الله قد مات" وأصل يعنى إيه الفلسفة دى ، إذا كان عبد الرحمن بدوى لم يعرف سر الإله وسر الكون وسر الروح.. رجل لم يقدر أن يلتقط هذه اللحظة يبقى "طز" فيه عبد الرحمن بدوى لم يساهم فى تشكيل جيلى الثقافى على الإطلاق ، ساهم فى تشكيل سامح كريم وأنيس منصور يبقى كتر خيره قوى .

ابتعدنا عن الموضوع الأساسى يا ست صافى ، أدركت ذلك فقالت.. أنا لم يحدث لى تحول.. حدث لي تصحيح.. أنا مواليد ١٩٣٧.. ولفحت جيلى لطشة تغريب قوية.. قالت لنا إن غطاء الشعر ليس واجباً.. وطلعنا على هذه القيم.. لكننا كنا نصلي ونصوم.. وكنا نتصور أننا مسلمون ولا أحد أفضل منا فى الدنيا.. أنا فى حياتى لم أرتكب شيئاً من المحرمات الواضحة.. وعشت فى أمريكا ست سنوات لم أشرب الخمر ولم أرتكب الموبقات الكبرى.. لم آكل خنزيرا باستمرار أحافظ على صلاتى وعمرى ٧ سنين ، لكن سنة ٧٢ عندما سافرت لأحج مع أمى.. كنت رايحة وليس فى ذهنى نهائى أنى يجب أن أرتدى الزي الإسلامي ، وكان لأول مرة فى عهد السادات يفتح الباب أمام كتب سيد قطب..

لأن مكتبة قطب أعدمت بالكامل من قبل عبد الناصر.. لم أكن أعرفه.. لكني عندما قرأته تغيرت أمور كثيرة.. وأنا فى الحج وعائدة من عرفات إلى مكة جلست إلى جوار شيخ جزائرى قلت له.. ألا ينفع يا مولانا بعدما أرجع مصر ألبس لبسى العادى ، فقال لى اللبس اللى أنت لابساه هو العادى - هذه الكلمة فوقتني - فأنا أصلى بالحجاب وأحج بالحجاب .. فرجعت أحاول أن أبتكر لبساً..

لأنه لم يكن هناك وقتها تقاليد اللبس .. فابتكرت أنا فى اللبس.. لأنى كان عندى ٣٣ سنة وكان عندى غرور أن ألبس حجاباً لكن يكون شكلى كويس فى نفس الوقت.

الكلام عن حجاب صافى الخاص جرنا إلى الحديث عن الحجاب فهى تعتبر أن الحجاب كلمة خطأ.. تقول.. حتى قاسم أمين كان يقصد بالسفور كشف الوجه فقط ، فقضية لبس المايوه لم تكن واردة ، وقضية كشف الشعر لم تكن مطروحة ، وبعدين النصوص القديمة التي تقول إن الحجاب لم يفرض إلا على نساء النبى صحيحة.. لكن لما ييجي جمال الغيطانى يلوع ويقول أنا قرأت فى الكتاب الفلانى، إن الشيخ فلان الفلانى قال إن الحجاب لنساء النبي فقط.. آه.. لكن ده لعب خبيث بالمصطلح.. فالمرأة المسلمة عليها أن تكشف وجهها وكفيها فقط.. لكن مفروض إنها تغطي وشها.. وأنا بأقول إن فيه زى شرعي.. رغم أن الست إقبال بركة بتزعل من الكلمة دى.. وكنت حضرت معاها ندوة وقالت مفيش حاجة اسمها زى إسلامي مفيش حاجة أسمها زى شرعي. لا فيه حاجة اسمها زى شرعيى اللى بيحكم بينى وبينها.

رغم استطرادها تعود صافى لتؤكد: أنا لم أتحول.. أنا فقط صححت مسارى.. أنا مع العدالة الاجتماعية منذ قرأت ما كتبه سيد قطب عنها.. وأنا عمرى فى حياتى ما كنت ماركسية والماركسيون يعملون ذلك.. ولما سجنت معهم.. كانوا يلفظوننى لفظهم للشيطان الرجيم بتاعهم ، والكلام عن أنيى شيوعية كان مؤامرة بين الأمن والشيوعيين ، الأمن قال علىّ شيوعية لأنه لم يكن يستطيع أن يقبض إلا على الشيوعيين والماركسيين - ويوسف السباعى قال على شيوعية وهو يعلم أنني لست شيوعية دا أنا سجنت مع الشيوعيين بعد أن عدت من الحج ، وكانوا يروننى أصلي دائماً.. وكنت أرتدى الغطاء الذى تطور إلى الأفضل.

تعترف صافى ناز أنها لا تكتب فى الفقه فهى غير متخصصة.. لكنها تكتب بروح الإسلام ، فخلفيتها دينية لأنها نشأت فى بيت متدين.. أبوها أوراقه - كما

تقول - أوراق رجل مؤمن بيصلي ويصوم.. وأمها كانت سيدة ملتزمة جداً بالدين.. تلبس طرحه الأرمل تغطى بها شعرها ، وهو غطاء هوانم بتاع زمان ، تؤكد صافى أنها نشأت على الإسلام.. وتم تدعيم ذلك فى السبعينيات بشكل صحيح.. تقول صافى: أنا حسمت الموضوع مع نفسى ، قلت أنا داخلى مسلمة.. ولذا وفقت بين مظهرى وجوهرى ، وعشت أنا فى أمريكا ست سنوات مسلمة.. وعمرى ما لبست المايوه.. ويمكن لبسته مرة أو اثنين وأنا فى مخيم أطفال فى عمل صيفى فى أمريكيا.. لبست المايوه علشان أعوم مع الأطفال.. لكن أنا عندى مشكلة فقد قابلت سعاد نصر فى المسرح منذ فترة وجدتها تقول لى: فين أيام المينى جيب والميكروجيب ، قلت لها أنا عمرى ما لبست الميكروجيب ، قالت لى: إنت جالك زهايمر ولا إيه قلت لها - لا أبداً مفيش زهايمر ، فأنا فى رحلتى الـ Auto stop لبست البنطلون فقط.. بل كنت أول صحفية أرتدى البنطلون.

وقبل أن تتأمل كيف ارتدت صافى البنطلون مع نشأتها الإسلامية تقول لك: كل هذا كان غلط وعن جهالة.. وبعدين كل شيء فى بلدنا كان محتل.. وكنت أقول دائماً إحنا اتتشلنا من إسلامنا لكنى حررت نفسى وعدت إلى إسلامى واعتبر رأسى الآن أرضاً محررة.. فحجابى لا يغطى عقلى ، وفى كل كتاباتى لا يوجد شيء يقيدنى ، فالقرآن يقول لى "يا أيها الإنسان" مالك أنت بقى إذا كان وسطى محزق ولا واسع وهو كلام يهين المرأة ، وليه الست تكون فوق الستين وتحط أحمر وأخضر وتضع أشكالاً غريبة.. وتكون هى مظبوطة وأنا مش مظبوطة.. حاجة غريبة ! لماذا يهاجموننى لأننى أرتدى هذا الزى".

صافى ناز لا تهاجم لأنها ترتدى الحجاب فقط.. ولكن لأن ابنتها نوارة ترتدى الحجاب أيضاً ، تقول: لم أفرض الحجاب على ابنتى - وعندما جاءت السن قلت لها إن ربنا فرض علينا هذا الزى فقبلت.. لكنها جاءت فترة المراهقة ١٩,١٨ سنة أحبت فى مرحلة الجامعة أن تلبس الجينز وتضع ماكياج - لم أكلمها.. ولبست.. وعندى لها صور كثيرة بهذا الشكل لكنى كنت أراها زى القمر بدون ماكياج

ورغم ذلك فهناك تهمة - زوجة طارق البشرى قالت لى عاملة فى بنتك كده ليه ، قلت لها طيب وأنت بتعملي فى بناتك حاجة - أنا ما عملتش فى بنتى حاجة.. ربنا اللى بيعمل فيها..

هذه الخلفية الإسلامية تقف وراءها كتابات سيد قطب ، تعتز به.. وتقول دائماً إن الذى يقرأ "فى ظلال القرآن" يستحق أن يحصل على دكتوراه فما بالك بمن كتبه ، لكن ذلك كله لم يشفع لها عند البعض ممن يعتبرون كتاباتها فى الإسلاميات سطحية.. قال لى ذلك حسين أحمد أمين مرة.. قال: معلومات صافى ناز فى الدين سطحية جداً.. وجاء الدور عليها لترد تقول صافى: شوف يا محمد حسين أحمد أمين مفيش عنده معلومات.. وبعدين ممكن يكون واحد عنده علم لكن لا يقوده للهداية. وممكن واحدة زى أم رأفت على الفطرة تكون عارفة أكتر من حسين أحمد أمين ، ثم إن حسين لا يعرف أكثر منى. وبعدين اللي بيبقى عارف وينسى ربنا.. ربنا بينساه.. أنا مرة كامل زهيرى قال لى: أنت يعنى مسلمة بتصلى الأربعة فروض.. قلت له: لا دول خمسة.. هو أكيد كان يعرف.. لكنه نسي ، ثم أني لا أكتب فى الإسلاميات ولا أحب كلمة كاتبة إسلامية.. لأننا كلنا مسلمين.. فالسائد لا يستثنى ! ثم أنى لا أحب أن ينادينى أحد بيا حاجة لأن الإنسان لا ينادى بالعبادات فهو حرام ! ..

على هذه الخلفية تذكر صافى ناز قصة انسحابها أمام توجان فيصل فى قناة الجزيرة.. وهو الانسحاب الذى لم يكن فى صف صافى لكنه أساء إليها تقول: عندما سألتنى توجان سؤالاً وأرادت أن أفتى ، قلت لها لا أستطيع أن أفتى وحتى ولو أعرف .. لا يصح فلابد أن تكون لي مرجعية.. قلت لصافى.. وهل ما حدث يستدعى أن تنسحبى وتبدين مهزومة ، قالت: نعم حدث - لأنها قلت أدبها - قالت خلينا نكون مهذبين - شتمتنى وأن لا أحب قلة الأدب أبداً.. وأى واحد قليل الأدب أنا لا أقعد معاه - ثم إنى غرر بى فى قناة الجزيرة فأنا لم أكن أراها.. لأنه ليس لدي دش.. ولما كلموني قلت لهم أنا لا أحب المواجهات والجدال.. فكل واحد

حر.. واحدة عايزة تمشى عريانة ملط.. تمشى ، واحدة عايزة تنسخ آيات من القرآن انسخيها أنا مالى.. قلت لهم أنا لا أقعد مع نوال السعداوى أو فريدة النقاش.. قالوا لى دى واحدة اسمها توجان فيصل.. وذهبت لأجدها متشنجة.. عاملتها بلطف.. كنت واحدة مهدئات لأنى باخاف من الطيران.. وأنا دائماً محضرة أيدى اللى يفتح بقه أديه عليه على طول.. لكن رد فعلى كان بطيئاً. كان مفروض إنى من الأول أمشى شفت حاجات مش تمام.. لكني انسحبت في النهاية.. لأنها تحدثت باستهتار عن العلماء وسيد قطب.. وقالت لا.. أننى أفتى.. فقلت لها حاضر يا ست المفتية.. فقالت لى لابد أن نكون مهذبين فانسحبت لأن المذيع لم يدافع عنى.. ولأنى وجدت أن القاعدة لا تساوى شيئاً.

تعود صافى ناز إلى حسين أمين فهى لا تنسى تقول: قد يتصور حسين أنه يعرف أكثر منى.. لكن هذه نقطة مشكوك فيها لأننا لم ندخل امتحان سوا ، وبعدين أنا لا أكتب فقه ولا نظريات أنا أدافع عن عقيدة ، فلا يجب أن نعترض على الفتاوى إلا بمرجعية ، لأن المسألة وصلت إلى أن فريدة الشوباشي فى ندوة ، وهى التى كانت مسيحية وأسلمت والله أعلم بمدى معلوماتها فى المسيحية ومدى معلوماتها فى الإسلام.. كان معنا عالم أزهر رئيس قسم الفتاوى بيقول حاجة.. قالت له أنت غلطان.. إيه قوة الجهل والجرأة دى.. يعني دكتور مستجير لو بيقول حاجة في الهندسة الوراثية أقول له أنت غلط لمجرد أنى قرأت مجلة الدكتور.. إيه الكلام الفارغ ده !.

ولأن اتهام صافى ناز بالسطحية فى كتاباتها الإسلامية يحتاج إلى تفصيل.. فهى ترجع الحديث عنها بهذه الصورة إلى الصورة الذهنية الثابتة ، مثل ما حدث مع طه حسين فهو رغم كتاباته للإسلاميات العظيمة.. لكن ينظر إليه على إنه مؤلف الشعر الجاهلى فقط.. تقول صافى: أنا قرأت لطه حسين وهو أحسن من أحمد أمين ألف مرة.. وأقوى منه ، والحقيقة أن أحمد أمين واخد حجم أكبر مما يستحق.. وولاده بقى عندهم جنونة اسمها أحمد أمين .. بتخلي الناس اللى بتحبه

تقول لهم لا مش للدرجة ، فهو لا يوضع نظير فريد أبو حديد أو طه حسين أو حتى العقاد ، فهو أقل منهم بكثير ، لكن طول لسان حسين أمين على فريد أبو حديد (وهو خال صافي بالمناسبة) خلانى أقول له إن الشيخ أحمد أمين ليس إلى هذه الدرجة ، فهو الشيخ أحمد أمين وليس الدكتور كما يقولون فقد كان قاضياً شرعياً.. وقلت له إن الذي يهاجم عزيز قوم لدى.. سوف أهاجم أعز قوم عنده.

صافى مازالت تمسك برقبة حسين.. تقول : الحقيقة إن حسين أحمد أمين بيجيب البلا لأبيه ، فقد كتب مقالة مرة يقول إن أبويا كان فرحان بكفرى.. وكان يقول لى كل ما تبعد عن الدين يبقى أحسن.. فهو ظلم أباه.. وأنا لا أظلم أحمد أمين.. لكني أقول أننا نضعه مجاملة فى مصاف الكبار.. لكنه ليس فى مصافهم.. لأنى قرأته جيداً وقرأتهم جيداً ، وفى النهاية أنا لم أدع أننى فقيهة.. لكنى مسلمة توجهنى العقيدة الإسلامية حتى عندما أكتب عن اللمبى فأنا أكتب بالعقيدة الإسلامية !.

أخذت صافي ناز كاظم من دفاعها الحماسى عن نفسها إلى منطقة أخرى.. فهى ترى أن حياتها الطويلة خمسة وستون عاماً عبارة عن تكرار ممل تقول: أنا ولدت عام ١٩٣٧ وسميت على اسم زوجة الملك فاروق صافيناز ذو الفقار.. وبعدين كل جيلى اسمهم يا فاروق يا صافيناز ، يعنى فاروق عبد القادر سمى على اسم الملك فاروق ، وعاصرت عصر فاروق ووعيت على مرحلة التأجج الوطنى ، وكان أخويا من الذين أصيبوا في المظاهرات ١٩٤٦ ، كان طالب فى كلية الزراعة فى سنة أولى ، وكنا نذهب إليه نزوره وأذكر أن أمى كانت تبكى ونحن ذاهبون إليه وتقول: يا قلة الأب ! وكل ما أتذكر ذلك تدمع عيناى.. وعندما خرج أخى حوّل أوراقه إلى كلية المعلمين العليا.. وهذا هو أخى د. محمد إبراهيم كاظم الذى أسس جامعة قطر ، وأول رئيس لها.. وهذا اسمه بمفرده.. مركب يعنى ، وقد توفى عام ٩٢ ، والمفروض أنه بذل للعلم فى مصر جهداً كبيراً.. ولكنه لا يذكر.. رغم أن الآخرين يكرمون.. فالبلد تتذكر الراقصة أمينة محمد

باعتبارها من الرائدات في مجال الفن.. وتنسى محمد إبراهيم كاظم ، طب بهيجة حافظ وبلعناها.. عزيزة أمير وقلنا ماشي .. لكن إيه أمينة محمد .. إيه الخبص ده.

هذه الفترة تحبها صافى ناز كاظم فى حياتها.. رغم أن والدها قد مات والظروف الاقتصادية كانت صعبة فى كل البلد.. وكان الفقر سمة عامة ، فكان محترماً.. والأسرة المصرية لم تكن ترمي شيئاً.. لكنها كانت تستخدم كل شيء.. تؤكد صافى بخفة روحها: أنا كنت طفلة سعيدة ، رغم أن ابنتى تقول لى أن طفولتها تعيسة.. أنا عملت لبنتى الحاجات اللى كنت متصورة إنها بتسعدها.. لكن مع ذلك لم يحدث.. وأجدها تقول أنا لا أذكر أن لى طفولة سعيدة يا نهار أسود ، لكنى أحب طفولتى التي كنت أتونس فيها بالراديو .

عندما قامت الثورة عاشت صافى ناز مهرجان الفرحة ، لأنه كان لدى الشعب تخيلاً ذاتياً أنه يستحق الفرحة.. فالشعارات كلها كانت هايلة.. وعندما كان يسأل الشعب متى تتحقق كانوا يقولون له الصبر.. تقول صافى: قلنا خليك مع الكداب لحد باب الدار ووصلنا لباب الدار فلم نجد شيئاً.

لا تطول فترات الراحة مع صافي ناز .. فقد اكتفت بهذا القدر من الحديث عن حياتها الشخصية لأنها لا تصبر على الأحاديث العادية.. هذه المرة أخذتنى صافى إلى بحر السياسة أخذاً قالت: أنا لم أسجن فى عهد عبد الناصر.. بل إنى تألقت فى عصر عبد الناصر مهنياً.. لم أضام في أيامه.. لكنى عندما أتحدث عن عبد الناصر أتحدث عن الآخرين ، فالرجل "مهايتر فهمى" اللى عمال يهاتر كتب يقول القرعة تتباهى بشعر بنت أختها.. وأنا أقول إن العظماء أمثال عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم ولويس عوض كيف يقطعوا حجر ، أنا لم أقطع حجراً.. لكني حزينة على هؤلاء.. أن لا أتباهى بهم وهل التباهى يكون بالظلم ، أنا سجنت أيام السادات ، وأقول إن أحسن سجن هو سجن أنور السادات.. طب تخيل إن الحكام عندنا لا تستطيع أن تقارن بينهم إلا من حيث سجونهم.. فالسجن سيئ فى معظم أحواله ، لكن الكلام اللى سمعناه عن سجون عبد الناصر جعلنا نقول إن

سجن السادات رحمة ، قلت لها رغم أنك أضرتى فى عهد السادات لكن صوتك فى الهجوم على عبد الناصر أعلى - قالت: لأنى لا أكتب من منطلق ذاتى ولو كتبت من منطلق ذاتى.. لكتبت أكثر عن السادات.. لكنى أفضل المصلحة العامة.. وهى عندى الأهم .

رحلة صافى ناز كاظم لا تتوقف عند السياسيين والرؤساء.. ولكن لها شأن مع علماء الدين.. آراء كثيرة قالتها لى.. لكن استوقفنى رأيها فى الشيخ الشعراوى: أسمعه فى لحظات وأبقى مبسوطة قوى.. لكن مش على طول ، ساعات نكتته تتجاوز ، فهو بيتدلع على ربنا شوية هو متصوف وأنا لا أحب المتصوفة ، ولا أحب دلعهم على ربنا ، ورفع الكلفة بينهم وبين الذات العليا.

على خط الشخصيات التى تجدها على شريط حياة صافى ناز.. تجد أسماء صحفيين كثيرين فقد قضت في مهنة الكتابة حتى الآن نصف قرن .. سألتها عمن علمها أصول المهنة قالت: اللى علمنى المهنة مصطفى أمين وموسى صبرى ، موسى كان يتيح الفرصة.. يفرح عندما يجد موهبة.. يحتضنها ، أما أنيس منصور فكنت أحبه قبل أن يصبح رئيس تحرير كان لطيفاً.. لكن بعد أن تولى رئاسة تحرير الجيل قال لا أريد أن يكتب أحد.. أنا عايز أمسك المجلة من الغلاف للغلاف ألاقى أنيس منصور ، وأنيس فنان فى الكتابة لكنه خان نفسه وأساء إليها ، وهو الذي طفشنى وجعلنى أسافر إلي أمريكا.

تدين صافي لموسى صبرى لأنه علمها.. لكنه ترى أن أحمد رجب كان وحش قوى .. تقول: أحمد رجب كان مدير التحرير.. وكان غلس جداً معى.. وأنا بأندهش قوى لما أجد الناس ترى أن أحمد رجب فنان.. يمكن يكون أصبح فناناً، لكن فى بدايته لم نكن نرى فيه موهبة متألقة ، وهو كان شاباً جميلاً فتى الشاشة يعني.. لكن كان غلس ، ولم أكن أتفق مع على أمين لأنه كان جارحاً.. إنما كنت بأحب التعامل مع مصطفى أمين .

ثم نأتي عند محطة مهمة في حياة صافي ناز.. وهي محطة أحمد بهاء الدين تقول عنه: بهاء لم يكن أستاذي بمعنى علمني.. لكن تقدر تقول إنه كان كفيلي في مرحلة كان كل واحد شاطر لازم له واحد يحميه ، بهاء كان بيحب شغلي وفاهمه.

أبطال صافي ناز لا يتوقفون عند الكتاب الكبار.. لكني فجأة وجدتها تضعني وجهاً لوجه أمام سعد الدين إبراهيم تقول: عندما كنت في أمريكا.. وصلت لأعمل سكرتيرة في جمعية الطلبة العرب وكان الرئيس المنتخب هو سعد الدين إبراهيم.. وكان بيخلط بين الخدامة والسكرتيرة وطول النهار يصرخ فيّ.. وكان حتة تلميذ زي زيه.. وفي يوم قلت له: جرى إيه يا واد أنت بتتأمر عليّ ليه.. أنت طالب دراسات عليا وأنا طالبة دراسات عليا ودي جمعية الطلبة العرب ، وشتمته جامد.. قلت له حتة صعلوك لا تساوي ٣ مليم ، وهو كمان كان شكله غلس.. ووشه غلس أنا بكرهه قوي.. وأنا لم شفته مرة قبل ما يتقبض عليه قلت له أنا بكرهك بلا تردد وبسهولة ، ويا سبحان الله كل ما عوز أكره حسين أحمد أمين ما أعرفش ، أبص له ألقى وشه طفل ما أعرفش أكرهه ، نفسي أكره حسين وأكرهك يا محمد يا باز ، لكني مش عارفه !

ومن سعد الدين إلى رجاء النقاش.. والكلام مازال لصافي تقول: رجاء كان رئيس تحرير "الكواكب" و "الهلال" وبيكتب في المصور ، ومدعم من قبل القيادة السياسية تدعيم هائل وفايق في جيبه ، وشعرواي جمعه في جيبه التاني، وإلى جوار هؤلاء تأتي صديقات صافيناز تقول: سناء البيسي معايا من سنة ١٩٤٥ ابتدائي ، ثانوي ، جامعة حي العباسية أخبار اليوم ، والحقيقة أنا اللي متمسكة بسناء أكثر ما هي متمسكة بي. وسناء فنانة من زمان ، دمها خفيف جداً على هدوء.. بتكتب حلو قوي وذوقه ، وأصل صداقتي بسناء الظرف والفن.. وهي مولودة سنة ١٩٣٧ وفي أغسطس ، حتزعل مني لأني قلت عمرها.. كانت تقولي لي أخرسي خالص.. قولي عمرك بعيد عني .

وبالقرب من سناء تأتي عائشة صالح كصديقة لصافى ، صادقتها من كتابتها تقول صافى: عائشة لا تأخذ بالها من قيمتها.. فأنا لى أصدقاء كثيرون لا يجيدون الكتابة.. لكنى لا أقول لهم ذلك حتى لا أجرحهم.. وعندك مثلاً نوال السعداوى بتكتب وحش قوى ، قضت معى فى نيويورك ثلاثة أشهر ، وشفتها وهى بتكتب وكتابتها وحشة جداً.. أسلوبها وحش ومفيش فيه حضور ولا خفة دم.. ولا إحكام.. حتى مذكراتها ليست جذابة.. وهى عموماً كدابة وأنت تقرأ لها لا تشعر أنك أمام إنسان صادق ، ورجاء النقاش هو الآخر بيكتب وحش جداً.. والآن عندنا مثلاً منى رجب.. عائشة صالح قالت لى إنها بتغلط فى الإملاء وفى الصياغات.. فقلت لها حتى لما بيتصاغ لها.. فهى عمالة تكسب جوائز.. فأنا اشتريت كتابها "النساء قادمات".. لكني لم أجد كتابة.. فكتابتها غير أدبية وغير فنية ، ولما فازت روايتها بجائزة كتبت فى الهلال إن القراء يشترون روايتها وهم يبقوا الحكم ، ثم بعد ذلك تترجم أعمالها وفى هذا إساءة إلى الأدب المصرى وأنا الآن أصبحت أضرب المثل وأقول هذه كتابة أسوأ من كتابة منى رجب.

نترك هذا الصخب ونصل إلى منطقة نوارة فى حياة صافى ناز.. هى ابنتها الوحيدة تقول عنها: نوارة أخذت منى الاستقامة.. لكن بيننا اختلاف جذرى ، فهى تجد القيمة العليا فى الكتمان وأنا أجد القيمة العليا فى الصراحة.. فأنا دائماً أحرجها بصراحتى.. وهى دائماً تغضبنى بكتمانها.. ورغم أنى التى ربيتها.. لكنها أخذت من أبيها أحمد فؤاد نجم الكثير.. فهى فوضوية جداً مثل أبيها.. وعندما نقترب أكثر من الأم وابنتها.. نجد صافى تؤكد أن الحياة عندها تبدأ بنوارة وتنتهى عندها أيضاً.. وهذا يكفيها.. لا توجد فى حياة صافى ناز كاظم مرحلة تتمنى أن تتخلص من ذكرياتها.. لأنها رفعت عن نفسها الندم والألم.. وقدر الله وما شاء فعل ، تعيش حياتها ببساطة تخاف من ركوب السيارات فى شوارع مصر المزدحمة وتخشى الفئران والصراصير ، وتحب الطرافة والدعابة والقفشات ولا تحب النكت الإباحية.

وقبل أن أجمع أوراقى قلت لها.. هل تريدين أن تقولى شيئاً آخر.. قالت لى بابتسامه لم تغادرها طوال حوارى معها.. اتق الله يا محمد يا باز.. أنا كنت هأكتب مقال بعنوان براحتك يا محمد يا باز.. ولكن.. وصلتنى رسالة الكاتبة الكبيرة التى أعتز بها وبآرائها وأفكارها.. فهى تدافع عما تعتقده صواب.. وأنا كذلك أدافع عما أعتقد أنه صواب.. لم أدخل مع صافى ناز كاظم فى حوار حول ما نختلف فيه من أفكار.. لأننى ذهبت إليها لأحتفل بها وبعطائها على مدار نصف قرن من الكتابة.

9

أيـــــــام فتحية العسال

أيام فتحية العسال

قد تعرف فتحية العسال.. شاهدت لها مسلسلاً تليفزيونياً.. أو سمعت مسلسلة إذاعية كتبتها.. أو قرأت مقالاً اشتبكت فيه مع واحدة من قضايانا الكثيرة.. وقد تكون قرأت ما كتبه زوجها الكاتب الكبير الراحل عبد الله الطوخى عنها فى سيرته الذاتية "سنين الحب والسجن" و "دراما الحب والثورة" . وقد تكون قابلتها فى ندوة أو مؤتمر.. واستمعت إليها وهى تتحدث فى حماس عن قضية تؤمن بها وتدافع عنها.. حتى لو أغضبت الجميع.. فالناس جمعياً لا يساوون شيئا عندها إذا وضعوا إلى جوار الحقيقة .

لكنك ستتعرف على فتحية جديدة.. أكثر عمقاً وحماساً عندما تنتهى من قراءة سيرتها الذاتية التى وضعتها على كتف عنوان دافئ هو "حضن العمر".. رصدت خلالها رحلة عمرها التى بدأت فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٣، ومازالت تتدفق حتى الآن بكل ذكرياتها عن النضال والوطنية والكتابة والحب.. ولختراق أعماق البشر بكل ما فيها من حسنات وسوءات..

الأسماء التى فرضت نفسها على حياة فتحية العسال كثيرة تبدأ بزوجها عبد الله الطوخى ولا تنتهى بجمال عبد الناصر الذى تنبأت أن يصبح رئيساً للجمهورية.. بعد أن شاهدت محمد نجيب وأدركت أنه رجل بصباص ، بعد أن قبض على زوجها فى الشهور الأولى للثورة ذهبت مع وفد من زوجات المعتقلين إلى مجلس قيادة الثورة تقول: دخلت مكتب القائد.. أول عينى ما وقعت على محمد نجيب لقيته قاعد على مكتب كبير بشكل ملحوظ ، وهو قصير ومش باين من الكرسى اللى قاعد عليه شاور لنا ، قعدنا ، فى الأول اتخضيت ما هى أول مرة أقابل رئيس الجمهورية ، أنا عمرى ما قبلت ناظر مدرسة ، معقول أنا قاعدة

دلوقت مع محمد نجيب اللى قام بالثورة ضد الملك وطرده ، بسرعة لملمت توترى واتشجعت ، وخرّجت العريضة اللى عليها توقيعات العائلات .

دار حوار طويل بين نجيب وفتحية وإذا به يقول لها فى شبه غزل: أنا مش عارف الجماعة دول عايزين إيه بالضبط.. بقى معقول جوزك يعمل حاجة تدخله السجن ، ويسيبك لوحدك وأنت شابة وحلوة وحامل كمان. تقول فتحية: فى اللحظة دى لقيت إيد بتنغزه فى كتفه عشان يوقف كلامه.. ورفعت عينى مين صاحب الإيد دى ، لقيت قدامى مارد طويل عريض أسمر فى لون طمى النيل ، عينه بتبرق وخارج منها شعاع نور ، نظرته حادة وصارمة ، حسيت من هيئته وحضوره الطاغى أنه هو القائد ، مش اللى قاعد قدامى وبيكلمنى بغزل ، والست ما تخطئش أبداً بين الكلام العادى وبين كلام الغزل .

خرجت فتحية العسال.. وبعد أن عرفت أن صاحب اليد التى نغزت نجيب هو البكباشى جمال عبد الناصر وزير الداخلية قالت لأصدقائها جمعياً: انتظروا رئيس الجمهورية القادم اسمه جمال عبد الناصر وده احساسى وبكره تقولوا فتحية قالت.

إلى جوار أسماء نجيب وعبد الناصر والطوخى.. ظهرت أسماء مثل عبد الرحمن الخميسى وصلاح حافظ وجمال كامل وزكى مراد .ود.عواطف عبد الرحمن.. وهى أسماء ساهمت بشكل أو بآخر فى تشكيل حياة فتحية.. لكن وراء الأسماء يأتى المنهج الذى كتبت به فتحية سيرتها الذاتية.. فقد اختارت أن تكتب بالعامية.. لأنها كانت فى أشد الحاجة لأن تتحدث على الورق كما تتحدث فى الحياة ومع البشر ، واختارت أن تسقط كل الحواجز وهى تكتب لأنها لا تعرف أنصاف الحلول ولا أنصاف سرد الحقيقة كاملة ، ولذلك كانت فتحية صريحة إلى حد الدهشة ، اعترفت بأشياء يعتبرها البعض عيبا ولا يجب أن نتحدث فيها أمام الناس ، لكنها قالتها ببساطة لا أقول تحسد ، ولكن تشكر عليها .

اعترض والد فتحية محمود على العسال على ختان ابنته ، قال لأمها فى حسم: فتحية لا يمكن تتطاهر وكفاية اللى عملتيه فى أخواتها البنات من ورايا

(كان لفتحية أختان هما نجيبة وعائشة) ، ولما ردت أمها زنيب بأن هذا هو الشرع والدين ياسى محمود ، رد عليها بعنف: لا الشرع ولا الدين قالوا كده.. انتصرت العادات والتقاليد على صوت العقل ، وحاصرت عملية الختان الدامية الطفلة فتحية تقول: كنت صغيرة والدنيا لسه قدامى منورة ، وفى يوم صحيت من أحلاها نومة لقيتهم أخذونى وكتفونى ، وأنا باصة لهم وجوايا رعب الدبيحة وهى متكتفة، والغجرية بتسن سكينها وأنا باصرخ ، فضلت أصرخ لكن السكين كان أعلى من صرختى ، قرب من بين فخادى ودبحنى ، قطع لحمى ، وسيح دمى ، وأنا اتقسمت اثنين ، بقيت نصين .. نص بيشلب دم ، والتانى على حد السكين .

حادث الختان اقتحم حياة فتحية العسال بعد حادث أهم ، ففى اليوم الذى أتمت فيه عشر سنوات فاجأتها الدورة الشهرية تقول فتحية : النهارده عيد ميلادى تميت عشر سنين ، رفعت اللحاف ، ولسه بأقوم عشلن أجرى أفرح ماما ، وأقول لها النهارده عيد ميلادى ، حسيت زى ما تكون ميه سخنة مغرقة نصى التحتانى ، واتحسست هدومى ، اترعشت ، جريت على أمى ، قلت لها : بصى لقيت دم فى هدومى ، خبطت على صدرها : يا حبيبتى يا بنتى ، ده انتى لسه صغيرة .. معقول وانتى فى السن دى ! .

ولأن حادث الدورة الشهرية وحادث الختان ليس أمراً هينا فى حى شعبى قالت لها أمها : شوفى يا حبيبتى أنا هأقلوك كلمتين حطيهم حلق فى ودنك ، اوعى يا ضنايا حد يقرب منك ، أو يلمس طرفك ، تعجبت فتحية من كلام أمها ، فلاحقتها بقولها : ما هو يا حبيبتى جسمك الصغير دا ها يكبر ويدوّر ، وصدرك ها يتكور ، يعنى باختصار جسمك دا لازم من دلوقت يتخاف عليه !

وضعت أم فتحية ابنتها وجها لوجه أمام معنى شرف البنت الذى هو مثل عود الكبيريت ، وكان المؤسف أن تعرف فتحية أن شرف البنت بين فخديها ، لا أكثر ولا أقل.. لكنها اكتشفت زيف ذلك.. بعد أن عرفت أن شرف البنت يمكن أن يكون فى دم كتكوت ، فقد وقعت صديقة لها فى ورطة ، أعطت نفسها لحبيبها.. وعندما

اقترب موعد زواجها من آخر.. كادت أن تموت من الخوف قالت لفتحية: أنا هاموت نفسى.. سألتها لماذا؟ قالت: مش أحسن لما أهلى يوم الفرح يلاقوا شرفى ضاع يقتلونى ، أخذت فتحية صديقتها إلى عمتها التى تثق فيها.. وبحيلة نسائية لم تقتل البنت بل خرجت قطعة القماش من غرفة النوم وعليها دم الشرف.. سألت فتحية صديقتها ماذا حدث قالت لها: عمتك الله يسترها ويخلى لها ولادها أنقذت حياتى ، جابت كتكوت ودبحته قدامى وأخذت الحصالة بتاعته وميلتها من دمه.. !

لحظتها فهمت فتحية ما حدث.. وأدركت أن دم كتكوت هو شرف صديقتها ، قررت أن تصون نفسها ليس من أجل رجاءات أمها .. ولكن من أجل نفسها.. اعتبرت أن شرفها شيء خاص بها.. ولذلك كان غريبا ما حدث فى ليلة زواجها وهى وعبد الله ، لم يكن فرح ولا زفة ولا كوشة.. لكنها وجدت نفسها معه فى بيت أبيها زوجا وزوجة ، لم يخضعا.. قرار أن يعطيا للمجتمع الأبله ما يريد ويحتفظا بحقهما فى أن يعيشا الحياة كما يريدان ، كانت مرتبكة.. لكن عبد الله طمأنها قال لها: اطمئنى يا حبيبتى وإن كان على "بيضتى الشاش يا عروسة" أنا دلوقت حالا هابيض لهم الشاش ، سألته ها تعمل إيه؟ رد عليها بهدوء هاجرح صباعى على صباعك ودمنا يجرى على منديل أبيض وحصل.. عبد الله جرح صباعه وجرحت فتحية صباعها ، وضما أصبعيهما على بعض وتركا الدم يجرى على المنديل الأبيض.. أعطى عبد الله المنيل الأبيض لأبيها ، وبعد ثلاثة أيام من الزواج ، وبكل الرضا والرغبة المشتركة بيضت فتحية الشاش فقد كانت تعتبر أن ذلك شيء خاص بها وليس للآخرين شأن به .

هذه الصراحة المطلقة جعلت فتحية العسال لا تتردد فى الحديث عن علاقة أبيها الآثمة مع إحدى قريبات أمها ، كان اسمها لواحظ ، تحكى فتحية: فى يوم محفور جوايا ولا يمكن هنساه لآخر يوم من عمرى كنا لحظة غروب وفى يوم من أيام الحر القاسى ، ماما فى الحمام بتحمى إخواتى الصغرين ، وأنا كنت معاها باساعدها ، قالت لى: أخرجى هاتى هدوم إخواتك من الدولاب اللى فى أوضة النوم .

خرجت فتحية وأمام الباب قلعت القباب الخشب وجرت حافية على أوضة النوم ، وعندما وضعت قدمها على عتبة الحجرة عينها لمحت نص أبيها التحتانى، ونص قريبتها لواحظ التحتانى ملتصقين وأرجلهما ترتعش ، عادت إلى الحمام مسرعة وقبل أن تدخله وجدت أباها وقريبتها خارجين من الحجرة ، بعدها عرفت أن لواحظ حامل وتريد أن تتخلص من الحمل.. وبالفعل أجهضت نفسها وماتت.. تقول فتحية: وهما شايلين النعش ماما ماشية وراه بتصرخ بصوت عالى: يا حبيبتى يا لواحظ يا حبيبتى ، ساعتها بابا كان واقف وراء الشيش بيبص على النعش وهو خارج وولادها وجوزها بيتمرغوا على الأرض ، بصيت عليه.. لقيته بيعيط وبيتمتم ، سامحينى يا لواحظ ، فى اللحظة دى ما اعرفش ليه ربطت بين اللى شفته بين أبلة لواحظ وبابا فى أوضة النوم ، وبين حمل أبلة لواحظ ،وما اعرفش ليه برضه ، صعبت على أبلة لواحظ ، وصعبت على ماما واتعاطفت مع دموع بابا !

كانت هذه أول مرة ترى فتحية العسال فيها أباها يبكى ، ورغم أن هذا الرجل كان مزواجا يحب الحريم .. لكنه من خلال حكى فتحية عنه يبدو أبا مثالياً.. تقول عنه: كنا نلاقى أبويا ساعات يبقى غنى وعنده فلوس وساعات يبيع العربيات اللى عنده ويفلس ، وفجأة يرجع تانى يبقى غنى ، كان يحب الضحك والأكل والستات واتجوز على امى عشرين مرة على سنة الله ورسوله .

يظهر والد فتحية العسال فى مشوار حياتها مثل الحاج متولى الذى اعترضت فتحية العسال نفسها عليه وكتبت ترفضه وتنتقده باعتباره نموذجا ظالما للمرأة ، لكن ما حدث بالفعل أن أباها كان نسخة من الحاج متولى ، يتزوج أكثر من مرة ، لكنه لا يقصر مع إحدى زوجاته.. يرعى شئون أولاده ، يدافع عن حقوقهم وخاصة البنات ، كان يريد الستر للبنات لكنه لم يكن يسارع بتزويجهن من أى عابر سبيل ليتخلص منهن ، بل كان يستجيب إذا طلبت واحدة من بناته الثلاث أن تفسخ خطبتها أو تطلب الطلاق.. كان يسأل عن السبب.. ثم وفى لحظة يأخذ القرار الذى يريح ابنته !

تخلصت فتحية العسال من تجربة خطوبة فى حياتها.. وحصلت على الطلاق مرة من عبد الله الطوخى الذى أحبته كما لم تحب امرأة رجلا وفى كل سطر فى حياتها تشعر أنها باقية فى أحضانه أبداً ، عادت إلى الطوخى وظلت معه حتى خرج من بيتها فى وداع يعقبه لقاء ، هذه الأحداث ليست الأساس.. ولكن الأصل فيما أرادت فتحية أن توصله لبنات جنسها أن الزواج قرار.. والطلاق أيضاً قرار.. ولا يمكن أن تتحمل المرأة حياة لا تطيقها مع رجل تختلف معه ، وقد تعتبر أن حصول فتحية العسال على الطلاق كان أمراً سهلا ، فهى امرأة تعمل وتعتمد على نفسها وليست فى حاجة لمن ينفق عليها.. لكن هذا ليس صحيحا.. ففى النادى الأهلى وعلى المائدة التى جمعت فتحية العسال بصديقتها د. عواطف عبد الرحمن قالت لها د. عواطف أنت بتأكدى بطلاقك يا فتحية أن الست منا واللى بتعيش بصدق فى حياتها وخصوصا اللى حفرت الصخر زيى وزيك عشان تبنى نفسها ، الطلاق بالنسبة لها أصعب بكتير من ست عادية ، لأن مشاكلنا اللى بنتطلق بسببها مش لأن جوزنا، ما بيصرفش علينا ولا جوزنا اتجوز واحدة تانية لا.. دا لأن احنا بنرفض التناقض فى حياتنا !

حاولت فتحية العسال أن تضع حياتها أمامنا بلا ديكور أو مكياج.. بصراحة مطلقة.. صحيح أنها تحفظت على بعض الأشياء ، على أساس أنه ليس من الضرورى أن ننبش الخصوصيات ، فهناك أشياء لابد أن نبقيها كامنة فى زوايا يعتبرها المجتمع خروجا على عاداته وتقاليده التى صنعها بنفسه ثم يحاول أن يجعل منها قرآنا ، الخروج عليه كفر والاعتراض عليه جنون .

ما قالته فتحية عن حياتها قليل من كثير قد لا تخطفك صياغاتها.. فهى تكتب بالعامية.. وقد لا تتفاعل مع أحداث حياتها خاصة وهى تهتم بتفاصيل التفاصيل.. لكنك لن تستطيع فى النهاية إلا أن تحترمها .

امرأة تروى حياتها بصراحة مزعجة.. فى زمن عزت فيه الصراحة.. وندر على أرضه الصدق !

10

انتحار

قاسم أمين

انتحار قاسم أمين

ثلاثة وأربعون عاماً.. هى كل حياة قاسم أمين الذى رسخ اسمه فى الذهن المصرى والعربى على أنه محرر المرأة وذلك بعد كتابيه "تحرير المرأة" الذى خرج للنور عام ١٨٩٩.. وكتاب "المرأة الجديدة" الذى ألحقه قاسم بصاحبه وركز فيه كل جهد ليرد على الانتقادات التى واجهت كتابه الأول والشائعات التى نالت منه شخصياً ووجوه الأذى التى حاولت أن تلحق ببيته وزوجته.

قد يكون هذا كل ما تعرفه عن قاسم أمين.. فهو فى خيالك رجل يبدو أنه قصير نوعاً ما - كثيف الشعر.. عيونه ليست حادة.. بل فيها كسل من أثر النوم - لا يعطيك إحساساً معيناً - سوى أنه رجل على باب الله.. قد يكون متعلماً نعم.. قد يكون مثقفاً ما فى ذلك شك.. لكنه من هؤلاء الذين يزرعون المشاكل والأشواك فى الحياة.

الملامح ليست صادقة.. فقد أقام قاسم أمين الدنيا ولم يقعدها حتى الآن.. والمضحك حتى السخرية أنه لا يذكر إلا وفى ذيله لعنة.. فالذين يعارضون خروج المرأة للعمل ومشاركتها فى الحياة العامة يصبون على رأسه اللعنات.. والنساء اللواتى خرجن وحققن ذواتهن عندما تضيق بهن الدنيا وترهقهن.. يرفعن أكفهن للسماء داعيات: الله يخرب بيتك يا قاسم يا أمين.. يفعلن ذلك مرة على سبيل الهزل ومرات كثيرة على سبيل الجد.. لكنهن في كل مرة يقلنها.

لم يكن قاسم أمين الذى ولد عام ١٨٦٥ مصرياً خالصاً ، فالثابت أن جده كردستانيا، أما كيف جاء أبوه إلى مصر.. فهذه قصة أخرى ، فصلاح زكى أحمد فى كتابه عن قادة الفكر العربى يؤكد أن جد قاسم أمين كان كردستانيا وقد أخذوا

ابنه أمين رهينة فى الأستانة عاصمة الدول العثمانية والتى كانت كردستان إحدى ولاياتها دائمة التمرد والعصيان ، جاء أمين بك إلى مصر فى زمن الخديوى إسماعيل حيث دخل فى خدمة الجيش المصرى.. ووصل إلى رتبة أميرالاى وتزوج بابنة أحمد بك خطاب وأنجب قاسم.

د. محمد عمارة فى كتابه "قاسم أمين وتحرير المرأة" يذهب إلى أن قاسم أمين ولد لأب تركى عثمانى ولأم مصرية من صعيد مصر ، فوالده محمد بك أمين كان قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها الوالى التركى على إقليم كردستان ، وعندما ثارت كردستان ضد الدولة العثمانية وأعلنت استقلالها عن الأستانة ، كان واليها محمد بك أمين فى الأستانة فظل بها حتى منحته الدولة عوضاً عن إمارته بعض الإقطاعيات في مصر بإقليم البحيرة قرب مدينة دمنهور .

الاختلاف حول مكانة الأب لن تعطلنا.. فالمهم أن قاسم أمين ولد لأب كردستاني وأم صعيدية.. لكن هذا الاختلاف يضع يدنا على سر قاسم أمين.. أو بالأدق يدلنا على مفتاح حياته التى كانت غامضة ، فقد مات قاسم أمين منذ عام ١٩٠٨.. أى مر على موته ما يقرب مائة عام ومازالت وفاته لغزا محيراً.. هل مات بالسكتة القلبية كما قال جورجي زيدان فى كتابه "بناة النهضة الحديثة" الذى أصدره عام ١٩٥٧.. أم مات منتحراً كما يشير إلى ذلك سعد زغلول فى مذكراته.. وقد كان سعد زغلول صديقاً مقرباً لقاسم أمين.

غموض الوفاة لم يكن الغموض الوحيد فى مسيرة قاسم أمين - وقبل أن نحقق اللحظات الأخيرة فى حياة محرر المرأة - تخطفنا سنوات عمره القصير.. فقد قضى أولى سنواته فى التعليم بمدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية وكان طبيعياً أن يدخلها دون غيرها ، فقد كانت مدرسة لأبناء الأرستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء.

ومن حياة الأثرياء فى الإسكندرية إلى حياتهم فى القاهرة ، انتقل قاسم بعد دراسته الابتدائية إلى حى الحلمية والذى كان وقتها لا يسكنه إلا علية القوم.. وفي

المدرسة التجهيزية التحق بالقسم الفرنسي.. ومنه إلى مدرسة الحقوق والإدارة ، حصل على الليسانس وعمره عشرون عاماً ، ولأن علاقات أبيه كانت وثيقة بعلية القوم.. فقد عمل قاسم أمين بالمحاماة فى مكتب مصطفى فهمى الذى تولى رئاسة الوزارة فى ظل الاحتلال الإنجليزى وهو فى ذات الوقت والد صفية زوجة سعد زغلول.. التي حصدت لقب "أم المصريين".

دخل قاسم أمين مكتب مصطفى فهمي عام ١٩٨١ لم ينقض العام إلا وكان المحامى الشاب فى طريقه إلى فرنسا.. ظل بها أربع سنوات قامت خلالهم الثورة العرابية وأصبحت مصر أسيرة فى أيدى الإنجليز.. وفجأة وجد قاسم أمين نفسه إلى جوار صديقه القديم الإمام محمد عبده الذى نفى إلى باريس بعد أن فشلت الثورة العرابية التي كان أحد زعمائها وبعد أن عاد الغريبان إلى مصر توثقت الصلة بينهما.

عاد قاسم إلى مصر عام ١٨٨٥ وعلى كتفيه عطر باريس.. ولابد أن التفات قاسم أمين للمرأة وإلى ما يمكن أن تقوم به فى المجتمع يعود إلى سنوات باريس ، فقد رأى المجتمع الأوروبى يضم الرجال والنساء دائماً فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب ، وهذا الاختلاط بين الجنسين فى الاجتماعات - والكلام لقاسم - يسبغ عليها عذوبة ورقة ، فالسحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور وفى مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح وغالباً ما يتودد للغير ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا.

لم يسمع قاسم أمين عن عطر نساء باريس فقط. لكنه عاشه والكلام هذه المرة من بدايته له يقول: كان شأنى شأن الآخرين فى الإحساس بقدر السحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه ، وخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد ، وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من

مرة غير أن هذا لم يقلل من حبى لهذه اللقاءات الشيقة التي يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به".

لم يلتقط قاسم أنفاسه منذ اللحظة التى عاد فيها إلى مصر ضم إحساسه بالسحر الذي تخلقه المرأة فى المجتمع إلى صدره أغلقه علية وبدأ حياته العملية التي لم تكن سهلة مطلقاً.. عين فى النيابة المختلطة ومنها إلى قسم قضايا الحكومة.. ثم إلى رئاسة نيابة بنى سويف.. وفى سنة ١٨٩١ انتقل رئيساً لنيابة طنطا.. وفى هذه الفترة وقع الحدث الكبير في حياة قاسم أمين.

كان عبد الله النديم الصحفي الثائر ومشعل فكرة الثورة العرابية وراعيها قد وقع في قبضة الشرطة بعد أن ظل هارباً أكثر من تسع سنوات.. وقع نديم فى السنطة القريبة من طنطا ، وجد قاسم أمين وجهاً لوجه أمام واحد من أبطال الثورة العرابية ، واجب الوظيفة كان يقضى أن يحقق قاسم مع النديم - رئيس النيابة مع المتهم الهارب - لكنه لم يفعل.. كل ما استطاعه أنه أكرم لقاءه وأعطاه مالا من عنده ، ووفر له فى سجنه أقصى ما يستطيع من ظروف الراحة والرعاية، ثم قرر أن يتوسط لدى الحكومة كى تفرج عنه.. وقد نجح قاسم أمين مع آخرين ومن خلال حملة صحفية ضخمة أن يتم العفو عن النديم وتكتفى الحكومة بنفيه إلى الشام بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيهاً.

توالت الأحداث الكبيرة على قاسم أمين.. ففى ١٨٩٤ دخل قفص الزوجية.. تزوج من زينب ابنة أمير البحر التركي أمين توفيق ، كان صديقاً لوالده ، وقد قامت بتربية ابنته في طفولتها وصباها مربية إنجليزية ، كان قاسم مشغولاً عن زوجته بأعماله وصداقاته الكثيرة.. لكنه ورغم ذلك حافظ على طقس اجتماعى قد تراه غريباً الآن.. فقد كان يخصص لزوجته من وقته ساعتين يومياً وبشكل منظم من الساعة الخامسة إلى السابعة مساءاً.. كان هذا الوقت ملكها وحدها.. تفعل فيه ما تشاء وتطلب خلاله ما تريد كانت ساعتا زينب مقدمه.. لثلاث ساعات أخرى يقضيها يومياً فى مكتبته التى كانت تشغل من منزله ثلاث غرف ، لكن ومن حسن

حظ زينب أن الساعتين كانتا تمتدان طويلاً فى شهور الإجازة الصيفية التى كان قاسم يقضيها مع زوجته وبنتيه فى منزله الصيفى بتركيا.

فى نفس العام وضعت الأحداث قاسم أمين فى بؤرة الاهتمام ، كان الدوق الفرنسي "داركو" قد ألف كتاباً اسمه "مصر والمصريين" لختار هذا الدوق تفسيراً يبدوا أنه أراحه لتأخر المصريين.. فقد جزم أن تخلف مصر الاجتماعى يعود في المقام الأول إلى الإسلام ، وكان من رأى داركو أن مصر تتمتع بروح قومية مصرية صميمة نتيجة ذوبانها فى كيان إسلامي غير محدد المعالم ، استفز هذا الكتاب قاسم أمين فرد عليه بكتاب آخر هو "المصريون" لم يكن قاسم فى كتابه ضعيفاً ولا خانعاً ولا ليناً.. فقد اعترف بتخلف بلاده.. لكن ليس لأنهم مسلمون.. ولكن لأن من يتهمون المصريين بالضعف والفقر والجهل هم الذين يضعون العقبات فى طريق نهضتهم باستغلالهم في سبيل المنفعة الخاصة يقول قاسم عن الأوربيين: "لقد حولوا بلاد المسلمين إلى سوق لسلعهم ووضعوا العراقيل أمام محاولات إقامة صناعة وطنية ، وعاث رعاياهم فى الأرض فساداً محتمين بالامتيازات الأجنبية ، أضف إلى ذلك السيطرة العسكرية ، ومحاولة تقويض الثقافة للإسلام والمعبرة عن زيف الحضارة الغربية".

ظهر قاسم أمين فى كتابه "المصريون" مدافعاً عن الإسلام.. فقد أكد أن الإسلام سبق كل الشرائع الأخرى فى تقرير حقوق المرأة كاملة قبل أن تعرفها أوروبا بإثنى عشر قرناً ، ودافع قاسم أمين عن موقف الإسلام من تعدد الزوجات وبين حكمته وأحكامه مقارنه بما يجرى فى أوروبا من اتخاذ الخليلات - ونفى قاسم كذلك أن يكون الحجاب سجناً للمرأة ، لأن النساء يخرجن للأسواق والزيارة.

لكن بعد خمس سنوات فقط وبعد أن كتب قاسم أمين "تحرير المرأة" تغيرت الدنيا من حوله ، وبعد أن كان مدافعاً عن الإسلام فى نظر من حوله أصبح عدواً لدوداً له يريد أن يهدمه ويقوض أعمدته.. منعه الخديوى من دخول القصر.. حاصرته الاتهامات من كبار المثقفين والسياسيين وحدث ما هو أكثر عندما دق

باب بيته أحد العامة - وهو فى النهاية أبله ومتعصب - وعندما فتح قاسم الباب لمن قصده دار بينهما حوار من أغرب ما يكون.. قال له قاسم أمين: ماذا تريد ؟ فرد عليه الطارق في صفاقة: أريد زوجتك ! ، تغير وجه قاسم أمين وقبل أن يرد قال له الرجل أليست هذه دعوتك فى كتابك تحرير المرأة ، أن يخالط الرجل النساء وأن يجلسوا معهم.. هيا دع زوجتك لأخالطها وأجلس معها أغلق قاسم أمين الباب في وجه الرجل.. وهو حائر لا يعرف ماذا يفعل فى هذا المجتمع الذى يتعامل بغوغائية وجهالة وقلة ذوق! .

لم يدع قاسم أمين إلى أن تخالط النساء الرجال.. ولكنه كان ابن بيئته وواقعه فقد كان يعتقد أن المرأة المصرية فى وقته لا تزال غير مهيأة لأى شيء على الإطلاق ويحتاج الأمر إلى سنوات لتربية ذهن المرأة ، كى تتمكن من الاستعداد لمناقشة الرجل فى الميدان الاجتماعي.

ورغم أن الرجل كان واضحاً مع نفسه.. فإنه تعرض لحملة تشويه وصلت إلى إنكار أنه واضع كتاب "تحرير المرأة" قالها خصوم قاسم أمين: إن الأمام محمد عبده هو الذى وضع الكتاب.. فقد كانت له أراء في الحجاب.. لكنه كان يخشى أن يعلنها.. فدفع الكتاب إلى قاسم أمين لينشره باسمه ، تبنى هذا الزعم د. محمد عمارة - وقد فعل ذلك كما يقول أحمد عباس صالح لأن د. عمارة يظن أن المثقفين الذين لم يتعلموا فى الأزهر لا يعرفون إلا القليل عن الشريعة الإسلامية وعن الفقه الإسلامي وهو تعصب لا معنى له.. بل إن قاسم أمين عندما أصدر "تحرير المرأة" كان مستشاراً فى المحاكم ويعتبر فى زمانه من كبار المثقفين الأكثر اطلاعاً وعلماً ، ومن الطبيعى أن يكون إلمامه بمذاهب الفقهاء الإسلاميين أوسع كثيراً من الدارسين فى الأزهر.

لم يعش قاسم أمين طويلاً بعد كتاب تحرير المرأة ، تسع سنوات قضاها مطارداً ومتهماً حتى حلت لحظة النهاية ، يحكيها سعد زغلول فى مذكراته يقول

مساء يوم وفاة قاسم أمين.. التليفون يدق فدق قلبى لدقه ، سمعت أحمد فى التليفون يردد بصوت: قاسم أمين ، ففهمت أنه نزل به مصاب ، فانخلع قلبى وقمت منزعجاً نحو التليفون.. وسألت فقيل: قاسم بك مات ، فاعترانى هلع شديد ، وقلت انتحر الرجل ، ثم طلبت عربة وركبت مع عبد الخالق وصدقى إلى بيته ، فوجدنا العويل والصراخ والبكاء والنواح ، وهناك رأيت طلعت ويحيى والدكتور عباس ، وفهمنا من مجموع أقوالهم أنه عاد إلى منزله فى نحو الساعة الثامنة وأبى أن يأكل مع الآكلين.. وتألم من شيء فى أعلى صدره، فدعكته زوجته بماء الكولونيا وطلب ناراً لإشعال السيجارة ثم فارق الحياة.

تحدث من كانوا مع سعد زغلول عن انتحار قاسم ، وسأل سعد نفسه الدكتور عباس عن حقيقة الأمر ثانية ، فأجاب الدكتور عباس بعد سكوت بأن الموت طبيعى.. وعلق بقوله: إنما كان عاشقاً فأكد سعد كلامه قائلاً: أعرف شيئاً عن ذلك.

كان سعد ومن أرضية علاقته الوثيقة بقاسم أمين - يلمح إلى علاقة قاسم بالمطربة وسيلة التى عرفت فى أوائل القرن العشرين ، كانت مطربة وعازفة قانون ، لقد بحثت عن أصل وفصل وسيلة لكنى لم أجد من كتبوا عن أهل المغنى المحدثين شيئاً يذكر عن وسيلة.. لكن الثابت أن زينب زوجة قاسم كانت تغير بشدة من وسيلة.. وكان ذلك مصدر إزعاج لقاسم.. فقد كان يحب وسيلة للدرجة التى جعلته يغدق فى الإنفاق عليها ببذخ .

قد تكون وسيلة سبباً فى انتحار قاسم أمين.. ليس لأن زوجته كانت تغار منها.. ولكن ربما قد تكون تركته وخاصة أن ديونه فى أيامه الأخيرة بلغت أكثر من أربعين ألف جنيه وهو مبلغ ضخم جداً بمقاييس ذلك الزمان.. لم يستطع قاسم أمين أن يسدد ديونه.. ودخل فى ضائقة مالية فرقت من حوله الأصدقاء ولم تكن العشيقة مخلصة فودعته لأنه لم يعد يملك ما ينفقه عليها.

حاول أحمد عباس صالح فى تعقيبه على كتاب قاسم أمين "المصريون" أن يجد تفسيراً منطقياً للديون الكثيرة التى أثقلت كاهل قاسم . قال فى عام ١٩٠٧ - أى قبل وفاة قاسم بعام - حدثت أزمة اقتصادية كبرى متعلقة بالمضاربة على أسعار الأراضى أدت إلى إفلاس الكثيرين فهل كان قاسم أمين منهم؟ لا يجزم أحمد عباس صالح بشىء فهو يخمن.. وبنفس المنطق يمكننا أن نخمن الصداقة التى جمعت بين قاسم أمين وسعد زغلول.. لم تقتصر على الأفكار فقط ولكنها امتدت إلى موائد القمار التى كان يدمنها سعد ويمكن جداً أن يكون قاسم قد خسر جزءاً كبيراً من أمواله إلى جوار سعد في صالات القمار ! .

الأستاذ عودة

11

الأستاذ عـودة

قبل أن أترك الكاتب الكبير محمد عوده جاءته مكالمة تليفونية من صحفية شابة ، وجدته يبتسم وهو يقول لها : "والله لا أعرف التاريخ الذى بدأت النساء تدخن فيه السجائر.. لكن يمكن أن تسألى فى ذلك الشركة الشرقية التى تنتج السجائر يمكن يقولوا لك ، وعموماً أنا أول واحدة شفتها بتدخن أعجبت بها جداً ، وكان فى طريقتها ، وهي تدخن شيء من الجاذبية والإغراء ، ثم إن المرأة من حقها تدخن.. اشمعنى هى" ، ويبدو أن الصحفية الشابة قالت له: إن التدخين ضد أنوثة المرأة ، لأنه قال لها: على العكس التدخين ده فيه تدعيم لأنوثة المرأة.. وبعدين أنت اسمك إيه ، ردت عليه قائل : اسمي شاهيناز فقال لها ضاحكاً: طيب شاهيناز ده اسم لازم يدخن.. وضع عوده سماعة التليفون ، وقال لى: شوف الناس بتتكلم في إيه؟.

هكذا هو محمود عوده.. رجل تعدى السبعين من عمره ولد فى جهينة بالشرقية عام ١٩٢٠ لكنه مازال يحتفظ بروحه الشابة الساخرة الثائرة ، يتابع الأحداث عن قرب ويكتب عنها ناقداً وساخطاً، مشغول هو هذه الأيام بكتابة الجزء الثاني من كتابه "ليبراليون وشموليون" محاولاً أن يكتب قصة الحزبية ، والديمقراطية فى مصر برؤية منصفة للتاريخ المصرى الذى يرى أنه تعرض لاعتداء صارخ من الجميع جعل الأجيال الشابة تفقد الثقة فى تاريخها ، ورموزها الوطنية.

لا يحب محمد عوده أن يتحدث عن حياته الخاصة كثيراً.. ولكنه لا يترك مناسبة عامة أو خاصة إلا ويؤكد على فكرته الأساسية التي تصل عنده إلى حد العقيدة ، يقول عوده : أنا مؤمن بمصر دولة عربية عصرية ديمقراطية اشتراكية علمانية غير منحازة ، تكون القاعدة الأساسية لتحرير الوطن العربى ولتوحيده حتى تقوم قوة عربية عظمى فيدرالية أو كونفدرالية تضع العرب أو الأمة العربية فى الموقع الذي من حقها أن تحتله فى حياة العالم والحياة الحديثة.

هذه هى عقيدتى - الكلام على لسان عوده ولا يزال - فأنا أؤمن بالقومية العربية والديمقراطية الشعبية والاشتراكية العلمية والعلمانية ، وليس هناك تعارض بين العلمانية والدين ، والإسلام خاصة أوضح الحدود عندما نصت القاعدة الشرعية على أنه لا اجتهاد في العبادات ، وكل الاجتهاد في المعاملات ، لأنكم أعلم بشئون دنياكم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

والأمة العربية أمة متعددة العقائد والطوائف وقد استغل الاستعماريون هذا التعدد عبر مرحلة طويلة واستغرقت الأمة العربية فى صراعات وحروب طائفية فرقتها لصالح المستعمر وكان المخرج الوحيد السليم هو القومية العربية العلمانية التى تجمعهم جميعاً كمواطنين أحرار متساوين فى الواجبات.

هذه الرؤية الواضحة ظل محمد عوده يدافع عنها طوال حياته ، ولعل ذلك يفسر لنا ما كتبه عنه يوسف إدريس قال وهو واحد من المثقفين القليلين فى مصر الذين يؤمنون إيماناً يبلغ الهوس ، والهوس هنا ليس عيباً وإنما هو في رأيى قمة الإيمان بثلاثة أشياء هى نفسها كل ما وهبت نفسى له ، فهو ثائر ومؤمن بالثورة ، وهو شعبى ومؤمن بالشعب وهو اشتراكى ومؤمن بالاشتراكية ، تثور البراكين وتخمد ، تتزلزل الأرض وتتشقق ، يتغير الحكام الكبار والصغار ، ويتبدلون ، وعوده هو ذلك المؤمن العنيد بهذا الثالوث المقدس ، لا يتزحزح ، لا يتراجع ، لا يهادن ، لا يغفر ، وهو ليس إيماناً أعمى ولا إيماناً سهلاً أيضاً، إنه معركته المستمرة المتصلة مع كل الناس أحياناً إذا اقتضى الأمر ، حتى مع الاشتراكيين

أنفسهم والشعبيين والثوريين فالإيمان عنده ليس شيئاً عقلياً يرتاح إليه وتنتهى الأمور ، إنه حياته وطريقة حياته وهدف حياته.

هذه الصلابة التى لا تلين لابد أن لها جذورها.. فقد كتب يوسف إدريس هذا الكلام عام ١٩٧١.. وها نحن فى عام ٢٠٠١- عندما قابلته - أى ثلاثين عاماً مضت.. وعوده كما هو لم يتغير.. رغم أن البلد تغيرت والثوابت انقلبت وأصبحت مصر بلداً آخر ، وصفها عودة لى قائلاً : إنها أصبحت بلداً تسوده رأسمالية السماسرة التى تبنى القرى السياحية بدلاً من المصانع والمشروعات الكبرى !

جذور صلابة عوده تعود إلى الأربعينيات عندما تخرج في كلية الحقوق.. وقرر أن يعمل محامياً فى الأرياف عن الفلاحين والفقراء ، يقول عوده : فى هذه السنوات عشت المأساة الاجتماعية المصرية كاملة ، كنت وقتها متأثراً بالفكر الاشتراكى العملى ، وأن الثورة لابد أن تبدأ من القاع.. من عند الفلاحين المصريين الذين قاموا بالثورة العرابية وقادوا ثورة ١٩١٩.. كنت مقتنعاً بأن الفلاحين هم الذين سيقومون بالثورة القادمة التي تنتظرها مصر.

لكن التجربة أثبتت لى غير ذلك.. فقد انتهيت إلى أن مصر دولة مركزية ، وأن زحف الفلاحين لاحتلال المدن واقع آخر ، وأن الثورة يجب أن تستولى على المراكز ، عرفت ذلك بعد أن عشت عمق المأساة الاجتماعية فى الريف ، لقد شهدت وباء الملاريا والكوليرا وهو يجتاح الفلاحين ، لقد أصبت بالملاريا ورأيت الفرق بين أن تكون مريضاً وتجد العلاج ، وأن تكون مريضاً ولا تجد العلاج .. رأيت أن النظام القائم عاجز عن المواجهة فأدركت أنه لابد سينهار.

تأكد لدى شعور بأن الثورة قادمة عندما تركت الريف ، وجئت إلى القاهرة دون أن أعرف ماذا ينتظرنى ، عملت في بعض مكاتب المحامين الكبار ووجدتهم يزيفون القانون ليصبح فى خدمة الطبقات المالكة والشركات الأجنبية.

ترك عودة المحاماة وعمل بالصحافة والكتابة.. وراح يبحث عن أسباب النهوض ، كانت كل محاولاته هو أن يعيد كتابة التاريخ المصري من جديد ، أن يعيد الاعتبار مرة أخرى للزعماء والقادة المصريين الذين ظلمهم الاحتلال وغباء بعض أبناء الوطن.. ولذلك عندما تجلس مع الرجل الآن للتحدث معه عن حياته الخاصة ، يأخذك أخذاً إلى تاريخ مصر وأمجادها يحدثك عن ثورات الشعب المصرى.. كيف أسقطوا فاروق بهتاف خرج من الجامعة - الغذاء والكساء يا ملك النساء - وكيف هزوا إنجلترا بثوراتهم المتعاقبة بعد أن كانت التقارير البريطانية تؤكد أن الشعب المصرى خاضع ويمكن السيطرة عليه بسهولة.

يغضب عودة من تشويه صورة وحياة القادة المصريين ، ويعترض على تحطيم رموز مصر من محمد على وإسماعيل وأحمد عرابى وسعد زغلول وجمال عبد الناصر ، الوحيد الذى ينقده عوده بشده هو السادات ويعتبره قائد الثورة المضادة التى ارتدت بمصر إلى ملك الغرب دولياً وارتد بها إلى مجتمع الملاك والرأسماليين مرة أخرى ، وبدأت على يده تصفية ما حققته ثورة يوليو ، لقد شاهد محمد عوده فيلم "أيام السادات" فى السينما ، بين الناس ، وسجل إعجابه الشديد بأحمد ذكي.. لكنه يرى أن الفيلم سطحي وممل وحاول التغطية على الدور التاريخي للسادات.. فالرجل جعل الفرق بين الطبقات في مصر مفزعاً ، قادنا هذا الفرق إلى الوصول بمصر إلى بلد خدمات سياحية وزراعية تدور فى فلك العولمة وما يريده لها الغرب !

يهتم محمد عوده بأن تعرف الأجيال الجديدة تاريخها ولذا فهو يجتهد حتى الآن.. يقرأ ويكتب رغم معاناته من المرض التى لا تزعجه ولا تؤثر على روحه الشابة التى تتشبع بها بمجرد أن يأتيك صوته عبر التليفون مملوءاً بالحيوية والشباب ، ولا يهتم عوده فى الوقت نفسه بالحديث عن حياته الخاصة.. ليس لأنها مثلما يقول الآخرون : ملكه وحده ، ولا يجب أن يطلع عليها أحد.. ولكن لأن هناك أشياء أخرى يجب أن نشغل الناس بها !

ورغم ذلك ، فهناك ثلاث محاولات قام بها محمد عوده لكتابة سيرته الذاتية .. المحاولة الأولى كانت بعد أن قرأ حياة راقصة أمريكية اسمها " إيزادورا دانكا"، كتبت هذه الراقصة تفاصيل حياتها كاملة كفنانة وامرأة ، انبهر بها عوده ، وقرر أن يكتب تاريخ حياته بهذا الشكل ، وعمل تجربة ظل خلالها لمدة شهرين يكتب يومياته بدرجة عالية من الصدق ، يسجل أرائه فى الناس والأصدقاء ، وكتب عن علاقاته العاطفية.. وبعد شهرين عاد لما كتبه فوجد نفسه يصرخ: يا خبر أبيض ، فقد وجد أنه من المستحيل أن يقرأ هذه المذكرات الصريحة.. فتخلص مما كتبه نهائياً.

المحاولة الثانية عندما قرأ مذكرات سعد زغلول التى يعتبرها أهم عمل فى تاريخ عبد العظيم رمضان كمؤرخ ، قرر عوده بعدها أن يكتب فهذا هو سعد زغلول الزعيم الثورى المهيب يكتب عن لعبه للقمار ببساطة ، وعن علاقاته مع الإنجليز ببساطة أشد ، ورغم أن سعد كتب فى بداية مذكراته.. " الويل لمن يقرأ مذكراتى" لكن عوده قرأها وكتب مذكراته بنفس الطريقة ، راعى عوده أن يكون ٧٥ % مما كتبه صادقاً و ٢٥% محاولة للتجميل لكنه لم يقدر على نشرها.

المحاولة الثالثة لم تكتمل أيضاً.. ولكن نشر بعضها ، بدأت الحكاية عندما طلب مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال من الأستاذ عوده أن يكتب عن فترة تكوينه ضمن سلسلة التكوين التي تنشرها المجلة ، كتب عوده تحت تأثير حبه لمصطفى فقد قال لى بأنه لا يستطيع أن يرفض له طلباً حاول عوده أن يكون صادقاً فى هذه المذكرات.. ، ويعترف بأنه كتبها بـ ٨٥ % من الصدق و ١٥% فقط من تجميل الصور ، لم يكتب عوده كل شيء فمازالت لديه أسرار وآراء يطمع فى أن يتيح له الموقف والظروف أن يكتبها.. لكنه حتى ذلك الحين يبحث في التاريخ ويفتش عنه بميزته الكبرى التى توصل إليها يوسف إدريس.

فقد كان يوسف يرى أن الميزة الكبرى لمحمد عوده ، والتي تفرقه عن أى كاتب سياسي آخر أو عن أى مفكر آخر أو مؤرخ ، وكاتب قصة آخر ، أنه يكتب

التاريخ إذا كتبه ويصور الحاضر إذا صوره ، كما يجب أن يكون ، وكما يجب أن يكون ، وربما يقال إن هذا هو عيبه الكبير ، ولكنه قانون النبوغ الأوحد ، إن الميزة الأعظم دائماً هى العيب الأعظم.

إن محمد عوده يظل رغم السنين وقسوتها وتقلباتها التي لا تريحه عادة ، يظل الباحث عن الجوهرة المكنونة في قلب كل شيء ، إنه مفتش الكون العام ، وربما يأتى من هنا تحديقه الدائم وذهوله ، فهو باستمرار فى حالة بحث دائم عن جوهرة الحقيقة الكبرى فى الناس والأشياء والأصدقاء والثورات والتاريخ ، وكثيراً ما يعود من بحثه خائب الأمل وتبدو خيبة الأمل واضحة تماماً فى ملامحه وكتاباته ، ولكنه فى أحيان قليلة نادرة يعود منشرح الأسارير واسع الابتسامة مردداً : وجدتها !

يعيش الآن عوده فى مرصده الخاص بشقته الهادئة في الدقى.. يبحث ويكتب، يستمتع بوقته واتصالات تلاميذه وأصدقائه الذين رفض أن يحدثنا عن علاقته الخاصة بهم.. ينظر إلى مكتبته العامرة بالكتب.. ويتابع الصحف اليومية بحثاً عن جديد.. فهو على اقتناع تام بأن هناك جديداً لابد سيأتى.. إن لم يكن الآن فغداً وإن لم يكن غداً فبعد غد !

12

الصحافي

قائد التنظيم

المحامى قائد التنظيم

يقدم منتصر الزيات نفسه فى وسائل الإعلام المصرية والعربية على أنه مجرد محامى للجماعات الإسلامية ، يحاول أن يؤكد فى كل مرة يتحدث فيها أنه يقوم بدور الراصد لنشاط الجماعات المتطرفة ، ولا ينسى فى كل حوار أو لقاء تليفزيونى أن ينفى فيها عن نفسه أن تكون له صلة تنظيمية بهذه الجماعات ، ليس هذا عن قناعة فكرية ، بقدر ما هو خوف من أن يلقى فى السجن ، أو كما قال بنفسه عن نفسه والكلام بالنص: الإقرار بأننى متحدث باسم الجماعات الإسلامية يعنى إقرارى بأن هناك رابطة تنظيمية تربطنى بهذه الجماعات ، وهذا يوقعنى تحت طائلة القانون ، فأنا مؤمن بالفكرة الإسلامية ، وابن الحركة الإسلامية ، ولكنى غير تنظيمى .

هذا الاعتراف يؤكد أن الزيات يحاول أن يكون متوازنا ، يمسك العصا من المنتصف ، فهو يجعل من نفسه مجرد محاميا يقوم بدوره القانونى فى الدفاع عن متهمين ، حتى لو كان المتهمون يروعون الآمنين ويقتلون الأبرياء.. ويهدمون نظام الدولة من قواعده ، هذا الدور تعرض لهزة عنيفة خلال الشهور الماضية ، عندما اتهم أيمن الظواهرى قائد تنظيم الجهاد منتصر الزيات بـأنه صاحب علاقة مشبوهة مع الحكومة المصرية ، فهو يخرج ويدخل بلا مشاكل ، يتحدث إلى وسائل الإعلام دون أن يتعرض له أحد ، وفى النهاية وصل الاتهام إلى التلميح بأن الزيات قد يكون عميلاً للحكومة !

الزيات ليس عميلا بالطبع ، ولكنه رجل يسعى خلف رزقه ، وقد وجد رزقه، منذ البداية فى خندق الجماعات الإسلامية ، ولذا فهو طوال تاريخه لم يعارض فكرة طرحتها هذه الجماعات ، ولم ينتقد عملية قاموا بها ، فهو دائما يبارك ويثنى على كل حركة وسكنة تصدر عن الجماعات الإسلامية ، ولذلك تعجبت عندما قرأت تصريحات منتصر الزيات عن كتابه الذى سيرد به على اتهامات "أيمن الظواهرى" ، فالزيات ليس جرئيا إلى هذه الدرجة ، التى يمكن أن يرد بها على الظواهرى . وعندما صدر الكتاب حدث ما توقعت .

الظواهرى اتهم الزيات فى كتابه الأخير "فرسان تحت راية النبى" والزيات قرر أن يرد فى كتاب اختار له عنوان "الظواهرى كما عرفته" ، الظواهرى صنف فى كتابه الناس صنفين ، الأول يقاتل تحت راية النبى ويعمل فى سبيل الله، والثانى لا يستظل بهذه الراية ومنهم بالطبع منتصر الزيات ، فما دام قد ورد اسمه ملتصقا باتهامه بالعمالة ، فهو ليس من فرسان النبى ، فى كتاب منتصر لا نجد ردا للاتهام.. بل نجد إعجابا مفرطا بشخصية الظواهرى وتاريخه .

فأيمن الظواهرى عند منتصر الزيات شخصية غنية بالكاريزما ، ويتسم بصفات طيبة ، وأهم ما فى شخصيته الأخلاق الكريمة ، والرقة فى تصرفاته ، فهو هادئ لا يتكلم حتى يمكن وصف سمته بالانطوائية ، لكن أفكاره مرتبة ، يعرف ماذا يريد تحقيقه ، قليل الكلام ، لكن المستمع إليه يستطيع بسهولة أن يعرف ماذا يريد من حديثه ، لا ينفعل بسرعة ، ولذلك فهو يمتلك قدرة هائلة على اتخاذ القرارات المهمة فى ظروف متغايرة .

ويستند الزيات فى تأكيد احترامه وتقديره للظواهرى ، إلى أن أيمن كانت أمامه فرصة قوية يستطيع من خلالها أن يستخدم وضع أسرته الاجتماعى ، فيما يطمح إليه الناس ، لكنه اختار فكرة ودافع عنها ، وضحى فى سبيلها ، فعل ذلك بتواضع وزهد ، وكانت هذه الصفات سببا مباشرا فى تكريس زعامة أيمن الظواهرى وتأكيد قيادته وسلطانه على قلوب محبيه وأتباعه !

آيات المدح لا تنتهى طوال كتاب منتصر الزيات ، ولأنه وضع الكتاب فى الأساس ليرد على اتهامات الظواهرى ، فقد قدم بعض التلميحات السريعة التى يمكن أن تهز صورة الظواهرى فى عيون محبيه ، يقول الزيات فى الفصل الأول من كتابه الذى منحه عنوان "الارستقرطى أصوليا" فى اعتقادى أن أهم ما كان يؤلم الدكتور أيمن الظواهرى أنه أجبر تحت وطأة التعذيب والإكراه على أن يكون شاهد إثبات ضد زملائه وإخوانه وأعضاء تنظيمه فى القضية التى حوكم فيها عصام القمرى والضباط الآخرين ، حيث أخرج من سجنه فى طره يرتدى الملابس المدنية ، تم اقتياده إلى قاعة المحكمة العسكرية العليا بالجبل الأحمر ، ليشهد ضد الضباط أنهم شكلوا تنظيما داخل القوات المسلحة ، قصدوا من خلاله الإطاحة بنظام الحكم وإقامة حكومة إسلامية بدلا منها !

كان الظواهرى قد قام بالفعل بالإرشاد بعد ضبطه فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٨١ عن مكان اختباء صديقه عصام القمرى ، بل قاد أجهزة الأمن إلى زاوية صغيرة، اعتاد القمرى أن يؤدى الصلاة ويلتقى دوريا فيها بالظواهرى وأفراد تنظيمه .

قصد منتصر الزيات من رواية هذه الواقعة أن يؤلم الظواهرى ، أو كما نقول واحدة بواحدة ، واتهام بالعمالة للحكومة يقابله اتهاما بالإرشاد عن المجاهدين ، وإذا كان الظواهرى أطلق مدفعية الاتهامات على الزيات فإنه فعل ذلك دون دليل، لكن الزيات قدم الاتهام وقدم الدليل.. بالوقائع والتواريخ.. وإذا كان أيمن يرى منتصر عميلا ، فإن منتصر يرى أيمن مرشدا للأمن !

هذا الاتهام الخطير الذى أعلنه الزيات ببساطة ، يعرف المحامى المخضرم أنه يمكن أن يعرضه للمخاطر ، ولذلك حرص أن يقدمه فى ثوب من الأدب الشديد ، كأنه يعتذر لأيمن الظواهرى مقدما عما سيفعله به أو يفشيه عنه من أسرار ، فقد اتهم بالعمالة ولابد أن يرد ، ولأن الموقف حرجا للغاية ، فقد حاول أن يكون مؤدبا مهذبا وغير جارح حتى يمر الأمر بسلام .

لا يجب أن تمر هذه المعركة العابرة بين الزيات والظواهرى مرور الكرام .. بل لابد أن يعلق فى عنقها سؤالا حول حقيقة موقف منتصر الزيات من الجماعات الإسلامية ، هو يدعى أنه مجرد محامى بحق الدفاع الذى يكفله القانون ، فكل متهم يجب أن يجد من يدافع عنه ، لكن هل منتصر الزيات مجرد محام؟ هذا ليس صحيحا بالطبع .

دخل منتصر الزيات السجن ضمن مجموعة "الجماعات الإسلامية والجهاد" وعندما خرج مع بدايات الثمانينيات أصبح محامى الجماعات الإسلامية يرافقهم فى كل صغيرة وكبيرة ، يستميت فى الدفاع عنهم ، لا بوصفه محاميهم.. لكنه كواحد منهم.. وما يؤكد ذلك كثير لا يحصى .

فالزيات يحرص ألا يقول عبارة "الله يرحمه" إذا تحدث عن الرئيس السادات، لأن هناك إجماع من العلماء على أن السادات حاد الله ، وهؤلاء العلماء عند الزيات هم علماء الأمة وليسوا علماء الدولة ، فهو لا يعترف بالعلماء الذين تعينهم الدولة ، فالمفتى عنده مثلا معين من قبل الحاكم ، فكيف يمكن الاحتكام إلى فتواه .

ومنتصر يوافق على كل العمليات التى قامت بها الجماعات الإسلامية بل ويباركها ويبررها ملتمسا لها الأعذار ، فاغتيال رفعت المحجوب فى رأيه كان آية من آيات الله ، بل وصل به الأمر إلى أن ردد فى قاعة المحكمة الآية الكريمة

"وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فيد الجماعات الإسلامية عنده هى يد الله التى تنفذ إراداته وشرعه" !

ولم يستنكر الزيات عمليات العنف التى قامت بها الجماعات الإسلامية ، بل يبرر لهم ذلك ويلتمس لهم فيه الأعذار ، فقتل السياح فى رأيه كان وسيلة للتعبير ، لأن الجماعة الإسلامية لم تجد منفذا تخاطب من خلاله الرأى العام المحلى والعالمى ، لقد أرادت الجماعة الإسلامية أن تقول للدنيا كلها أن هناك إضطهادا يقع على أفرادها ، وأن هناك عراقيلا توضع فى طريق اعتلائها للمنابر لكى تتحدث إلى الشعب ، وأن هناك اعتقالا عشوائيا يحدث ، وأن هناك احتجازا يجرى لنسائهم وذويهم ، وأن هناك تعذيبا يقع على أفرادها فى السجون والمعتقلات ، وأن أحكام القضاء التى تصدر بإخلاء سبيل المعتقلين لا تحترم ، وأن هناك قتلا يحدث للشباب فى الشوارع بزعم مقاومتهم للسلطة .

ولا يمانع منتصر الزيات أن تحطم الجماعات الإسلامية اقتصاد الدولة بالاعتداء على البنوك وإصدار البيانات التى تحذر المستثمرين من إستثمار أموالهم فى مصر ، لأن فى ذلك إضعاف لشوكة الحكومة حتى يثور عليها الناس، لأن الناس إذا لم يجدوا لقمة العيش فسيثورون .

هذه فقط عينة من آراء منتصر الزيات التى تضعه فى خندق واحد مع قادة الجماعات الإسلامية ، فهو يردد هذه الآراء ليس بإعتبارها آراء موكليه ، ولكنها آراءه الخاصة التى يتبناها ويتعصب لها ويدافع عنها ، فتكفير المجتمع والمثقفين واتهامهم بالباطل عنده أمر هين ، فقد قتل فرج فودة فى رأيه لأنه استهتر بالمقدسات الإسلامية وسخر من الشعائر الدينية وله علاقات مشبوهة بأوساط النصارى والغرب لينالوا من الإسلام ، وهو يرى أن نجيب محفوظ يستحق القتل لأن روايته "أولاد حارتنا" فيها خروج عن الدين !

مر على هذه الآراء التى تحدث بها الزيات أكثر من خمس سنوات ، فقد نشرت فى كتاب أعده وائل فوزى عن حوار طويل مع منتصر الزيات ، وقد يقول الزيات إن هذا الكلام مجرد تعليق على أحداث وقعت خلال التسعينيات.. لكننا نؤكد أنها راسخة عند المحامى الذى وهب نفسه للدفاع عن الجماعات الإسلامية ، واعتبر نفسه واحدا منها.. ولا يستطيع أن يرد على إتهاماتهم له إلا بالأدب والاحترام .. فالرجل يريد أن يحافظ على أكل عيشه .

الضمير الحي

13

الضميـر الحـى

لم يكن إبراهيم منصور يكف عن الضحك من قلبه والتفاؤل والحديث عن الحرية ، تجلس إليه فلا تريد أن تفارقه ، تسمع كلامه فلا تمل منه ، تنظر إلى وجهه فتجد هذا الوطن بانتصاراته وانكساراته ساكناً فى ملامحه لا يرغب أن يبرحها .

يعرف المثقفون المصريون على اختلاف أجيالهم إبراهيم منصور ، يضعونه فى مكانة خاصة لا يستطيع أحد أن يقترب منه بالغمز أو اللمز كما يحدث مع مثقفين آخرين ، يجرجرون إلى جلسات النميمة وتقطيع الفروة . بعد أن تراجعوا عن مواقفهم واختاروا الراحة بديلا عن الثبات على المبادئ الذى لا يجلى سوى وجع القلب .

فرض إبراهيم منصور نفسه على الساحة السياسية والثقافية خلال الفترة الأخيرة من حياته بقوة ، عندما قرر بدافع وطنى وإنسانى أن يذهب إلى نقابة المحامين مع عدد كبير من المثقفين ويعلن من هناك إضرابه عن الطعام ، كان له هدف واحد.. الموت احتجاجا أو طرد السفير الإسرائيلى من أرض مصر التى دنست طويلا بوجود جزء من الكيان الصهيونى عليها .

كان سؤال جيلى الذى ولد فى منتصف السبعينيات ولا يعرف إبراهيم منصور جيدا ، من هو هذا الرجل الكبير الذى يحمل على كتفيه سبعين عاما

ويقرر أن يجوع حتى يطرد السفير الإسرائيلي ، وهل مازال لدينا في مصر في زمن لا يعرف سوى البلادة رجال مثله ؟

لا يهتم إبراهيم منصور بالحديث عن حياته ، فليس مهما من هو.. ولا ما هي المحطات المهمة في مسيرته ، فالمهم هو ما يفعله الآن.. وما يضيفه لتاريخه بإصراره على المقاومة حتى آخر نفس.. وبقدرته على بعث الروح في جذور المثقفين الذابلة التي اطمأنت طويلا للصمت.. واستراحت طويلا على كتف التراخي !

اعتاد المثقفون أن يظهر إبراهيم منصور في الوقت المناسب ، فبعد هزيمة ١٩٦٧ ، قاد حركة رفض الإنكسار وآثاره ، أيامها أصر على إصدار مجلة منحها اسم "جاليري ٦٨" وكانت في جانب منها مقاومة للهزيمة ، استطاع إبراهيم بها أن يوحد الصف الوطني ، رحب بها الجميع ودعموها .. لم تتضمن هجوما على أحد.. ولكنها كانت تسعى للخروج من نفق الانهيار المظلم ، كانت "جاليري ٦٨" ترجمة صادقة لتقدم إبراهيم منصور لمظاهرات ١٩٦٨ التي خرجت تحتج وتطالب بعقاب الذين أضاعونا بلا ثمن .

وفي عام ١٩٨٢ عندما اختلط الحابل بالنابل، وبدأت هوية المصريين في التآكل ، حاول إبراهيم منصور أن يمسك بكل الخيوط المتاحة ، فبدأ في تأليف كتاب "الأزدواج الحضاري" . طاف في شوارع وحواري مصر.. تعرف على الناس من مختلف الطبقات.. جمع الخرائط والكتب.. وجلس يكتب.. عن الأزدواج الثقافي الذي هو نقطة ضعف في الجبهة الثقافية المصرية التي يمكن أن تنفذ منها التأثيرات الأجنبية.. صدر الكتاب في بيروت ونشره صلاح عيسى على حلقات في الصحف العربية من خلال الوكالة الصحفية التي كان يشرف عليها .

وعندما قامت انتفاضة الأقصى ، وخرج الطلبة غاضبين يمزقون أشرعة الصمت ، وعبر رجل الشارع عن غضبه.. وغاب صوت المثقفين إلا قليلا ، كان لابد أن يظهر إبراهيم منصور ليحفظ ماء وجه المثقفين ، حمل أمتعته وذهب إلى نقابة المحامين ليعلن إضرابه عن الطعام متحديا المخاطر ورافضا التعليقات المثبطة من عينة أن قرار رجل فى السبعين من عمره بالإضراب عن الطعام أمر لا معنى له إلا أن يموت.. والتعليق مسجل باسم.. رئيس تحرير جريدة القاهرة .

لم يغضب إبراهيم منصور من كل المثقفين الذين دعاهم بنفسه للتضامن والمشاركة فى الإضراب ورفضوا . فلكل واحد منهم ظروفه وهمومه وأسبابه الخاصة ، التى لا يحب الخوض فيها ، لكنه بدا لى عندما التقيت به رافضا لوصفه بأنه منطقة حرة فى زمان ليس كذلك - والوصف مسجل أيضا باسم رئيس تحرير القاهرة - فقد وصل للرجل الكبير أن رئيس تحرير جريدة القاهرة يريد أن يقول ببساطة إن المضربين فى نقابة المحامين مجموعة من الصيع.. الذين يعيشون فى زمن غير زمانهم.. ولذلك فلا فائدة من الإضراب والاعتصام والاحتجاج.. وكفى الله المؤمنين شر القتال.. ولا حرمهم من خيره .

إنقاذ إبراهيم منصور لجبهة المثقفين.. ومحاولته لتلميع وجهها الذى علاه الغبار فى السنوات الأخيرة كان فرصة ليعلن عن وجهة نظره التى لم تتغير والتى يحملها معه منذ شبابه ويلح عليها فى جلساته فى بيوت أصدقائه ومقاهى وسط البلد والندوات التى يحضرها وظلت معه حتى مات.. فالمثقف عند إبراهيم منصور كائن مستقل.. عنده إمكانية الاستقلال.. وعندما يفقد المثقف استقلاله يفقد منفعته.. ويتحول ببساطة إلى بوق.. مجرد بوق !

ورغم أن إبراهيم منصور لا يقبل نقاشا فى فكرة استقلالية المثقف.. لكنه يتفهم أحيانا دوافع بعض المثقفين الذين يلقون بأنفسهم فى أحضان السلطة..

فبعضهم عنده حاجة مادية.. وبعضهم عنده حاجة نفسية ، ما يشعر نحوه إبراهيم منصور بالأسف أن هناك نموذجا من المثقفين كان خبرة وطاقة وموهبة.. ولم تكن لديه تطلعات مادية.. لم يبحث عن الأموال أبدا.. لكنه انضم إلى وزير الثقافة الذى أعلن صحيته الشهيرة ذات يوم بأنه استطاع أن يدخل المثقفين حظيرته.

كانت النتيجة الطبيعية أن تفقد كتابة هذا النموذج روحها ورونقها وروعتها.. لأنه لم يعمل حتى لحساب وزارة الثقافة.. ولكن عمل لحساب الوزير.. مع أنه كان يستطيع بعمله المستقل أن يحصل على دخل أكبر بكثير مما يدخل جيبه وهو يعمل عند الوزير .

غضبة إبراهيم منصور لم تقف عند حدود الذين سخروا من الإضراب واعتبروه عملا نضاليا فى زمن ليس كذلك.. ولكنها وصلت إلى القناة الثقافية التى يجلس على بابها جمال الشاعر.. عندما قلت له هل اهتمت القناة الثقافية بإضرابكم عن الطعام؟ هل نقلت أخباركم ومنحتكم مساحة لتوصلوا رسالتكم إلى العالم؟ سبقنى الرجل الكبير بضحكته المجلجلة وقال: يا راجل والله فكرتنى إن فيه حاجة اسمها القناة الثقافية !

أنهى إبراهيم منصور ورفاقه إضرابهم عن الطعام وخرجوا من حديقة النقابة دون أن يطرد السفير الإسرائيلى ، لكنه أثبت موقفا دافع به عنا جميعا ، وعندما خرج كان على ثقة - كما يقول - من أن الأوضاع التى تحاصرنا الآن لن تبقى طويلا ، فالتغيير قادم.. قادم.. ولعل أمريكا تسارع بالتدخل لتغيير الأنظمة العربية قبل أن تمتد أيدى الشعوب إلى أعناقها وتغيرها.. حتى تضمن أن الأنظمة القادمة ستكون موالية أيضا .

لا يعول الرجل الكبير على المثقفين كثيرا.. فهم فى النهاية ورق وحبر بلا قيمة ، لأن ما يكتبونه يفتقد الصدق .. ولا يعول كذلك على الحركات الإسلامية

التى كانت حتى وقت قريب - وقبل أن توجه لها ضربات عنيفة متتالية - المعارضة الحقيقية الموجودة ، فالإخوان الآن يرفضون الصدام مع الحكومة وبينهم ناس كبار فى السن.. وبينهم أغنياء يخافون على مصالحهم.. ولذا فلا ننتظر منهم شيئاً .

الناصريون أيضا يعيشون فى مأزق يرصده منصور جيدا.. فهم مشتتون.. كل واحد منهم عايز يعمل حزب.. هذا رغم أن عبد الناصر الذى يعملون تحت رايته كان يصون كرامة البلد.. صحيح كانت فيه أخطاء مثل تكسير بعض الناس.. وقد دخل إبراهيم منصور سجون عبد الناصر ، لكنه مع ذلك يحترم عبد الناصر جدا .. فهو عنده أحد الزعماء المهمين جدا فى تاريخ مصر .

لا يبقى أمام الرجل الكبير الذى اختبر الحياة واختبرته الدنيا ، إلا جيل الشباب الذى هب ساخطا وباعثا للحياة فى شرايين مصر.. فقد استطاعوا أن يهزوا مصر بمظاهراتهم وهتافاتهم.. وما فعلوه لا يختلف كثيرا عن مظاهرات ٥٤ التى شارك إبراهيم منصور فيها أيام الجامعة.. ولا مظاهرات ٦٨ التى لعب فيها دورا مهما ومؤثرا.. ولذلك فالتغيير معقود عليهم .

ليس غريبا بعد ذلك أن يهتم إبراهيم منصور بالتواصل مع الأجيال الشابة ، كان يفضل الجلوس إليهم والحديث معهم ، ليشعر بأن الحياة مستمرة ومتدفقة.. فهم الأمل القادم.. لقد مرت عليه سنوات طويلة.. عرف بشرا بعدد أيام عمره.. إحتفظ بصداقة عدد كبير منهم.. وأسقط آخرين من حساباته لأنهم سقطوا.. ولم يقبض بعضهم ثمن سقوطه .

لا يدخل إبراهيم منصور دنيا المثقفين فى مصر من باب أنه كاتب ، فله كتاب واحد منشور بالفعل هو "الأزدواج الحضارى".. حاول رئيس تحرير القاهرة أن يصادره منه ويؤكد أنه لم يصدر .. ولم يدخل من باب أنه كاتب قصة.. فله قصة واحدة عنوانها "اليوم ٢٤ ساعة" ولكنه يدخل من باب أنه ضمير المثقفين الحى

الذى يوقظهم ويقلق راحتهم إذا شعر منهم بالتراجع.. يضعهم فى مأزق عندما يتقدم صفوفهم ويطالبهم بالعمل.. لا تأتى النتائج دائما كما يتمناها إبراهيم منصور.. لكنه لا ييأس أبدا حتى عندما تصادفه الحياة بأوجاعها.. يطلق ضحكته المجلجلة.. ويهز كتفيه ويمضى ساخرا .

14

الهروب من الدير

الهـروب من الديـر

عندما دخل فائق زكا بولس أحد أديرة وادى النطرون ليترهبن كان قلبه عامراً باليقين بأن الدير هو العالم ، وعندما خرج بعد أحد عشر عاماً قضاها هناك كان فى قلبه جرح عميق وفى نفسه ألم لا يوصف.. وفى عقله شكوك لا حد لها.. بين نقطة البداية ونقطة النهاية ، بين لحظة دخول الدير ولحظة الخروج منه جلس فائق أو جوارجى المقارى - اسمه أيام الرهبنة - ليسجل اعترافاته الكاملة عما رأى فى الدير.. لم نتدخل.. فقط جلسنا نسمع لاعترافات رجل دخل الرهبنة باختياره وتركها باختياره أيضاً .

يقول فائق:

"ملاحظة.. هذه آخر مرة نقول فيها: يقول فائق.. فالكلام القادم كله على لسانه وحده"..

هل كانت الرهبنة بالنسبة لى مأساة ؟ نعم.. كانت مأساة بكل معانى الكلمة .

لقد كان حبى لمصر فوق كل تصور ، فإن حبى للوطن حبى للحياة نفسها ، أذكر عندما كنت فى الجيش أتمنى من أعماقى أن أستشهد فى سبيل مصر ، كنت أشعر بحبى لمصر يأكل قلبى للدرجة التى كانت تسيل فيها دموعى ، نعم كنت مصريا ، هكذا تربيت وتلقيت تعليمى حتى الجامعة .

أنهيت الخدمة الوطنية بتاريخ ١٩٨١/٧/١ ، ومن الجيش خرجت إلى الدير لتأدية الخدمة الدينية ، هذه الخدمة التى أقدسها منذ الطفولة والتى انتظرت أن أنهى تعليمى وخدمتى الوطنية لأتفرغ لها بل لأكرس كل حياتى لها حتى آخر لحظة من عمرى .

ذهبت إلى الدير لأقابل آبائى الروحيين وأب الآباء الروحيين ، وهناك تلقيت تعليمى الجديد ودروس الأبدية "الخاصة بالحياة الأبدية بعد الموت" كنت أتلقى تعليمى على يد معلمين أكفاء ، وكنت من أبرع الطلاب وأذكاهم وأدقهم ، حفظت الدروس عن ظهر قلب وطبقتها حرفياً .

كان التعليم الأول للمبتدئين ينص على نسيان العالم الذى تركناه بكل ما فيه ومن فيه ، ننسى الأم والأب والأخت الحنون والأخ الصديق والصديق الأقرب من الأخ ، كنت أحب أصدقائى مثل نفسى ، ننسى المدرسة ، ننسى النيل بجماله الربانى الخالص ، ننسى كل شىء وحتى أنفسنا ، وبتعبير دقيق نذيب أنفسنا خدمة لله والدير ، ندع وطننا لندخل الوطن الجديد ، والحق يقال إنها لم تكن خدمة لله ، بل ذابت أنفسنا خدمة لهم ، لأولئك المعلمين الروحيين .

علمونا أن وفاءنا للوطن وولاءنا له لابد أن يتحول جملة وتفصيلاً إلى وفاء للدير وولاء له ، علمونا أن حب الدير وخدمته وخدمة من فيه ، هو الحب خلف أسوار الدير ، وأى اتصال أو حب للعالم "خارج الأسوار" هو اتصال وحب سيدمر حياة الرهبنة للراهب فيخسر الحياة الأبدية التى هى كل هدفه وسعيه .

وقد حدث بالفعل أن قدسنا الدير ورهبانه وترابه وقوانينه ، واستبدلناه بالوطن، فهم يقطعون الراهب عن العالم بكل القواطع والسدود ، فلا تصل الجرائد فهى حرام ، وعيب خطير أن يقرأ الراهب مجلة أياً كان نوعها ، وغير مسموح بسماع المذياع مهما كانت الظروف.. حتى لو كانت هذه الظروف هى الحرب ، أما التليفزيون فلا يدخل الدير بالمرة ، ولا يسمح للراهب بمقابلة أصدقائه القدامى الذين يحضرون إلى الدير خصيصاً لرؤيته ، إلا لو كان الدير سيستفيد منهم فيسمح الراهب بمقابلتهم ، بل والأكثر يفضل فى الدير عدم مقابلة الأهل : لأنه وكما علمونا أن الحنين للأهل يجر الراهب إلى الخلف ويتملك الحنين من قلبه وتفكيره فلا يستطيع العبادة أو التفكير فى الله ولكن كيف يجردوننا من المشاعر الإنسانية والمسيح نفسه مثلهم ومثلنا الأعلى غير مجرد منها .

قبل دخولى الدير.. كنت متديناً جداً أتوق للحياة الدائمة مع الله ، وحين كنا طلاباً بالجامعة كان لنا صديق بالمدينة الجامعية يتردد على الأديرة ويعرف الرهبان ويأتى لحجرتنا ليقص علينا بعضاً من الطرائف التى حدثت له مع الرهبان ، ويفيض فى وصف عطفهم ووداعتهم وتسامحهم .وكم هى عظيمة أعمالهم وكم هم قادرون على الحياة مع الله بلا زاد دنيوى ، كان قلبى يضطرم بكلماته ناراً لرؤياهم ويصطلى شوقاً للتعرف عليهم ، فقد كان للرهبنة بريق خاص لا يعادله أى بريق فى الحياة كلها .

وفى العطلة الصيفية كنت أقضى كل وقتى فى الدير أعمل بلا أجر ، يقابلنى الرهبان ببشاشة ويعاملوننى بلطف كبير ومودة غير عادية ، ولذا كنت أحرص على أن أكون بالدير فى اليوم التالى لليوم الذى أجتاز فيه امتحان أخر مادة .

وحينما كنت أغادر الدير إلى الجامعة كنت أغتم جداً وأحس بالأسى والحزن لفراق الرهبان والمكان الذى أحبه ، لم أكن أودعهم خوفاً من ضعفى ودموعى التى كانت تسبقنى أمامهم ، ولكن الحال تبدل كثيراً حينما ذهبت إلى الرهبنة ، فقد تصادمت بعد أيام قليلة بأحد المسئولين عن اختيار المتقدمين للرهبنة ، كان الخلاف بسبب سؤال بسيط منى هو "لماذا لا تقبلون للرهبنة إلا المؤهلات العليا؟" وما إن خرجت الألف الأخيرة للعليا من فمى حتى أنفجر الأب غاضباً صائحاً ملوحاً مهدداً "أنت لك أفكار غريبة!!" واتجاهات مشكوك فيها ، أنت لا تصلح للرهبنة فى ديرنا ابحث لك عن دير آخر" .

أدركت لحظتها أن لى أفكاراً وللدير أفكار لخرى ، صدمت من رد فعل الأب ومن طريقته واستبداده مما جعلنى أكتب للأب الروحى وأعلن له عن بعض أفكارى وكانت هذه بعضها ومن واقع ما كتبت : "إننى قدمت للرهبنة للعشرة مع الله وبدافع الحب الذى أحسه فى قلبى لجلاله ، وأنا لا أطمع فى شيء من وراء الرهبنة ، لا فى زيها ولا فى كرامتها ، ولو وقفت الرهبنة عند حد الزى والكرامة لصارت كريهة فى عينى" .

اعتبر الأب الروحى هذا الأسلوب خروجاً عن الأدب فى مخاطبته فشكانى لكل من قابله ، جعلنى هذا أشك فى نفسى.. هل أنا على حق أم أخطأت فى حق الرهبنة والأب الروحى ، جفت معاملة الرهبان معى وتحولت بشاشتهم إلى عبوس، وأدركت أنى مرفوض من الجميع .

وقبل أن يستقر بى الحال سمعت أن صديق المدينة الجامعية بعد التخرج ذهب للالتحاق بأحد أديرة البحر الأحمر ، وفى فترة الاختبار ألحقوه بالمطبخ ، وذات يوم انفجرت فيه أنبوبة بوتاجاز صغيرة ، فاشتعلت النار فيه ولفوه بالأقطان ، وكان جلده يتساقط وبعد ثلاثة أيام توفى متأثراً بجراحه .

كان هذا الحادث تدبيراً من الله ليقصر أيامه وسنينه فى الرهبنة ، ارتاح صديقى فقد أشفق عليه الله من الويلات التى كان سيلقاها ، أتته النيران دفعة واحدة فاستراح.. لكنى كنت أحترق بالنار كل يوم ، مات صديقى دفعة واحدة ولكن الموت الأسود البطئ كان يلتهم أعضائى ونفسى وروحى كل حين .

وظللت أصارع نفسى.. كنت أقول لها.. يالى من بائس ليتنى خرجت بعد صدامى معهم أو يا ليتهم طردونى ، ولو كان للأيام أن تعود للوراء لتركت لهم الدير هارباً عارياً حتى من ملابسى ، ولأدميت قدمى ومزقتها حتى لا تخطو خطوة تجاه الدير ، بل لمزقت قلبى حتى لا يحب ولا يفكر فى الرهبنة .

ومع أنى كنت أحب الرهبنة وأعشقها ، ولكنى خُدعت..

"فديرنا كان يشبه عذراء جميلة جداً.. ينم منظرها عن العفة والقداسة ، سألت عنها فوجدت جيرانها يمدحونها ، وأهلها يحملونها ، فالتهبت شوقاً للاقتران بها وتزوجتها ، وكانت المفاجأة أنها امرأة فاجرة عاهرة سرعان ما تحولت إلى أخطبوط يلف أذرعه حول عنقى ويشل حركتى فلم أستطيع حتى الصراخ.. وأخيراً التهمنى التهاماً" .

ورغم أهوال ما رأيت ..

لكنى ظللت على أفكارى.. فقد كنت محقاً فى سؤالى عن مؤهلات الراهب فعلم الله ونعمته لا تتوقف على نوع واحد من شهادة الدراسة ، فمؤسس الرهبنة أنبا أنطونيوس وكبير وعظيم الرهبنة أنبا مقاريوس ومعظم - إن لم يكن جميع -

الرهبان فى الجيل الأول "القرن الرابع" كانوا أميين لا يعرفون حتى مجرد القراءة والكتابة .

تبدلت معاملة الرهبان معى كثيراً.. وكان سؤالى بداية أيام الصدام ، وعندما كنت تحت الاختبار تحدث إلى راهب مرتين وذكر أشياء سيئة عما يحدث فى الدير ، كان يبادرنى بقوله سوف تفهم كل شيء حينما تدخل المعمعة.. وكان السؤال الذى يقتحم رأسى هو.. هل فى الدير معمعة؟! لم يجبنى أحد على السؤال فقد أجابتنى الأحداث والأفعال .

كُلفت بالإشراف على العمل بالمخبز وأنا تحت الاختبار ، تعلمت العجين والخميرة والخبيز وكل شيء ، صرت خبازاً ، وتوليت مسئولية إدارة المخبز وتوزيع الخبز.. كان العمل بالمخبز مرهقاً شاقاً يبدأ فى السادسة والنصف صباحاً وينتهى فى التاسعة أو العاشرة مساء بالنسبة للعمال ، أما بالنسبة لى فكثيراً ما كان يمتد إلى الواحدة أو الثانية صباحاً .

بعد فترة عُين الأب "م" رئيساً مباشراً لى ، ومسئولا عن المخبز والمطبخ والمائدة ومخازن التموين ، وجمع الإخوة تحت الاختبار ، وقال لنا إن الأب الروحى اختارنى بالذات كى أكون وسيطا بينكم وبينه لطول السنين التى قضيناها معاً.. ونقل ما قاله الأب الروحى "سلموا الإخوة ما سلمتكم إياه" والتسليم فى الأديرة يعنى التعليم ، تعليم أى شيء وكل شيء .

كان الأب "م" مهندساً كيميائيا كما سمعت ، ضخم الجسم فارع الطول عريض المنكبين تبرز بطنه فى شبه نصف بطيخة كبيرة "وعلى فكرة عيب كبير فى الرهبنة أن يكون للراهب كرش" يتحرك فتهتز دهونه ، لونه أحمر ، ذا رأس كبيرة ومستدير ولحيته تميل للاصفرار ، له شارب طويل يغطى شفته السفلى ، وأما حواجبه فكانت لا تثبت لحظة فى مكانها فهى تتراقص وتلعب على نغمة كلامه ، إذا تحدث ينحى ويستقيم ويرفع ذراعية تارة ويخفضهما أخرى ، ويجسد معانى ألفاظه بأصابعه ، يوسع عينيه ، ويضيقهما وأحياناً يغمضهما ، يتحدث بسرعة ويتوقف لحظات ليعود ويسترسل ، كان ممثلاً.. "كان الأب" "م" كالمرأة

اللعوب.. يفيض لسانه بالأمثال الشعبية.. وكان الأحرى به أن يستشهد بآيات من الإنجيل أو أقوال الآباء القدامى أو بستان الرهبان" .

كان حساساً لكرامته غاية الحساسية ، فعنده أن تكفر بالله ولا تجرح كرامته ولو بشعرة ولو من غير قصد ، فالدم ينط من وجهه والشرار يتطاير من عينيه ، ولسانه ينهمر كالهراوة الثقيلة على رأسك وذراعيك وساقيك ، فلا تدرى من أين ولا كيف تتحاشى الضربات ، كان متكبراً متعجرفاً يدعى المعرفة وهو أجهل من دابة خاصة فى الشئون الروحية فقد كان الرجل أجوف لا قراءة ولا صلاة ، ورغم ذلك فكثيراً ما كان ينصحنا بالتواضع وإنكار الذات بدعوى أن الذات والكرامة هى العدو الأول للحياة الروحية !! .

وعندما حل موسم الصلصة "معجون الطماطم" حلت بى جميع الويلات ، وأضيف إلى عملى أعمال الإشراف على العمال الذى كان يصل عددهم ثمانية ، يقومون بفرز وعصر الطماطم نهاراً ، وما يتبع ذلك من التفريغ والنظافة وإطعام العمال ، وتجفيف هذا العصير ليلاً بعد الساعة التاسعة مساءً حتى الثانية صباحاً .

فى هذه الفترة كان الأب "م" يتفرغ لى تماما كانت أيام سوداء سيئة فى حياتى، حجم العمل كان هائلاً فقد كانت المساحة المزروعة بالطماطم سبعين فداناً "يباع منها ما يباع والباقى صلصة" .

وبين يوم وليلة زاد إرهاقى فى موسم الصلصة فقد كنت ما أزال أعمل فى المخبز وحتى العمال الذين كان يرسلهم الأب لمعاونتى كانوا قله وصغاراً . الأمر الذى جعلنى أعجن بنفسى وأقف أمام النار للخبيز طوال اليوم وأساعدهم فى حمل أجولة الدقيق وكنس وتنظيف المخبز ، ولم يكن دافعى الأمانة "لعن الله الأمانة التى على طريقتهم" بل خوفاً من عدم إنجاز العمل اليومى ثم عطفى على العمال الذين كنت أحبهم من كل قلبى .

كان النعاس والإرهاق يغلبانى فأنام وأنا جالس فى انتظار جفاف بخار الماء من صوانى الصلصة الموضوعة داخل الفرن ، فاحترقت اثنتان منها ، ووقعت تحت أنياب الأب "م" زمجر واتسعت عيناه وصاح بى فى عنف ، وإذا أقابل

صياحه بصياح أشد وأعلى دون أن أدرى ما الذى دفعنى لذلك .. فقد كانت نفسى مشحونة وصرخت فيه .

"تلومنى لأجل ما احترق.. ونحن نلقى عشرات الكيلوات فى الزبالة كل يوم.. أنا لم أنم منذ بداية هذا العمل سوى ساعتين أو ثلاث يومياً.. ألست أمام عينيك أسهر حتى الثانية صباحاً وأدق جرس الكنسية فى الثالثة وأذهب للكنيسة فى الرابعة وأخرج منها للعمل فى السادسة والنصف حتى الثانية صباح اليوم التالى.. ألا يشفع لى كل هذا العمل والإنتاج وهل المطلوب منى أن أعمل وأنتج دون أن أخطئ ولو مرة واحدة ؟! .

كانت المرة الأولى التى أصيح فيها فى وجه راهب يكبرنى ، وهذه جريمة فى الرهبنة ، أما صياحه هو فيعتبر تعليماً وتهذيباً ، وكان علىّ أن أعترف بجريمتى لأب الاعتراف ، وأحياناً يكون أب الاعتراف غير الأب الروحى ويكون بتكليف منه.. وإن كان يمكن اللجوء للأب الروحى بالرغم من وجود أب اعتراف.

كان الأب الروحى يدرك تمام الإدراك أن الأب "م" خاو وليس لديه شيء يسلمه ولكنه وضعه ليكون عيناً على ليراقب سلوكى لحظة بلحظة ، فما دمت صاحب فكر فلابد من تشديد الرقابة على ، وعليه فقد كان الأب "م" يعتبر نفسه من مجلس قيادة الثورة.. فهو مركز قوة وعليه أن يحافظ على الثورة ومبادئها بكل الطرق مشروعة وغير مشروعة .

كنت أسأل نفسى: وهل فى الدير عيون؟! .

وكنت أقول: ليس ذلك غريباً فكل سلطة لها عيون تعمل لحسابها ، وها هو الأب الروحى يحكم ويتسلط ويخاف كل الخوف أن تمس سلطته ولو بشعرة أو أن يهتز كرسى عرشه بفكر غير فكره .

2- خرج فائق زكا بولس الراهب المصرى الذى قضى فى أحد أديرة وادى النطرون أحد عشر عاما وهو يحمل فيضاً من الذكريات عن رهبان وآباء الدير الذين عاش معهم.. لكن للأسف كانت ذكرياته كلها سيئة.. قد تكون للأهوال التى

رآها الرجل أيام رهبنته دور فى وصف الرهبان بكل الشرور التى خلقها الله.. لكنه يتحدث عن نماذج لرهبان وأفعال لآباء لا نستطيع أن نكذب.. كلامه عنهم.. لأنه - كما يقول - رأى بعينيه.. وعليه وحده الدفاع عما اعترف به.. يقول فائق:

اتصل بى من المزرعة الأب المسئول عن المطبخ فلديه عجز فى الخبز ويريد كمية منه ، كما أننى أريد تسوية أمر ما معه ، وخارج المخبز وجدت الأب "م" يدير السيارة التى أعطاه إياها الدير وقال لى: سوف أذهب للمزرعة وأعود مباشرة ، فقلت: هذا ما أطلب ، وأثناء الذهاب معه "المزرعة تبعد عن الدير ١,٥ كيلو متر" نشبت بيننا معركة كلامية ، وقبل نزولى من سيارته قال لى: ابحث لك عن سيارة أخرى فأنا لن أعود الآن ، جن جنونى فأنا لا أستطيع الغياب عن المخبز كثيرا وخاصة أن نيرانه تشتعل ، والأولاد صغار بالأضافة إلى ماكينة العجين الخطيرة ، فهى من النوع القديم المكشوف والأب "م" يعلم كل هذا ونزلت من السيارة ساعتها كنت أتمنى لو أزحت السيارة وسائقها إلى الجحيم .

أغلقت الباب خلفى بغضب.. وسألت نفسى ماذا أفعل هنا؟ . لكنى لم أكن أجد إجابة مقنعة عن سؤالى .

كنا نخشى نحن الأخوة الاختبار يوم السبت ، فهو اليوم المخصص للاعتراف. ويا ويلنا من أب الاعتراف ، كان طويلاً ذا ذقن نحيفة تميل للبياض ، وبالرغم من كبر سنه إلا أن وجهه كان يلمع وكأنه يدهنه كل صباح بزيت عباد الشمس ، كان الرجل يعتبر من أكبر الشخصيات المهمة والمسئولة فى الدير ، وكان ذا طبع حاد عنيف ، يستطيع أن يبكتك ساعة كاملة على هفوة بقصص وحكايات لا تنتهى ، كان متزمتا شديدا جافا فى معاملته وأقواله إلى الحد الذى كرهنا فيه الحياة الرهبانية ، وذات مرة قلت له صراحة :

"يا أبونا.. كانت الحياة الروحية ونحن فى العالم أسهل بكثير منها هنا كانت المحبة والود صبغة علاقتنا ببعض وبالكنيسة وبأب الاعتراف.. "

لم يرد ، فقط ظل يحدثنا عن حب الله لنا ، ألم يمت المسيح ويبذل نفسه من أجلنا ، ألم يكن المسيح متجاوزاً عن خطايانا وغافرها لنا حتى ولو تكررت.. ووجدتنى أقول له مرة ثانية :

"إننى يا أبونا لم أسمع منك كلمة رحمة الله.. أين الرحمة ، إن كل التعاليم تنحصر فى الجهاد الروحى والنسك الزائد وإماتة الذات.. وإنه بكثرة عذابنا وآلامنا فى الأرض يكبر نصيبنا فى السماء.. ألستم أنتم القائلون إن المسيح صلب كى يظل فاتحا ذراعيه ليقبل جميع الخطاة والآثمين؟" .

تغيرت ملامحه وأصبح لينا بعض الشيء.. لكنه فى المرات التالية كان أشد عنفا.. لقد عرفت الحقيقية كاملة..

"فمسيح العالم غير مسيح الدير ، الأول رقيق جدا ستر على خطايا وعيوب الكثيرين ، لم يفضح الزانية التى أمسكت فى ذات الفعل ، ولم يحكم عليها ، بل لكى يخلصها من الذين حكموا عليها وأرادوا قتلها قال لهم فقط أول من يرجمها بحجر لابد أن يكون بلا خطيئة" .

كنت أعلم مسبقاً ما سيكون فى جلسة الاعتراف بعد تصرفاتى ، فقد كان أب الاعتراف عنيفا قال لى: أنت تحتاج تغييراً.. أنت عنيف وطبيعتك قاسية.. إذا كانت هذه الأعمال تصدر منك وأنت مازلت أخا تحت الأختبار فماذا بعد الترهبن "سوف تنط فى بطن الرهبان".. هكذا قالها..

وللأسف الشديد اقتنعت بكلامه.. رغم أننى لم أكن قاسيا أبداً فى العالم ، بل كنت محبوبا غاية الحب.. وطيباً غاية الطيبة ، كنت حساسا رقيقا لا يهدأ لى بال إذا أحسست أنى أسأت لإنسان ما.. ولكن الدير كانت له خطط جهنمية لتحويل مسار الإنسان ، فتحت هول ما رأيت من الضغط الهائل من الأعمال والمصادمات لا أستطيع أن أكون حليما أو وديعا أو أضبط غضبى ، وبالفعل أقنعونى أننى غير صالح للرهبنة .

وهكذا كانوا يفعلون مع بقية الرهبان ، فإذا اشتكى راهب أو قل نومه أو تذمر أو صاح أو هاج أقنعوه بأنه مريض نفسيا ، ولابد من علاجه ، ويأتى الكتور"ر" من حلوان بهمه ليكتب له المهدئات فيعتادها الراهب ويدمنها ، وبعدها يجرونه ويسرقوه كيفما شاءوا.. ولا يستطيع هو الفكاك منهم فمن سيعطيه هذه الأدوية إن ترك الدير ، وكيف سيواجهه العالم بنفسيه مريضة ، ويظل عبدا ذليلا للدير طوال حياته . فلا يتركه الدير إلا جثة جفت دماؤها وتحولت عظامها إلى رماد .

لن أكون مبالغا إذا قلت إن أكبر نسبة مرضى نفسيين فى أى مجتمع فى العالم هى فى الأديرة ، فبينما تبلغ هذه النسبة فى المجتمعات العادية ٢ أو ٣% تبلغ فى ديرنا ٢٠% أى خمس رهبان على الأقل .

كان عمرى خمسة وعشرين عاما عندما التحقت بالدير ، وكان عدد السنوات التى قضاها أب الاعتراف فى الرهبنة ثلاثين عاما ، أى كان راهبا قبل ولادتى بخمس سنوات ، وحينما كنا نتردد أثناء دراستنا الجامعية على الدير ، كان الرهبان يشيدون بهذا الراهب الذى كان متوحدا حينذاك .

كنا نتوق لرؤيته وفى العام التالى سمعنا أن هذا الراهب ترك الوحدة فسألت عنه أنا ورفاقى فقد كان نزوله خيبه لنا ، فأجاب الذين أشادوا بوحدته بإشادة أكبر لتركه الوحدة.. قالوا لقد رأى أن العمل ثقيل على الرهبان فترك عليه التجلى لكى يشارك إخوته أتعابهم وآلامهم وضحى بلذته وسعادته الروحية كى يخلط عرقه بعرقهم ودمهم بدمائهم .

وقد يرى البعض أن ما يحدث فى الدير شيء عظيم .. فكل عرق مبذول هو زيادة فى الإنتاج ، وكل يد يتم تشغيلها تقلص حجم البطالة.. وبذلك يعم الخير أبناء الوطن ، فقد بلغت كميات البطيخ التى تم تسويقها يوميا إلى مائة طن ، وطرح هذه الكمية يوميا كان يخفض الأسعار ولو بكسر عشرى صغير جدا ، وما يحدث مع البطيخ يحدث فى البيض وفى الألبان والفواكه.. أما فى الزيتون فكان إنتاج الدير من أكبر ما يمكن ، وفى مجال الأبحاث العلمية الزراعية مثلا فالدير كان أول من زرع الزيتون من الفروع وليس من الجذور بعد تغطية رأس العقلة بالشمع لتقليل النتح ومعالجة أسفلها بالهرمونات لإخراج شعيرات جذرية ، والدير زرع عقل العنب ، فكانت نسبة النجاح أكثر من ٩٠ % ومركز البحوث كانت علاقته بالدير قوية جدا ، فقد تمت زراعة الكركديه والزعتر والكمون والشمر لاستخراج الأدوية .

كما تمت زراعة البطاطس والقمح والقطن فى الأرض الصفراء ، وكانت النتائج مذهلة ، فقد استطاعت الأرض الصفراء بالجهد والعناية والأمانة أن تقدم

محصولا أكثر من المقدم من الأرض السوداء على ضفاف النيل ، وقد حضر وزير الزراعة يوسف والى إلى الدير أكثر من مرة وصافحنا هناك..

أما فى الإنتاج الحيوانى ، فلدى الدير حوالى ألف رأس من الأبقار وستمائة رأس من الأغنام ، وأول حلابة آلية دخلت مصر كانت لديرنا.. والأعظم من هذا عمليات نقل الأجنة فلم تكن ناجحة على مستوى الشرق الأوسط إلا فى ديرنا ، والمفاجأة أن كل هذه الأعمال كان يقوم بها مائة راهب فقط .

كل هذا عظيم ورائع .

ولكن دعنا نتوقف قليلا..

فقد كانت الزراعة وتربية الماشية من أجل استبعاد الجيران "العرب" حتى لا يزرعوا ولا يضعوا أيديهم على الأرض..

"هذا رغم أن هدف الرهبنة العبادة أولاً وأخيراً.. وحينما تقرأ للأب الروحى أو تسمع عظاته تجده يمجد العمل الروحى "العبادة " ويرفعه على العمل المادى حتى ذهب فى إحدى عظاته إلى أنك إذا دخلت للصلاة فأنت تحول الوقت الميت إلى وقت حى وتحول التراب إلى ذهب.. وكم نادى بأن وجود الرهبان فى العالم يرفع غضب الله عن هذا العالم لأجل أيديهم المرفوعة فى الصلاة" .

كان الأب الروحى يرفض لأن يكون هدف الرهبنة العمل المادى فقط على أوراقه التى يؤلفها وفى عظاته التى يلقيها ، أما فى داخله وأعماقه فكان العمل والإنتاج هدفه الأول والرئيسى.. وبسر هذا الإنتاج نال شهرته وجلس مع رؤساء الدول .. وكانت هذه هى ميزته التى حرص عليها .. فكيف لا يتمسك به وكيف لا يحول الدير إلى جحيم عمل.. هل علمتم الآن سر الأعمال التى فوق طاقة البشر.. أظنكم علمتم .

وللأسف اكتشفت أن رؤساء الرهبنة لا يحسون لا بالبلد ولا بالفقير والمسكين، إنهم يحسون بأنفسهم فقط ، فإن كان المجد من وراء العطاء فهم أسخياء.. وإن لم يكن فلا عطاء.. وكل بطولاتهم التى يدعونها تشدقات لا وجود

لها إطلاقا على أرض الواقع ، فقد حول الأب الروحى ليس العمل الروحى فقط بل والعمل المادى أيضا إلى سعى وراء المادة "النقود" سعى غير مسنود بهدف روحى أو إنسانى..

فكم من مرة رفض الدير رفضا باتا مساعدة الفقراء - وقد كنت بوابا ويأتى من هو فقير يطلب المساعدة وحينما أتصل بالإدارة أجد الرفض بل القسوة.. "إياك أن تدخله الدير.. أطعمه وحاول أن تصرفه" .

كنت أتمزق بين توسلات السائل لأجل عملية جراحية لزوجته وبين قسوة الدير ، ولم تكن للدير علاقة ببيوت الأيتام والأرامل ، ولا سمعنا أنهم يدفعون لملجأ أو ساهموا فى بناء كنيسة ولا ساعدوا حتى العمال الذين بنوا الدير على أكتافهم .

وتلك مأساة النقاش..

كان شابا صغيرا يعمل بالدير واتته الفرصة للعمل بالحكومة فنصحوه بترك العمل فى الحكومة ووعدوه براتب أكبر وتأمين معيشة أفضل ، ورأيناه أمينا فى عمله مرحا ومحبوبا من الجميع ، وبعد حوالى سبعة عشر عاما مرض النقاش ولم يعد قادرا على العمل ، زوده الدير بمبلغ صغير مُرة واثنين وعندما طلب المزيد ليصرف على علاجه وعلى زوجته وأولاده رفض الدير مساعدته..

بكى الشاب وقال لقد أفنيت شبابى فى خدمتكم.. ألم تعدونى بتأمين مستقبلى؟ لماذا لا تصدقون؟ فما كان من الدير إلا أن أبلغ الشرطة لكى تأتى وتخلصهم منه.. بل وهددوه إذا عاد فسوف يلقى ما لا يحبه .

وما فعلوه مع النقاش فعلوه مع النجار.. وكثير من الحرفيين الذين طردوا من الدير شر طرده .

3- لا يستطيع أى راهب مهما بلغت جرأته أن يترك الرهبنة ويغادر الدير.. إلا بعد أن يفكر ألف مرة ، لأن أحداً لن يقبله ولا حتى أسرته الصغيرة فما بالك بالمجتمع الكبير.. هذا يجعلنا نعتقد أن الراهب الذى يخرج من الدير إنما يخرج

مدفوعاً بضغوط نفسية رهيبة عجز عن تحملها ومن جراء معاناة ضاق بها.. فأراد أن يخرج إلى البراح..

وقصة خروج فائق زكا بولس الراهب الهارب من دير الأنبا بيشوى فى وادى النطرون تؤكد لنا ذلك.. فقد قضى فى الدير أحد عشر عاماً ، قال إنها كانت الجحيم بعينه.. ولذلك قرر أن يهرب ، القرار كان صعباً لكنه اتخذه.. وها هو يحكى لنا عنه.. يقول فائق :

الوداع من الأشياء المؤلمة على نفس الإنسان ، ولقد شعرت بهذا الإحساس عندما قررت مغادرة الدير ، وفى الليلة السابقة على مغادرتى له قمت بجولة أخيرة فى الحقول والمزارع وبين المبانى مازلت أتذكر كل شيء ، يتصارع بداخلى الفرح مع الحزن.. عشر سنوات أمضيتها فى الدير وبجوار المعاناة النابعة من التسلط والتحكم والاستبداد كانت هناك السعادة الطاغية والتى تولد بالنفس من جراء غرس شجرة فى أرض جديدة ، ويختلط الإحساس بالفرار من الحرمان مع الشعور بفقدان أماكن أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تاريخى ، و لكننى قبرت بداخلى كل المشاعر التى تشدنى مرة أخرى إلى الدير ، وأثناء الليل وبشعور وتصرفات الهارب قمت بوضع كتبى وملابسى فى مبنى جديد بجوار الطريق الممهد ، وفى الصباح الباكر استوقفت سيارة من سيارات الدير ، قائدها شاب على علاقة طيبة بى ووضعت الكتب والملابس فى السيارة وغطيت أشيائى بملاءة ، وقلت له أريد الطريق العام ، وعند خروجى من بوابة الدير لم يعترضنى العامل فهو يعلم أننى أخرج كثيراً لإحضار ما يحتاجه الدير من الخارج ، ولم أخبر أحداً بمغادرتى للدير سوى الأب البواب ليعطينى نقودا لأسافر إلى القاهرة ، فرغم عشرة أعوام من العمل "كالحمار" فى الدير كنت لا أملك أجرة الطريق للعودة إلى القاهرة .

وكان البواب من بلدتى وقد ذهل كل الذهول لقرارى "أليس أنت من كان يشجعنا على البقاء فى الدير؟ ألم تشجعنى من قبل وأقنعتنى بعدم مغادرة الدير

عندما حاولت الفرار؟" أثارت كلماته فى نفسى شعورا طاغيا بالحزن.. فقد كنت أحب الأب البواب ، كنا فى الثانوية العامة معا وكنا نخدم ونصلى معا ، وكانت الرهبنة هى الهدف والحلم بالنسبة إلينا.. وها قد تحقق الحلم.. فلم الهروب؟ .

ولكننى كنت قد عقدت العزم ، وبالفعل ضغطت على نفسى ، وواصلت الطريق ، ولم يكن سائق السيارة الشاب على علم بنيتى ، وعندما وصلنا على الطريق العام ولم أجد سيارة فى انتظارى.. سألنى قائلاً: إلى أين؟ فقلت له: إلى القاهرة . "هل ستترك الدير؟".. فأجبته بنعم ، فسالت دموعه وصوته يختنق وهو يرجونى بالعودة: أرجع يا أبونا.. أرجع أنا لا أستطيع العودة بدونك.. وتمالكت أعصابى وأعطيته بضعة جنيهات وقلت له : أرجع حتى لا تتأخر عن عملك . وعاد إلى الدير وكنت أعلم أنه سيخبرهم وإن لم يكن بالكلام فبالدموع.. وسرعان ما ستأتى سيارات الدير لإعادتى إليه ولكن العناية الإلهية أرسلت لى "تاكسى" فأسرعت بالركوب والفرار إلى القاهرة وعلمت بعد ذلك أن الدير أرسل خلفى أربع سيارات ولكن بعدما نفذ الأمر واستطعت الفرار .

وفى طريقى إلى القاهرة لم أكن سعيدا بحريتى ولا حزينا على مغادرتى للدير وأيضا لم أكن خائفاً ، فكم من المرات التى هربت فيها بروحى وخيالى بعيدا عن الدير . وما تحقق الآن ما هو إلا الفرار بالجسد ، ولكننى كنت أشعر بضيق لا أدرى مصدره ، ولم أستطع أن أتخلص من هذا الشعور ، وظننت أن شعورى بالضيق سيتلاشى إذا عدت للخدمة ، أى لوعظ الناس ومن خلال الأخ إيهاب كنت أتصل فى الشهور الأخيرة بالأنبا "غ" صديقه ، وعرضت عليه مشكلتى والتى هى نفس مشكلته ، فقد كان بنفس الدير الذى غادرته وشعر بنفس الضغوط التى عانيتها فترك الدير والرهبنة وعاد إلى بيته ولكن قداسة البابا أعاد إليه ثقته بنفسه ورسمه أسقفاً ، واتفقت معه أن أخدم عنده فرحب بذلك ووعدنى أن يأخذنى لقداسة البابا للموافقة على ذلك ثم يعود بى إلى محافظته فأقيم عنده ولكن ماذا يحدث لو فشلت فى الخدمة ؟! .

أفقت من ذكرياتي والسائق يدخل بالتاكسي إلى القاهرة ، فقلت له: "أريد محطة السويس" ومن هناك أخذت سيارة أجرة إلى السويس وعندما وصلت اتصلت بـ "إيهاب" ولم أجده ، وما هي إلا بضع دقائق حتى حضرت إلى الدكتورة "م" أخت إيهاب وزوجها الدكتور "ي" وقاما باصطحابي إلى شقتهما وأنا في غاية السعادة ثم حضر إيهاب ومكثت عندهم أسبوعاً .

أرسل إلى الأنبا "غ" قائلاً: "مادمت قد نزلت عند الأخ إيهاب ولم تنزل عندي مباشرة ، فأنا لن أذهب معك إلى البابا" وتعجبت لموقفه هذا غاية التعجب ، فهل هو خائف من الموقف كله ، أو مني شخصياً؟ ولماذا هذا التخاذل؟ ومن هو الأخ إيهاب؟ أليس صديقة وقد عرفته من خلاله؟ .

وزارني الأخ "مجدي" شقيق "إيهاب" الصغير ليتعرف علي ، وقام بتشجيعي وقال لي: "سوف أذهب معك إلى الأسقف "س" وهو سيصحبك إلى قداسة البابا" وكان الأسقف نشيطاً وجريئاً . أخذني الأسقف "س" إلى قداسة البابا وبعد أن قبلت يديه قال لي "كويس دا أنا النهاردة هتكلم عن ديركم واللي بيحصل فيه" وكانت المحاضرة لطلبة الإكليريكية بتاريخ ١٩٩١/٤/٣٠ بعنوان "مناقشة كتب أبونا متى المسكين" وتناول فيها البابا بعض الأخطاء - من وجهة نظره - والتي جاءت في كتب الأب متى المسكين ، وهو الأب الروحي للدير الذي عشت فيه طيلة السنوات العشر الماضية ، وهو صاحب كل المهازل التي كتبت عنها ، والواقع أن الأخطاء التي تحدث عنها البابا لم تكن جوهرية ولم تمس العقيدة وإلا عزل أبونا متى المسكين وحرقت كتبه والتي لاتزال تملأ المكتبات وفي نظري فأبونا متى المسكين سليم فكريا وعقائديا ويعتبر من أكبر اللاهوتيين في عصور عديدة فأسلوبه قوي ومنطقي وفلسفي يمزج العقيدة بالفكر في أسلوب رائع خلاب ويعتبر بمفرده مدرسة جديدة تتلمذ فيها كل رهبان ديرنا بما فيهم أنا ، كما تتميز كتاباته بخبرة روحية عميقة ، قل أن تجد لها مثيلا عند أي زاهد أو راهب أو أي مفكر أخر ، ولكن مشكلته تكمن في التمزق الفكري ، فسلوكه يختلف تماما عن أفكاره

وينطبق عليه قول السيد المسيح : "كل ما قالوه لكم افعلوه فافعلوه ولكن إلى أعمالهم لا تنظروا" فهو يوصى بالمحبة وتمتلىء أفعاله بالحقد والقسوة والكراهية والكبرياء ويمتلكه حب الشهرة وجنون العظمة ، إننى مهما كتبت فلن أستطيع أن أخبر عن خبث وحقد ودهاء أبونا متى وهناك عشرات القصص التى تؤكد كلامى هذه .

تحدث البابا فى محاضرته أيضا عن ترك الرهبان للدير وأن لديه شخصيا ما يزيد على سبعين راهباً منهم من رسمهم ككهنة .. ومن كلفهم بخدمات فى مصر وخارجها ثم تطرق الباب للحديث عن الأوضاع السيئة للرهبان ، وقال صراحة: "إن الدير له فرع خاص بمستشفى الأمراض النفسية بحلوان" مما أثار حفيظة الشباب ، فوقف أحدهم وسأله بجرأة "ما دمت تعلم كل هذا وأنت المسئول عنه فلماذا تسكت؟ ولماذا لم تتخذ قراراً بعزل أبونا متى" ، وأجاب البابا " بأنه يميل فى تقويمه بالتعليم والإقناع وليس العنف والترهيب كما أنه عاهد الله يوم رسم كاهناً أنه سيعمل للخير وليس للانتقام أو الشر" .

وانتهت المحاضرة وصعد البابا إلى الدور العلوى ، وبعد قليل أرسل فى طلبى لمقابلته بغرفته الخاصة ، وذهبت إليه ووجدته بشوشا ونبرات صوته تحمل إليك طيبة قلب منقطعة النظير.. كما أنه يستمع إليك باهتمام ويحدثك بأدب شديد وحدثنى عن أوضاع ديرنا السخيفة وعن بعض الرهبان هناك وما يفعلونه وهو على علم بكل ما يحدث فى ديرنا ، ثم حدثنى عن إرساله لأبونا متى ليأتى ويذهب هو شخصيا لقيادة الدير ولكنه فوجئ باثنين من الرهبان يحضرانه إليه ومعهما قائمة بأسماء الرهبان وتوقيعاتهم.. والتى يؤيدون فيها متى المسكين ويرفضون قيادة قداسة البابا لهم وهل يمكن أن أفرض نفسى عليهم ، وخفت أن يأتى قداسته بالقائمة لأن اسمى وتوقيعى فيها.

كنت قد اتصلت بوالدتى قبل مغادرتى لدير "الأنبا بيشوى" وحينما سمعت صوتها بكيت كطفل أبعدوه عن أمه ، وسمعت صوتها يسألنى: هل هكذا يبكى

الجبار؟ قبل التحاقي بالرهبنة كنت معروفا بالطموح والجرأة والصلابة فلم أعرف البكاء طوال حياتي ، والآن أبكي لسماع صوت أمي وأتمنى أن أرتمي بين ذراعيها وأضع رأسي فوق صدرها لأنسى همومي كلها ، كنت أحتاج إلى الثقة والأمان في ذراعيها.. وإلى الحنان والاطمئنان في ضمة صدرها.. وتمنيت العودة إلى البيت.. أرى جيراني من أحبهم ومن يكرهني منهم ، وتداعب صور البنات اللاتي لعبت معهم في طفولتي خيالي.. ولكم أشتاق إلى قبلة سرقتها من فتاة عرفتها في مراهقتي ، لكم أود أن أعود طفلا ، ولقد قتلت روحي وأزهقت نفسي بتطرفي في التدين والتحاقي بالرهبنة .

مازلت أذكر أني ذات مرة أرسلت إلى أمي وأختي وزوجها ليحضروا إلى في دير الأنبا بيشوي في أمر هام ، وإذا بصراخ أمي وأختي يعلو حتى يصل إلى السماء ويأتي الرهبان ليروا المصيبة ، وأرسلت إلى أخي الكبير وهو يعمل في إحدى الدول العربية برغبتي في ترك الرهبنة.. فجاء لزيارتي في الدير وحاول معي كثيرا ليقنعني بالعدول عن قراري.. ولكنني كنت مصمما على النزول إلى العالم.. الجميع كان يرفض على أساس أنني سأخرج من طريق الحياة الأبدية.. وهل أصبح الدير هو السبيل الوحيد للدخول في ملكوت الله؟ هل جاء ذلك في الإنجيل؟! لا أدري لماذا ربط الجميع بين الدير والحياة الأبدية؟! حتى أن أمي قالت لي في آخر زيارتها : "كنت أتمنى أسمع خبر موتك على أن تترك الرهبنة"، إلى هذا الحد تمكنت منها تربيتها في الكنيسة.. تضحي بابنها ولا تسمع بأنه ترك الرهبنة ، ولكنني لا ألومك يا أمي.. فقد كنت مثلك في يوم ما .

وإذا كانت أسرتي تفضل موتي على أن أترك الرهبنة فما بال المجتمع المدني ومن قبله المجتمع الكنسي .. ومازلت أذكر مقابلتي بشاب كنت أعرفه أيام الرهبنة وكاد أن يغشى عليه عندما رآني في ملابس العلمانيين .

وأخيرا نفذت قراري ووعدت أسقف الدير الطيب والذي صلى من أجلي ونزلت في شقة استأجرها أربعة رهبان تركوا دير الأنبا "مقار" حديثا ، وكان

معى ملابس علمانية - مدنية - اشتراها لى راهب صديق بدير الأنبا بيشوى وكان الرهبان الأربعة يخفون عنى الأمر ، وحينما بدأت فى إزالة لحيتى تملكنى الخوف قليلاً ولكن إصرارى على خلع هذه الحياة قوى من عزيمتى.. وقمت بارتداء قميص وبنطلون لأول مرة بعد حوالى أحد عشر عاماً ونصف العام قضيتها فى زى الرهبنة ، وكان عمرى حينذاك حوالى ستة وثلاثين عاماً ، وأعطونى نقودا واشتروا لى ملابس أخرى .

واتصلت بأهلى قبل أن أزورهم لكى لا يفاجأوا بمنظرى الجديد ، ولم يقف معى إلا زوجة أخى الصغير والتى كانت لى دائما" افعل ما يحلو لك ، لماذا تدفن نفسك بالحياة فى معيشة لا ترضاها" وقد قابلتنى بحفاوة شديدة هى وأولادها الصغار والذين جعلونى أحس بأن شيئا لم يتغير ، مكثت فى المنزل شهرين تقريبا قمت خلالهما بعمل بطاقة شخصية جديدة وعمل جواز سفر واستخراج شهادة البكالوريوس من الكلية وتوثيقها وكان من الطبيعى أن أترك مصر كلها لأعيش فى مجتمع جديد لا يعرفنى فيه أحد أو أعرف فيه أحداً ، وطلبنى أخى الأكبر فسافرت إليه فى إحدى الدول العربية ، حيث يعمل ومكثت عنده فى منزله بالعاصمة وجاءت لى فرصة عمل بعقد حكومى حيث المرتب الكبير والإقامة والسكن ، فرصة لن تتكرر كما قال لى أخى الأكبر بالإضافة إلى إمكانية السفر خلال هذا العمل إلى إحدى الدول الأوروبية وهو حلم كبير بالنسبة لى والكثيرين ، ولكنى رفضت هذا العمل وفضلت أن أعمل مع أصغر إخوتى فى السوق هروبا من العمل فى وظيفة يتحكم فى من خلالها موظفون حسبت أنهم سوف يكونون الرهبان الجدد فى حياتى ، وحينما سألنى أخى الأكبر ألا تريد العمل والزواج ؟ ! ألا تريد السفر لإحدى الدول الأوروبية؟! أجبته أننى أريد شيئا واحداً ألا وهو الراحة النفسية وحينما أحصل عليها سأعرف ماذا أريد .

15

العمامة والكاريكاتير!

العمامة والكاريكاتير

أعترف أنى فى كل مرة كنت أطالع واحدة من المعارك التى خاضها الشيخ الجليل محمد الغزالى كانت تجتاحنى موجة إشفاق على خصومه.. فالرجل كان حادا لدرجة الذهول.. قوى الحجة.. يضرب معارضيه فى مقتل.. ولا يتركهم إلا رمادا تذروه الرياح.. لكنى أشفقت على الشيخ الغزالى بقامته وعلو هامته.. عندما غرقت فى تفاصيل معركته مع صلا ح جاهين.. فهذه المرة لم يبق جاهين ولم يذر.. حمل على الشيخ الغزالى ولم ينقذه من بين يديه إلا تدخل السلطة السياسية التى جمعتهما فى لقاء بمكتب هيكل فى الأهرام.. ليصفو بينهما الجو ويعود كل منهما إلى خندقه .

خمسة وثلاثون يوما.. من أيام ١٩٦٢.. قامت فيهما الدنيا ولم تقعد على صفحات جريدة الأهرام.. ولا يكتمل المشهد الا بتفاصيله وأيامه..

الأهرام فى ٢٨ مايو ١٩٦٢..

خبر مطول عن أعمال المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية.. ختم بإشارة قصيرة إلى الكلمة التى ألقاها الشيخ محمد الغزالى حيث طالب فيها بتحرير القانون المصرى من التبعية الاجنبية.. ورأى أن ذلك يمكن أن يتم بالقضاء على طبقية الملابس وتوحيد الزى فى الأمة ، واشترط العزالى فى الزى الجديد ألا يساعد النساء على تعرية صدورهن أو سيقانهن .

الأهرام فى ٢٩ مايو ١٩٦٢..

لم يعجب ما قاله الشيخ الغزالى صلاح جاهين فاستخدام كاريكاتيره للاعتراض والنقد والسخرية وعلى صفحات الأهرام كاريكاتير كان هذا شكله ومضمونه: العنوان "هاجم الشيخ الغزالى كل القوانين والأفكار الوافدة من الخارج "وتحت العنوان يقف الشيخ محمد الغزالى خطيبا فى مؤتمر القوى الوطنية وأمامه عدد كبير من المستمعين.. وأسفل الرسم تعليق ساخر يقوله الشيخ: يجب أن نلغى من بلادنا كل القوانين الواردة من الخارج كالقانون المدنى وقانون الجاذبية الأرضية .

الأهرام فى ٣٠ مايو ١٩٦٢..

لم يرق ما فعله صلاح جاهين للشيخ الغزالى وفى صباح اليوم الذى صدرت فيه جريدة الأهرام هاجم صلاح جاهين بشدة فى جلسات المؤتمر.. لكنه فى اليوم التالى رد عليه جاهين برسم أكثر سخونة.. تعدى سخريته من آراءه فى القوانين الواردة من الخارج إلى السخرية من أراءه فى المرأة.. وكان الرسم موجعا ومفزعا .. كان عنوان الكاريكاتير هذه المرة "ملاحظة على اهتمام الشيخ الغزالى بمشاكل المرأة" وتحته وقف الشيخ الغزالى يحمل لافته مكتوبا عليها "فتش عن المرأة" وفى الوقت نفسه ينظر من ثقب الميثاق الذى رسمه جاهين كباب ضخم.. وكان التعليق موجزا وساخرا يقول: كل واحد وله طريقة فى النظر إلى النساء .

الأهرام صباح ٣١ مايو ١٩٦٢..

لم يستطع الشيخ الغزالى أن يخفى غضبه مما فعله صلاح جاهين ولاحظ الموجودون فى المؤتمر أن الشيخ يحمل مرارة من رسومات جاهين وتعليقاته.. لم يشر إلى الكاريكاتير المنشور فى الأهرام.. لكنه بدأ يتحدث فى كلمته عما قصده من كلامه فى اليومين السابقين.. فقد كان يعترض على أن تظل بلاد الشرق

الإسلامى محكومة بقانون وضعه الفرنسيون.. وأنه لم يهاجم قانون الجاذبية الأرضية لأن غمز ولمز بما فعله جاهين وقال بين ما قاله: أنا لم أهاجم القوانين العلمية كالجاذبية الأرضية لأن الإسلام ليس ضد العلم والتقدم ، ويبدو أن الشيخ الغزالى لم يطق صبرا على مهاجمة جاهين كعادته فى جلسات المؤتمر.. فقال: إن ما فعله صلاح جاهين فى رسومه من مهاجمة العمامة البيضاء يستدعى أن يمشى العلماء عراة الرأس اذا لم تحم عماماتهم ، ثم إن كلامه عن توحيد الأزياء لم يكن يستوجب السخرية.. فهو أراد ذلك حتى يخفف عن الناس معاناة اختلافها.. ومن الانقضاض على صلاح جاهين إلى الانقضاض على جريدة الأهرام.. حيث قال الشيخ: ما يقال فى هذا المؤتمر الذى يعطى لكل فرد الحق أن يقول كلمته يجب الا يرد عليه بمواويل الأطفال فى صحف سيارة ينبغى أن تحترم نفسها .

الأهرام فى ١ يونيو ١٩٦٢..

أدخل الشيخ الغزالى الأهرام فى المعركة إذن.. وقد يكون قد اعتبرها مسئولة بشكل أو بآخر عما فعله به جاهين.. يقينا منه أن رئيس تحريرها هيكل لابد وأن يكون قد رأى ما رسمه جاهين ووافق عليه.. ولذلك كتبت الاهرام ودون توقيع أنها تقدس الدين وتحترمه وتخدمه.. لكنها فى الوقت نفسه ترفض ما فعله الشيخ الغزالى من هجوم عليها.. إنه حول الخلاف بينه وبين صلاح جاهين من خلاف فى الرأى إلى قضية دينية.. وكان الغزالى قد أرسل إلى الأهرام ردا تضمن ما قاله فى المؤتمر فنشرته كاملا إيمانا منها بحرية الرأى والاختلاف .

حنكة الأهرام لم تجعل الشيخ الغزالى ينفرد بالساحة.. ففى نفس العدد الذى نشرت فيه اعتراضه ورده على جاهين.. نشرت كاريكاتيرا جديدا لصلاح واصل خلاله الحملة على الشيخ الغزالى.. كان العنوان: ملاحظة عن إغفال الشيخ الغزالى لمشكلات المعيشة والمواضيع الحيوية.. وتحت العنوان مظاهرة

لمجموعة المشردين يحملون لافته مكتوبا عليها: أين الكساء يا مشرع الأزياء.. لماذا لا تتكلم إلا عن ملابس النساء؟.. وفى الرسم يظهر الشيخ الغزالى وهو يعترض طريق مظاهرة الأطفال قائلا لهم: ما بتكلمش عنكم يا جهلاء لأنكم ذكور.. وما ظهر من جسمكم ليس عورة .

المعركة ما زالت مستمرة ..

لم تهدأ نار هذا الرسم حتى قدم صلاح جاهين ستة رسوم مرة واحدة يلهب بها خلافه مع الشيخ الغزالى وضع لها عنوانا جامعا هو : "تأملات كاريكاتورية فى المسألة الغزالية" .

فى هذه الرسوم أطلق جاهين على محمد الغزالى أبو زيد الغزالى سلامة .. أركبه فرسا بالمقلوب وأقحم جاهين عبقريته الزجلية فلم يجعل التعليق جملة واحدة ولكن قصيدة زجلية هائلة قال فيها: "هنا يقول أبو زيد الغزالى سلامة / وعينيه ونضارته يطقوا شرار / أنا هازم الستات ملبسهم الطرح / أنا هادم السينمات على الزوار أنا الشمس لو تطلع أقول إنها قمر / ولو حد عارض يبقى من الكفار / ويا داهية دقى لما قول ده فلان كفر / جزاؤه الوحيد الرجم بالأحجار / فأحسن قولوا أمين بعد كلمتى / لو قلت إن الجمبرى ده خضار .

جعل جاهين الغزالى مكفرا وإرهابيا.. مخالفا بذلك الصورة التى ظل الشيخ الغزالى منذ ظهره وحتى وفاته يرسمها لنفسه.. وهى صورة الشيخ المتسامح الذى يصدر الإسلام الوسط للناس رحمة بهم.. لقد كانت لدى صلاح جاهين شفافية عالية.. ففى الوقت الذى كان يرى الجميع أن الغزالى شيخ رحيم رآه صلاح مكفرا كبيرا.. وهو ما تحقق بعد ذلك فبعد سنوات من موت صلاح جاهين وبعد اغتيال فرج فودة بارك محمد الغزالى مقتله وأفتى بأنه كان كافرا فى شهادته أمام المحكمة.. وكأن صلاح بشاعريته كان يقرأ كف الغيب .

كان لابد للمعركة أن تشتعل فقد استغل محمد الغزالى بعد أن أنتهت جلسات المؤتمر التى كان يعارض فيها صلاح جاهين.. وكان يخطب الجمعة فى الجامع الأزهر بأن ندد فى خطبته بما فعله صلاح جاهين معه.. ورفع رسوماته على المنبر منددا ومحرضا على الرسام الذى كان يقول كلمته ويمضى.. لم يكذب المصلون خبرا.. كانوا من مريدى الشيخ الغزالى.. خرجوا من الجامع الأزهر فى اتجاه جريدة الأهرام.. هتفوا بحياة الشيخ.. وطالبوا برقبة صلاح جاهين.. ولم يكتفوا بذلك بل ألقوا بالحجارة على مبنى الأهرام العريق رافضين بذلك ما يقوله جاهين عن الشيخ الغزالى الذى لم يكن بعيدا عن المظاهرة الحاشدة.. فقد كان حاضرا فيها حيث حمله المصلون على أعناقهم .

لم تقف الأهرام مكتوفة الأيدى وللمرة الثانية تنشر رأيها.. وفى هذه المرة لم تقدم لكلمتها باحترام الدين وتقديسه.. ولكنها رفضت ما فعله الشيخ الغزالى واتهمته صراحة بأنه كان وراء تحريض المصلين للقيام بمظاهرة ضد الأهرام.. وللمرة الثانية انتقدت الأهرام تحويل الشيخ الغزالى المعركة من خلاف فى الرأى إلى قضية دينية رغم أنه لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالدين .

ما كتبته الأهرام بتوقيعها لم يكن كافيا للرد على مظاهرة محبى الشيخ الغزالى فقد واصل صلاح جاهين رسوماته ضد الشيخ.. وفى رسم جديد وقف صلاح جاهين بنفسه هذه المرة أمام منصة القضاء ووقف الشيخ الغزالى خلفه يضربه بخنجر فى ظهره وعلى نصله كلمة الإرهاب كان عنوان الرسم: "الغزالى يتهمنى بالخروج عن الإسلام أما التعليق فكان: "العبد لله: ودلوقتى بعدما الغزالى أبدى رأيه بطريقته الخاصة.. نشرح له مرة أخرى أهداف الميثاق".

أقلقت أصداء المعركة السلطة السياسية التى كان لابد لها أن تتدخل.. فتدخلت.. اتصل كمال الدين حسين الذى كان وقتها نائبا لرئيس الجمهورية بهيكل رئيس تحرير الأهرام لينهى هذه المعركة التى طالت أكثر من اللازم.. وفى مكتبه

بجريدة الأهرام جلس الشيخ الغزالى وصلاح جاهين لتقف بينهما الحرب المعلنة.. فقد ظل كل منهما على رأيه.. فالخلاف لم يكن خلاف مصالح ولكنه كان خلاف مبادئ ألستم معى الآن أن إشفاقى على الشيخ الغزالى كان فى محله؟ أعتقد أنكم معى..

ضحية

جمال عبد الناصر

19

ضحية جمال عبد الناصر

أعطى صلاح جاهين كل عواطفه ومشاعره لجمال عبد الناصر على بياض ، وضع أشعاره ومواهبه فى خدمته ، ولم يتردد لحظة واحدة فى الدفاع عنه.. بل قام جاهين بدور جهاز دعائى كامل يحشد الجماهير خلف جمال عبد الناصر: "قربوا من فكره وأحلامه / ياللى عليكم كل كلامه / فى الصورة طالبكم قدامه / قيادات شعبية.. قلتم إيه / قلنا يا زعيمنا قلوبنا آهه - أيامنا آهه.. لياليناا آهه / فى يوم الدم وهبنا الدم - هنبخل بالليالى ليه ، بل إن صلاح جاهين لم يكن يفوت أى فرصة ليحشر اسم جمال عبد الناصر حشرا فى أشعاره وأغنياته: على رأس بستان الاشتراكية / واقفين بنهندس على الميه / أمة أبطال علما وعمال / ومعانا جمال / بنغنى غنوة فرايحية .

كان صلاح جاهين يفعل ذلك باقتناع كامل بالثورة التى جاءت لتحقق له أهدافه مرة واحدة وليس بالتقسيط ، رأى الإنجليز الذين انهكوا مصر أكثر من سبعين عاما يخرجون منها ، رأى نهضة شاملة وحلما قومياً يتجسد وزعمياً شاباً كتب له الشعب تفويضا عاما وشاملا سيصل بهم إلى بر الأمان.. حيث الأمانى المستحيلة تتحقق.. والأحلام البعيدة تصبح فى متناول الأيدى.. والبلد تصبح ملكا لأصحابها.. ابن موظف حكومى بسيط يقود أمته إلى حيث تريد هى.. لا إلى حيث يريده لها الآخرون.. وجد صلاح نفسه منساقا خلفه لا يناقش فقط بل يكتب أشعاراً تبشر بالعصر الجديد ورجاله .

لكن فجأة أنهار كل ذلك.. انكسر الزعيم أمامه ، فلم يهتف له مع الذين هتفوا لا تتنحى.. ولكنه دخل عزلة اختيارية.. وسيطر عليه اكتئاب لم يستطع أن يقاومه

فتوقف عن الكتابة ، لم يفصح عما بداخله.. قال فقط: إن الشعلة المتوهجة بداخله خبت أو انطفأت.. ولم يحمل جمال عبد الناصر مسئولية ذلك.. ولكنه أرجعها لرب العالمين الذى يقول للشيء كن فيكون.. كان ذلك بعد أن انهارت الأحلام جملة واحدة بعد أن تحققت مرة واحدة.. وكما مات جمال عبد الناصر فى ٥ يونيو ١٩٦٧ وانتهت أسطوريته.. مات صلاح جاهين فى نفس اليوم وتبخرت حماسته ورغم أن كلا منهما مات فى تاريخ لاحق.. عبد الناصر مات من الإجهاد فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وصلاح مات فى ٢٦ ابريل ١٩٨٦ والمفاجأة أنه كما اعتزل كمدا مات كمدا كانت أخر نكتة رسمها بريشته على الصفحة التاسعة من جريدة الأهرام عبارة عن كاريكاتير فيه شخص يرتدى ملابس مهلهلة ومحروقة مكتوبا عليها "الشعب الليبى" وكتب صلاح : الشخص ده كان قاعدا أصلا تحت شجرة ونزلت عليه صواريخ وقنابل فحمت الشجرة تماما وطيارة أمريكية تبتعد فى الأفق مكتوبا عليها "طيران أمريكا" والشخص المتفحم بيقول قذافى ؟ قذافى مين؟ أنا أسمى الشعب الليبى ، فرغم أن عبد الناصر وأمريكا لم يتفقا على شيء ، لكنهما اتفقا فى النهاية على قتل صلاح جاهين اكتئابا .. بل إن البعض لم يتجاوز عندما أكد أن صلاح مات منتحرا لأنه لم يتحمل ما يحدث حوله لبنى وطنه.. والمعلومة على مسئولية نجيب محفوظ التى قالها عرضا لرجاء النقاش فى حوار طويل معه ضمه كتاب عن حياة محفوظ .

فى صالون بيت صلاح جاهين كانت توجد صورتان الأولى لزوجته منى قطان رسمها بنفسه والثانية لجمال عبد الناصر وإلى جوارهما لوحة كتب عليها شعار : أكبر قدر من البراءة أكبر قدر من المصرية ، أكبر قدر من البساطة.. ظل هذا الشعار يلازم صلاح جاهين حتى مات وأغلب الظن أن إيمانه بهذا الشعار هو الذى قصف عمره.. فقد كان رومانسيا فى زمن ليس كذلك.. آمن بعبد الناصر إيمانا رومانسيا.. لم يتخيله يوما حاكما يملك فى يده سلطة يستطيع من خلالها أن

يعتقل ويعذب معارضيه.. لم يتعامل معه كرئيس دولة يمكن أن يهزم فى حرب لأنه أهمل وأدار البلد بمنطق العزبة الخاصة يقرب فيها منه من يشاء.. وينفى من أرضها من يريد.. لكنه نظر إليه كمخلص جاء ليرفع الذين ظلموا من مستنقع ظلمهم.. وعندما اكتشف الوجه الأخر من عبد الناصر لم يتحمل.. فانسحب .

لم يندم صلاح جاهين على أعماله الثورية.. فقد كان يكتبها لمصر ، لكنه ندم بشدة على أعماله الدعائية التى صدر بها عبد الناصر للشعب المصرى كقائد لا يقهر مع أن الحقيقة لم تكن كذلك ، ولذلك ظل ينقد نفسه على أغانى الاحتفالات بأعياد الثورة ، وهى الأغانى التى عمل فيها البحر طحينة للناس ، وساهم بها فى خداع وجدان جيل كامل أن يعتقد أن الثورة ملكه وحده ، ولكنه استفيظ على وهم قاتل ، لقد صور صلاح جاهين المستقبل بشكل براق إلى الدرجة التى جعلت الناس تعتقد بأن ما يقوله واقع وحقيقى بينما كان الواقع يقول عكس ذلك تماما.. اعترف صلاح جاهين أن أغنياته الاحتفالية كانت سببا فى أن يصدم الناس من النكسة.. وكان هو فى مقدمة من صدموا.. لأنه كان أكثر المؤمنين بما يقول .

اكتئاب صلاح جاهين وصدمته العنيفة وورطته الكبيرة التى أدخله فيها عبد الناصر لم تجعله ينقلب عليه ، فهو لم يكن كداب زفه.. لم يشترك فى الحملة المنظمة التى خرجت مع قدوم السادات لتشويه كل ما فعله عبد الناصر.. لكنه انتقم من عبد الناصر على طريقته الخاصة.. بل إن هناك من يعتقد أن صلاح كتب الرباعيات انتقاما من عبد الناصر.. ففضح غروره وتكبره وكبرياءه: يا طير يا عالى فى السما طز فيك / وولدى إليك بدل البالون ميت لون / أنفخ وطرقع على كل لون / عساك تشوف بعينك مصير الرجال / المنفوخين فى السترة والبنطلون .

ظل صلاح جاهين يداوى جراحه .. ويمارس أحزانه على طريقته الخاصة ويستمتع باكتئابه على طريقته الخاصة أيضا ، فبعد النكسة مباشرة كان يجوب القاهرة شرقا وغربا ويختلط بجميع الناس من العامل البسيط إلى الوزير ، لكنه لم

يتفاعل مع ذلك.. فأصبح لا يخرج من منزله إطلاقا لا نهاراً ولا ليلا ، كان يقضى الليل كله فى القراءة أو الكتابة أو المناقشة مع شخص واحد أو شخصين لأنه لم يكن يحتمل الجلوس فى مكان مزدحم وسبب ذلك هو ازدياد مرض الاكتئاب النفسى عنده ، وهو المرض الذى أدى به إلى الانسحاب كلية من المجتمع .

لقد عاب البعض على صلاح جاهين أنه كتب حوار فيلم "خلى بالك من زوزو"وكتب أغانى من عينة "يا واد يا تقيل" و "بمبى" واعتبروا أن الثائر أصبح هلاسا.. ونعوا فيه المقاتل الذى كان لكن صلاح لم يكن هلاسا.. كان فقط يباشر مسئولياته كأب لديه أولاد ويجب أن يوفر لهم ما يحفظ حياتهم من الضياع، تراكمت عليه الضرائب لدرجة جعلته يبيع كثيرا مما يملكه ليسدد ما عليه حتى جاءه فليم "خلى بالك من زوزو" فأنقذه من الإفلاس ومذبحة الضرائب لم يهتم كثيرا بما سيقال عنه.. فهو لم يستفيد كثيرا عندما قالوا له ثائر ومقاتل ومناضل .

المفاجأة الأكثر غرابة فى تاريخ صلاح جاهين أنه وقبل أن يموت كتب لجمال عبد الناصر فى قصيدة له ليست منتشرة: إلى جمال عبد الناصر فى قلب.. قلب.. قلب مصر / نؤيدك فى ذكرى لحظة مولدك / يا أيها المصرى العظيم ونوعدك / مهما اختفيت هنوجدك / ومهما مت / مصر ترجع مرة ثانية تولدك .

يعتبر البعض أن هذا اعتذار لعبد الناصر من صلاح جاهين.. لكننى اعتبره اعتذارا لمصر التى اعتقد البعض أنها عقمت بعد أن مات عبد الناصر.. لكن صلاح له رأى أخر.. فمصر التى أنجبت عبد الناصر قادرة على أن تنجب غيره.. وأعتقد أن صلاح كان يتمنى أن يرزق الله مصر بقائد.. مثل عبد الناصر فى زعامته.. وليس فى أخطائه .

الفيوم

17

الفيومــى

عرفت صلاح حافظ من ذكرياته التى نشرها رشاد كامل فى كتاب بديع لم يهتم كثيرا بأن يسجل تاريخ نشره لكنه اجتهد فى وضع عنوان مناسب له هو "الصحافة.. السلطان إلى الغضب.. ذكريات صلاح حافظ" على مدار ٢٠ ساعة كاملة جلس إلى صلاح عام ١٩٨٤ ليسمع منه.. حصل منه على كل ما أراده.. قدمه لقراء مجلة "صباح الخير" دون فذلكة فى خمس حوارات أثارت الغبار والأفكار.. وتوالت عليها الردود.. وتم ذلك كله برعاية لويس جريس رئيس تحرير "صباح الخير" وقتها.. وبعد أن مضت السنين رأى رشاد أن يدفع بالحلقات إلى المطبعة.. ليخرجها لنا فى النهاية كتابا مهما للغاية.. لأنه يمثل جزءا من تاريخنا الذى اعتقدنا أنه مضى.. ورغم حضوره الطاغى فى أيامنا التى نعيشها.. يؤرق منامنا ويقلق صحونا.. دون أن ندرى كيف نواجهه .

اعتقدت أننى عرفت صلاح حافظ وقتها.. لكننى بعد أن استمعت لمن عرفوه عن قرب أدركت أنى لم أر منه سوى قمة جبل الجليد.. تحدث صلاح حافظ فى مذكراته عن الصحافة والحاكم.. عن المعارك التى خاضها.. والصحف التى أسسها.. والصحفين الذين عمل معهم.. لكنه نسى نفسه.. وحتى عندما سجل رشاد معه بعضا من سطور حياته طلب منه ألا ينشرها فى حلقاته الصحفية.. إذ ما الذى يهم الناس فى طفولته وشبابه وبداياته الأولى ، لم يكن صلاح حافظ موفقا فى منطقه.. لكنه أصر عليه.. فلم يفصح إلا عما أراده فقط.. ورغم قلته لكنه يمكن أن

يعيننا على فهم هذا الرجل المعجز.. الذى برع فى كل شيء.. ولم يهتم كثيرا بأن يخلف وراءه ما يخلده.. فقد عاش الحياة كما أراد وهذا يكفيه !

تفاصيل حياة صلاح حافظ من عند رشاد كامل.. لكن كيف عاش هذه الحياة فمن عندى أنا.. جاء صلاح حافظ من الفيوم ليدخل كلية الطب.. كان ذلك فى منتصف الأربعينيات.. دخل الكلية بالفعل لكنه لم يصبح طبيبا لا شهيرا ولا مغمورا.. ولكنه دخل عالم الصحافة والكتابة والأدب.. عندما كان يدرس فى المرحلة الابتدائية حاول أن يكتب الشعر.. وعندما انتقل إلى الثانوية العامة كتب القصة وكان فى ذلك متأثرا بكتابات المنفلوطى وطه حسين وتوفيق الحكيم.. فى هذه الفترة كان صلاح حافظ قارئا محترفا.. يقرأ المجلات بكثافة شديدة.. ولم يترك حتى "البعكوكة".. بل إنه حاول أن يقلد الأزجال التى كانت تنشر فيها !

بهذه الخلفية الثقافية جاء صلاح حافظ إلى القاهرة طالبا فى كلية الطب.. لم يكن الطب على هواه.. كل ما حدث أن والده قال له : "أنت تنفع تكون طبيب".. لم يشعر بتناقض شديد بين ما كان يحبه ويدرسه.. فرغم اهتمامه بالأدب فإنه كان يحب الكيمياء والطبيعية ويتفوق فيهما.. بل إنه جرب أن يكون مخترعا.. وذات مرة أخترع جرسا كهربائيا يدق فور دخول لص إلى البيت ؛ سبب آخر جعل صلاح يقبل على دراسة الطب دون غيره.. فقد كانت مهنة الطب لا تزال مهنة موقرة جدا.. كما كان عدد الأطباء قليلا للغاية .

لم تنزع دراسة الطب صلاح حافظ من اهتماماته الأدبية وكتابة القصص القصيرة التى أيقن أنه يجيدها بعد أن فاز بأول جائزة من وزارة المعارف العمومية عن جائزتين مرة واحدة.. ومن وزارة المعارف إلى جريدة "الكتلة" التى كان يصدرها مكرم عبيد بعد أن أنشق على حزب الوفد وألف كتابه الأسود ضد مصطفى النحاس باشا.. نشر له حلمى مراد رئيس تحرير الكتلة قصتين واعطاه ثمانية جنيهات مرة واحدة.. ولحظتها أدرك صلاح حافظ أن الكتابة ليست هواية

فقط.. ولكنها يمكن أن تصبح مهنة.. ويصبح ما يكتبه له قيمة ويستحق النشر ويتقاضى عليه نقودا .

قبل أن يلتقط صلاح حافظ أنفاسه فى "الكتلة" وبعد أن بدأ يستعد للصعود قرر حلمى مراد أن يترك جريدة "الكتلة" كان ذلك عام ١٩٤٨.. ومن حظ صلاح أن أصدر مليونير وفدى يملك مصانع عديدة للثلج صحيفة اسماها "الجريدة المسائية".. كان رئيس تحريرها كامل الشناوى ، حمل إليه صلاح قصصه ذات يوم.. أخذها منه وطلب منه أن يراه بعد أسبوع.. سافر صلاح إلى الفيوم وعاد بعد سبعة أيام ليعرف أن كامل الشناوى بحث عنه فى كل مكان.. وعندما رآه قال له: سوف ننشر لك قصة فى العدد القادم.. وطلب منه كامل أن يذهب إلى الخزينة ليصرف عشرة جنيهات مقابلا لقصته ، ومن الجريدة المسائية إلى دار النداء التى أسسها يس سراج الدين لينافس بها أخبار اليوم ، كانت دار النداء تصدر صحفيتين هما النداء وصوت الأمة.. اختار صلاح "صوت الأمة" وتعلم فيها كل ما يتعلق بفن الطباعة والإخراج الصحفى من خلال علاقته بعمال المطبعة.. وفجأة قال له يس سراج الدين " أنت يا صلاح قصاص وأنا عاوز أصدر مجلة قصة.. وبالفعل صدرت مجلة "القصة" يرأس تحريرها الشاعر إبراهيم ناجى ويعمل صلاح حافظ سكرتيرا لها..

ومن القصة أخذ مأمون الشناوى صلاح ليعمل معه فى مجلتى "الستار" و "وراء الستار" التى كان يصدرهما مع إبراهيم الوردانى.. ويملكهما شفيق مرشاق و (هو رجل سورى كان يعمل فى إدارة دار الهلال وفجأة حدث له شيء أشبه بما يحدث فى أفلام السينما) فقد مات له عم كان يعيش فى البرازيل فورث أموالا طائلة.. كانت المجلة تخسر باستمرار.. لكن صلاح خرج منها بقضية حكم عليه فيها بغرامة هائلة وقتها وصلت إلى ٢٠٠ جنيه .

كان صلاح قد أنشأ فى المجلة بابا عن الجامعة وضع له شعارا "اطلبوا العلم ولو فى مصر" وتعرض فيه لبعض الأوضاع الخاطئة فى الجامعة.. رفع عميد كلية دار العلوم وعميد كلية الزراعة قضيه على المجلة.. وجد صلاح حافظ نفسه وحيدا فيها.. صاحبها قال : أنا ماليش دعوة ، والوردانى قال: معرفش حاجة.. ودفع صلاح حافظ الغرامة وحده بعد أن غضب بشدة من كامل الشناوى.. حيث كتب يدعو القراء للمساهمة فى مبلغ الغرامة !

وجد صلاح نفسه بعد ذلك فى جريدة "الملايين" أصدرها رجل ثرى كان يحلم بمنافسة أخبار اليوم.. جعلها صلاح وكان معه زهدى الرسام ومأمون الشناوى منبرا لليسار للدرجة التى جعلت صاحب المجلة يسخر منهم قائلاً : مفيش جوابات وصلت لكم من موسكو؟.. وفى صخب العمل فى الملايين وجد صلاح مأمون الشناوى أمامه يقول له : إحسان عبد القدوس يريد مقابلتك ، إنها روز اليوسف إذن.. المجلة التى خرجت للنور فى نفس العام الذى ولد فيه صلاح ١٩٢٥ ، قابل صلاح إحسان ووالدته السيدة فاطمة اليوسف وتم تعيينه سكرتيرا للتحرير بها.. فى مرحلة روزا كان صلاح قد نضج تماما ، بعد روزا طلبه مصطفى وعلى أمين للعمل معهما فى جريدة الأخبار التى صدرت عام ١٩٥١.. لم تمانع فاطمة اليوسف فى انتقال صلاح إلى الأخبار ، خاصة أن مصطفى وعلى كانا من أبنائها أيضا.. حصل صلاح من الأخبار على راتب وصل إلى ستين جنيها.. وكان فى الوقت نفسه يعمل فى روزا..

ولا ينكر صلاح أن الأخبار كانت نقلة فى حياته.. فقد نقل الأخوان أمين الصحيفة من المقال إلى الخبر والخدمات الصحفية وصارت الصحافة على أيديهما هى صحافة الخبر ، ورغم أن صلاح كان يختلف فكريا وسياسيا مع مصطفى أمين.. فإنه كان معجبا بأسلوبه للدرجة التى كان يستخدمه فى كتاباته فى

روزا اليوسف ، فى عام ١٩٥٣ ترك صلاح الأخبار ودخل المعتقل قضى به ثمانى سنوات بعد فترة من العمل السرى والأختفاء .

بعد أن خرج من السجن لم يترك صلاح صحيفة فى مصر إلا وكتب فيها حتى انتهى به المطاف مرة أخرى إلى روزا اليوسف.. ظل يعمل بها حتى أصبح رئيسا لتحريرها مع فتحى غانم.. كان صلاح هو المحرك الأساسى للمجلة.. يكتب وجهة نظرها السياسية.. ويوزع أفكارها على المحررين ويعيد صياغة معظم موضوعاتها ويضع عناوينها الداخلية وعناوين الغلاف.. وظل كذلك حتى أحاط بالمجلة زلزال ١٨،١٩ يناير ١٩٧٧.. أصرت روزا اليوسف أن ما حدث انتفاضة شعبية وليست انتفاضة حرامية كما أراد السادات.. قال السادات وقتها لعبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس إدارة المؤسسة: "الشيوعيون ضحكوا عليك يا عبد الرحمن.. صلاح حافظ ضحك عليك" .

خرج صلاح حافظ من رئاسة التحرير ليصبح كاتبا متفرغا ليس فى روزا فقط.. ولكن فى العديد من الصحف التى كان يعمل فيها مهما اختلفت مع أفكاره.. مرتان فقط رفض صلاح العمل فى صحف.. رفض رئاسة تحرير الأهالى رغم أنه هو الذى أختار اسمها وشارك "أبو العنيين" فى وضع تبويبها.. وكان سبب الرفض أن صلاح وقتها كان مشغولا جدا من ناحية.. ومن ناحية أخرى أن ظروف نشأة حزب التجمع والخلافات التى حدثت أثناء تشكيل قيادته كانت من الأسباب التى جعلته لا يقبل هذه المسئولية.. فقد دخلت فى تشكيلات الحزب خلافات بين تيارات وطنية كثيرة جعلت المسألة بالنسبة له فيها غموض كبير ، وكان صلاح لا يحب الغموض ولا يرتاح لألعاب الكواليس.. فقد بنى تصوره على أن المطلوب هو إنشاء صحيفة ناجحة تخدم هدفا متفقا عليه دون أن تغرق فى الدهاليز والكواليس.

رفض صلاح كذلك أن يرأس تحرير الوفد ، طرح مصطفى أمين اسمه على قيادة الوفد لرئاسة التحرير لكن صلاح قال له: إن الحزب بالنسبة له مجهول الهوية ولم يقل شيئا بعد وعندما أقبل رئاسة تحرير جريدة حزبية فهذا معناه أننى أعبر عن سياسة هذا الحزب.. فكيف يمكن ذلك وأنا لا أعرف سياسة هذا الحزب.. فكيف أقبل أو أرفض هذا المنصب؟!

عاش صلاح حافظ حياته التى امتدت حتى عام ١٩٩٢ بطريقته الخاصة.. دخل عشرات الصحف وهو صلاح حافظ وخرج منها وهو صلاح حافظ.. لم يتغير.. واعتقد أن من أسباب ذلك أنه كان فيومى التكوين.. ابن من أبناء محافظة هادئة للغاية.. ليس لها ما يميزها سوى طيبة أبنائها فهم ليسوا متعجلين.. يفعلون كل شيء بمزاج خاص ، لم يكن صلاح حافظ مهتما بأن يجمع المال.. كان يستمتع بحياته بالشكل الذى يريده.. ينعم بكسله الإبداعى.. ولا ينتظر من الأجيال الجديدة التى ستأتى بعده أن تشهد له أو عليه.. فقد قال كلمته وانتهى الأمر.. وأدى كل ما عليه دون أن ينتظر كلمة شكر من أحد.. وهذا هو بالضبط صلاح حافظ !

الولد والمريد

18

الولـى والمريـد

فى أوراق عادل حمودة الخاصة توجد هذه الرسالة بخط صلاح حافظ "الأخوة الأعداء كهبة وحمودة".. لا أزال نائما منذ يوم الجمعة الدامى ، قاتلكما الله ، صحيح أنى جلست إلى المكتب ليلة أمس وكتبت المطلوب "للشرقية" ولكن المؤكد أنها كانت يقظة عابرة ، وأنى لا أزال فى حاجة إلى أيام أخرى قبل أن تزول أثار العدوان ، وقد أرفقت بهذه السطور الملاحظات اللازمة لإعداد الموضوعات التى كتبتها نظرا لانشغالى بالمثول تحت اللحاف ، وإلى أن أستيقظ رسميا فإننى أحذركما من الاقتراب من محافظة الجيزة كلها وطظ فى لحمة الرأس وغذاء ملكات اللحم ، وسأعمل بإذن الله على فتح ملف لكل منكما فى أرشيف الأمن ، بحيث يعرف الجميع أن هبة مسجل "سمر" وحمودة مسجل "سهر" حتى لا تستدرجا ضحايا آخرين ، كما سأرفع قضية تعويض مدنى وصحى ، وأقدم للمحكمة وثيقة "البيورتم" التى تثبت بشهادة الكمبيوتر الذى عندى أننى منذ يوم الجمعة الدامى فى حالة : P=E=I=O.. بس لما أصحى.. الكاتب (سابقا) والنائم حاليا"

كانت تفاصيل هذه الرسالة التى كتبها صلاح حافظ تعليقا على سهرة جمعته بهبة عنايت وعادل حمودة ، تحدثت مع عادل حمودة عن الرجل الذى يعتبره واحدا من أساتذته الذين يمتن لهم .. ويعترف له بالفضل .. كتب له إهداء لأحد كتبه قائلا : إلى صلاح حافظ الذى تعلمت منه مليون حرف ولم أصبح له عبداً.. بل أصبحت صديقا.. كان صلاح بالفعل صديقا لتلاميذه .. وأستاذية صلاح كما

يراها عادل حمودة : ليس معناها أنى تعلمت منه طريقة الكتابة.. ولكنى تعلمت الإحساس والأخلاق الصحفية.. وهى مهارات تمكنك من إتقان أخلاق التصرف عند الضرورة وحسم الرأى فى المواقف الحرجة.. ومن حماية محرريك إذا تعرضوا لأزمة.. من استعدادك لتحمل مسئولية أرائك ومواقفك.. ولا يحسم ذلك ثقافتك المهنية.. بل ثقافتك الشخصية.. قراءتك للتاريخ ومعرفتك بالمصائر.. وتصورك للنهايات.

قلت لعادل حمودة : كيف تعرفت على صلاح حافظ؟..

فإنهالت الذكريات ، قال: لقد دخلت مبنى روزاليوسف ولم يكن فى نيتى أن أعمل صحفيا.. كنت فى الجامعة وقتها وأنتمى إلى جيل لدية الطموح السياسى وارد.. كنت أحلم أن أكون وزير خارجية مثلا.. فى طريقى من العباسية حتى أسكن إلى الجامعة كنت أمر على روزا.. وفى يوم توقفت "الترولى باص" أمام روزا بالضبط.. حملت معى قصصى التى كنت كتبتها فى كشكول رومنى ودخلت الدار.. قابلت محمد أبو طالب.. قلت له : عاوز أشوف أى حد من روزا.. فاتصل ثم قال لى أستاذ صلاح حافظ ينتظرك.. لم أكن أعرفه وقتها.. قابلنى وأخذ منى القصص وقال لى أترك لى تليفونك وسوف أتصل بك ، اعتبرت أن الموضوع منته.. وكنت وقتها محملا بمشاعرى ، خاصة أن مصر كانت خارجة للتو من أنكسار يونيو وكنت قررت ألا أعمل مع هذه الحكومة.. لكنى وجدت صلاح حافظ يكلمنى.. ذهبت لأقابله مرة ثانية فلخص لى الموقف فى جملة واحدة : نحن لا نريد أدباء ولكن نريد صحفيين.

وبدأت العمل معه ؟

بدأت ولم تمر سوى فترة قصيرة حتى اقتنعت بفكرة :الولى والمريد" أو "الأستاذ والطالب" أو الصحفى تحت التمرين ورئيس التحرير الشاطر"آمنت بصلاح حافظ فأدركت أن الإيمان بمن تعمل معه يعطيك ثقة كاملة فيه ، أول

موضوع اقترحته عليه كان عن "النكتة السياسية" التى كانت قد انتشرت بعد النكسة فقال لا.. أول ما شطح نطح.. فعرضت عليه عرض كتاب ألفه ريتشارد هلمز الذى كان رئيسا لــ CIA عن المخابرات والطلبة ، وفى النهاية استقر الأمر بى لأن عملت معه فى إعادة صياغة موضوعات المجلة .

وكيف سار العمل بينكما ؟

المفاجأة أننى لم استمر معه فى روزا.. تركتها لأعمل فى مجلة "الشباب العربى" التى كانت تصدرها منظمة الشباب وكان معى وقتها عدد من الصحفيين منهم أسامة الغزالى حرب وعبد القادر شهيب وأمل الشاذلى.. وجاءت لحظة كانت حاسمة.. دخلت المجلة مع صلاح حافظ فى معركة ، كتب عنها "مجلة عجوزة جدا" ردينا عليه بطريقة الكشافة.. اتريقنا على مدرسته.. فكتب مرة ثانية "مجلة عجوزة وعصبية أيضا" والعجيب أنه كان يرد علينا بعبقرية وذكاء وفنية.. تعلمت من رده ، لأنه كان الأذكى والأقدر على تحويل قضية صغيرة إلى قضية كبيرة !.

وسر ذلك لديه ؟

سر ذلك أنه كان طوال عمره ينتصر للقاعدة الصحفية.. كان شيوعيا.. دخل السجن أكثر من مرة لكنه لم يتصرف مطلقا بالمنطق الأيديولوجى ، الشرط المهنى عنده كان أهم.. قرر منذ البداية أن يحترم القاعدة المهنية الأشمل.. هو أديب نعم ، لكنه صحفى أولا.. لم يغلب السياسة على الصحافة ، فأنت صحفى لابد أن تحصل على خبر.. تكتبه بطريقة كويسة يبقى كتر خيرك فى البداية .

صلاح فعل ذلك رغم أنه عمل فى روزا وهى مدرسة رأى وليست مدرسة خبر.. فهل كان فى تجربته الصحفية بعض التناقض ؟

ليس تناقضا.. فصلاح كان طرفا فى مدرسة صحفية جديدة ، جمعت بين مدرسة الرأى من روزا اليوسف ومدرسة أخبار اليوم فى الخبر.. جمع بين فكرة

الصحافة المثقفة والصحافة الجذابة.. فالموضوع كان يخرج من يده جادا وجيدا وعنيفا لكنه فى النهاية جذاب أيضا.. لقد نجح صلاح وربما يكون وحده الذى فعل ذلك فى إجراء عملية تخصيب هائلة بين صحافة الرأى وصحافة الخبر.

ومتى عدت معه إلى العمل مرة ثانية ؟

عدت إلى روزا عام ١٩٧١ لأعمل مع عبد الرحمن الشرقاوى.. وبعد ثلاث سنوات تولى صلاح رئاسة التحرير مع فتحى غانم وأصبحت أنا سكرتير تحرير المجلة.. وبدأت تجربة روزا ترتفع.. وهى طوال عمرها ترمومتر للحرية السياسة فى مصر.. وإن كان النظام السياسى لا يحتمل جرأتها واقتحامها طويلا وفى عام ١٩٧٧ وبعد أحداث يناير أراد صلاح أن يخرج السادات من أزمته وفى نفس الوقت يتعايش ، ففصل بين النظام والحكومة وكان العنوان : "الحكومة أشعلت الحرائق والسادات أطفأها".. حاول أن يجنب السادات مسئولية ما حدث.. لكن الأحداث كانت أكبر من طاقة السادات على الاحتمال فرفض ما قدمه صلاح !

علمنى هذا الموقف كيف يكون الصحفى رجلا فى وقت الأزمة.. أن يقول الحق مهما كان الثمن الذى تدفعه وإلا إذا لم تفعل ذلك فستنهار داخل نفسك.. لقد قال صلاح : إنها انتفاضة شعبية وأصر على ذلك.. كان هذا هو الاختيار الطبيعى والصحيح.. وحتى بعد سنوات من خروجه من روزا قابله السادات وسأله هل كانت انتفاضة حرامية أم انتفاضة شعبية ؟ .. فقال له : شعبية ياريس.. كان يمكن أن يعود صلاح حافظ إلى روزا بكلمة واحدة يقولها.. لكنه صمت.. كان السادات يحترمه ويقدره ولا يشكك فى وطنيته ، لكنه لم يكن يطيق قلمه.. لأنه اختار الاختيار الصائب.. وكان هذا درسا عمليا لى ، فحتى فى قرارات النشر العادية لابد أن أختار ما يريد الناس.. فالتجربة أثبتت أنه فى النهاية هو الصحيح.

كان صلاح حافظ على قدر تجربة روزا اليوسف إذن ؟

بالطبع.. فصلاح لم يكن يقبل المواقف الوسط وكذلك روزا لا تقبل فكرة الوسطية.. وهكذا صحف الرأى.. ولذلك فـ روزا إما أن تكون فى القمة أو فى القاع.. لا تجدها فى الوسط مطلقا.. وفى تاريخها علامات صعود واضحة كان منها فترات فاطمة اليوسف ومحمد التابعى وإحسان وصلاح حافظ وبعد كل منهم كانت تهبط روزا هبوطا ضخما.. فبعد صلاح حافظ جاء مرسى الشافعى وتولى كل أمور روزا وكان قمة النجاح الذى وصل إليه بالنسبة للسلطة عندما قال له السادات : "برافو يا مرسى أنا ما بقتش اقرأ روزا اليوسف.. فلم يكن فيها شيء يستحق القراءة .

أعتقد أن صلاح حافظ كان يستفيد فى الفترات التى أبعد فيها عن الصحافة.. ألست معى فى ذلك ؟

كان صلاح يعطى نفسه كلية للصحافة.. فلم تكن تمكنه من أى إبداع أخر وهو مشغول بها.. لكنه وهو بعيد عنها كان يبدع على طريقته الخاصة.. كان عنده بيت فى الهرم وقرر مرة أن يزرع خيارا أهتم به جدا وكان ينفق عليه.. لدرجة أن الكيلو الذى كان ينتجه كان يكلفه جنيها كاملا بينما سعره فى السوق لم يكن يتجاوز خمسه قروش فقط.. فى فترات ابتعاده عن الصحافة كتب فيلم "المتمردون" الذى أخرجه توفيق صالح وكتب "القطار" وأذيع كمسلسل إذاعى وهو عبارة عن رحلة مساجين فى طريق ترحليهم من القاهرة للمعتقل.. كتب مجموعتى "الولد الذى جعلنا لا ندفع".. و "شجرة عم ظالم".. كل ذلك كان فى أوقات فراغة.. ولو كان صلاح حيا الآن أعتقد أنه لم يكن سيندم على الفترات التى أبعدوه فيها عن الصحافة.. لأنه أنتج فيها ما يفيد.. كتب مثلا حوار فليم "الأيدى الناعمة" وهو حوار رائع وراق، شارك فى حوار "الخيط الرفيع" دون أن يضع اسمه على الفليم.. وكان من عادته أن يعمل بمزاج من أجل الأخرين حتى لو لم يأخذ حقه كاملا عن هذا العمل .

كان صلاح يخلص لموهبته أكثر من إخلاصه لنفسه إذن ؟

يمكن أن تقول ذلك.. وفى اعتقادى أنه كان وبلا مبالغة أضخم موهبة عرفتها الصحافة المصرية على الأطلاق.. صلاح قطعة ألماظ مدفونة لا يعرف أحد قيمتها.. عمل تغييرا حقيقيا فى كتابة القصة القصيرة ، مهد به لظهور يوسف إدريس ، وكتب سيناريو وحوار "زينب والعرش" ومهد به لظهور أسامة أنور عكاشة فى عالم الكتابة التليفزيونية.. أحيا آخر ساعة ليمهد بذلك لفكرة إحياء الصحف الميتة ، ومع ذلك تسمع عنى فى هذه المساحة ولا تسمع عنه.. ترجم شارلى شابلن ، فمهد لترجمات راقية أخرى.. كتب المقالة السياسية المتماسكة.. فلمعت أسماء كثيرة فى كتابتها ونساء الناس ، كانت لدى صلاح ثروة ضخمة من الموهبة.. لكنه لم يكن يهتم بتأكيدها أو تنميتها.. حتى على المستوى الشخصى.. كان صلاح موهوبا.. لكن موهبته ظلمت حيا و ميتا .

اعتقدت للحظة أن كسل صلاح الإبداعى قد يكون وراءه عدم استقرار عائلى.. فطرحت الفكرة على الفور ؟ قال عادل حمودة :

صلاح تزوج فى بداية حياته من ممثلة ليست شهيرة.. أنجب منها ابنه شريف وابنته تحية وسماها تحية على اسم تحية كاريوكا التى كانت قد ساعدت فى إخفاءه فترة هروبه من البوليس فى هذه الفترة ، أحب صلاح تحية وكان معجبا للغاية بطريقتها فى عمل الزيتون المخلل.. وقد طلب منها الزواج بالفعل لكنها رفضت.. دخل السجن بعد ذلك وعندما خرج وجد أن الحياة مع زوجته الأولى مستحيلة فطلقها ، أحب بعدها ابنة شاعر غنائى كبير تزوجها لكنها لم تكن قادرة على تحمل ظروف حياته المتقلبة بسبب السياسة وضغوطها فهاجرت إلى أمريكا وأصبحت تملك سلسلة مطاعم شهيرة هناك.. وفى النهاية تزوج من زوجته الثالثة هالة الحفناوى .

لم تؤثر عليه حياته الخاصة إذن ؟

ما حدث مع صلاح أكبر من ذلك.. فقد كانت موهبته تغريه بالكسل أو بمعنى أخر كان يثق أن موهبته الكبيرة ستسعفه فى أى وقت يريد.. لم يكن مشغولا بالشهرة ولا بالفلوس وكان كأى رجل موهوب بدلا من أن يضيع وقته يأخذ الموضوع ويصيغه من البداية.. ولم يكن يتنازل عن ذلك إلا لموهوب آخر يثق فى موهبته.. وقد حدث هذا معى فى روزا عندما عملت معه فى إعادة الصياغة.. كان يعطينى موضوعات محررين كبار جدا وفى سرية تامة كنت أعيد كتابتها مرة أخرى ، ولذلك كان سهلا على أن أعرف مستويات العاملين فى المؤسسة وعندما توليت أمرها بعد ذلك كنت أعرف كل شيء عن المستوى المهنى من يعملون معى .

وهل كان له دخل فى أن تصبح أنت تحديدا مسئولا عن روزا اليوسف ؟

عندما توليت روزا كان صلاح كاتبا متفرغا.. وأتذكر أننا كنا فى رمضان نفطر عند صديق مشترك فى الزمالك.. فى هذا اليوم قال لنا: إنه مصاب بسرطان الحنجرة.. شرح لنا المرض وكيف يعانى منه.. وكانت لدية قدرة كبيرة على التكيف مع الأشياء بعد أن نزلت معه وقفنا أمام باب العمارة حوالى ساعة وجدته يفاتحنى فى أمر روزا اليوسف ، كان قد رشحنى قبلها لأعمل مديرا لتحرير "الوادى" وعندما قال لى نحتاجك فى روزا قلت له : لست متفائلا بالإدارة الموجودة الآن .. وعندما سمع منى ذلك "شخط فى": نحن ربيناك فى روزا حتى لا يأتى يوم ويقطع خلف هذه المؤسسة.. فأنت الوحيد الذى تستطيع أن تصنع أجيالا جديدة تجدد شبابها وتمنحها القدرة على الصمود.. ونحن لا نريدك أن ترفع توزيع المجلة ، فهذا أمر سهل.. لكن نريدك أن تخلق أجيالا جديدة .

وهل حدث ما أراده صلاح حافظ ؟

بالفعل حدث وقد نجحت فى صنع أجيال اخترتهم من عدد كبير كان يعمل فى المؤسسة ، ننفق كثيرا على مكافأة هذه الأجيال.. كان هذا هدف أساسى.. لقد

توليت روزا اليوسف بعد عام كامل من حديثى مع صلاح حافظ.. سافر هو إلى السويد ليجرى جراحة عاجلة.. لكن السرطان كان قد سيطر عليه.. وللأسف لم يشهد ماذا فعلت فى روزا .. فقط ذهبت إليه بعد شهرين بعدد من روزا وعليه صورة السادات بالأبيض والأسود وهو يصلى فأشار إلى المجلة،بأصبعه علامة الإعجاب وأعتقد أنه كان سعيدا لأن روزا دخلت مرحلة تألق جديدة على يد شخص كان تلميذا له فى يوم من الأيام.. فصلاح كان يؤمن بأن نجاح تلاميذه نجاح له شخصيا .

بقى أن أقول شيئا: فعندما جلست مع عادل حمودة لأسمع منه عن صلاح حافظ كنت أشعر بأن صلاح حافظ جالس معنا فى الغرفة.. يستمع لكل ما يحدث.. كان فى صوت عادل حالة من الحنين لأيام أستاذه طغت على المكان.. وأعتقد أنه لم تنته رغم أن الحوار نفسه انتهى .

الكفيـــل

19

الكفيــل

هى فكرة التقطتها أثناء حوار طويل دار بينى وبين الكاتبة الكبيرة صافى ناز كاظم ، كانت تتحدث عمن عرفتهم وعملت معهم خلال مشوارها الصحفى الطويل، وعندما جاء الدور على أحمد بهاء الدين تغيرت نبرتها الحادة واكتسى صوتها برداء من الحنين ، قالت : لقد تعرفت على بهاء فى فترة كان يحتاج كل صحفى شاطر إلى كفيل يحميه.. وكان بهاء بالنسبة لى كفيلى.. وكانت تعجبه كتاباتى .

أعجبتنى كلمة "كفيلى".. وأعجبتنى أكثر أن يكون كاتباً كبيرا كفيلاً لصحفيين صغار يحميهم من سخافات المهنة ويقيهم من رذالات أنصاف موهوبيها، حملت صافى الجميل لبهاء الدين.. اعترفت له بالعبقرية والذكاء وهى قليلاً ما تفعل ذلك مع أحد.. فعندما كنت أتصفح أعداد مجلة الهلال القديمة وجدت مقالا لصافى ناز فى عدد مارس ١٩٨٨.. أى منذ ستة عشر عاماً.. قالت فيه صافى : منذ أن عرفت الأستاذ أحمد بهاء الدين وهو صديق عزيز اختلف معه سطحياً فى بعض الأمور أو جذرياً فى معظم الأمور ، لكنه ظل صديقاً عزيزاً اختلف معه سطحياً فى بعض الأمور أو جذرياً فى معظم الأمور ، لكنه ظل صديقاً عزيزاً على المستويين الإنسانى والثقافى ، والحقيقة أن اختلافاتى معه نشأت بعد أن توثقت علاقتى الثقافية والصحفية به ، والغريب أن هذه العلاقة الوثيقة تمت بعد أول لقاء معه .

وتحكى صافى ناز عن هذا اللقاء تقول : ذهبت أستطلع رأيه فى موضوع صحفى كنت أعده لمجلة الجيل الجديد.. التى كانت تصدرها أخبار اليوم ولا أذكر من التفاصيل سوى أننى انبهرت بالأستاذ بهاء لفرط ذكائه إذ أنه الوحيد من بين

من اخترتهم لموضوعى الذى اكتشف أن القطعة الأدبية التى كنت أقدمها على أنها من كتابتى مأخوذة من كتاب قديم لتوفيق الحكيم .

كانت فكرة موضوع صافى ناز أنها تريد أن تستشف هل الآراء النقدية تقدم رأيا فى العمل الأدبى بغض النظر عن مؤلفه أم أنها تتأثر بالرأى المسبق فى الكاتب نفسه ، كان من بين من سألتهم صافى العقاد وإحسان عبد القدوس الذى قال لها إن القطعة ركيكة وأنها باعتبارها المؤلفة بحاجة إلى المزيد من القراءة.. وتكمل صافى حكايتها: كان عنوان الموضوع آراء مثيرة فى أسلوب توفيق الحكيم.. المهم أن الأستاذ بهاء هو الوحيد الذى لم تنطل عليه اللعبة ونظر لى من فوق نظارته وهو يقول : أنت عاوزة رأيى فى أسلوب توفيق الحكيم .

عملت صافى ناز كاظم بعد ذلك خمس سنوات تحت رئاسة بهاء الدين فى مجلة المصوريين عامى ٦٦ و ١٩٧١ وكانت من أخصب سنوات عملها الصحفى، تبلورت فيها شخصيتها كناقدة للمسرح والأدب .

وكانت تكتب مستحضرة خلاصة دراستها المتخصصة فى نقد المسرح وخلاصة قدراتها على التعبير البعيد عن التقليد والدارج عند حسن ظن مستوى التذوق الرفيع الذى يتمتع به رئيس التحرير أحمد بهاء الدين .

لم يكن أحمد بهاء الدين كفيلا لصافى وحدها ولكنه كان كفيلا لأجيال عديدة وقف وراء إبداعها وساند تألقها.. عندما بدأ صلاح جاهين العمل معه فى مجلة صباح الخير أعطاه واحدة من رباعياته ، كتبها صلاح دون أن يعرف جنس هذا اللون الأدبى الذى كتبه.. لكنه وجد أن بهاء احتفى بها ونشرها فى مكان بارز.. بل طلب منه أن يكتب له رباعية كل أسبوع ليزين بها صفحات صباح الخير.. لتخرج بذلك مئات الرباعيات التى كتبها صلاح جاهين إلى النور ولتصبح كتاباً للحكمة يتداوله المصريون جيلا بعد جيل يحمل بصمة صلاح ومساندة بهاء .

أحمد بهاء الدين لم يكن كفيلا لمن معه من الصحفيين والكتاب.. ولكن امتدت رعايته إلى الشعب المصرى الذى يحس به ويضع نفسه فى خدمته طوال الوقت.. كان واحداً منه.. لقد نشأ بهاء أبنا لموظف صغير أيام عز الموظفين لكنه نشأ

شديد الحساسية لمشكلة الفقر والحرمان الإنسانى قبل أن يقرأ أو يتعلم.. ومع الزمن صار أحد ملامح تفكيره الوقوف مع قضايا الفقراء فى بلد أغلبيته من أهل الفقر.. وتعلم طوال حياته أن كل الصراعات الإنسانية تبدأ من لقمة العيش ، وهذا جعله يؤثر التفكير الاشتراكى على غيره من مذاهب سياسية وفكرية .

ولأنه كان كفيلا حقيقيا.. فقد كان يتحمل مسئولية كاملة.. صحيح أنه لم يدخل السجن ولا مرة فى حياته وكانت له فى ذلك وجهة نظر صريحة للغاية.. فلم يكن أحمد بهاء الدين يكتب ليسجل مواقف عنترية. بل كان يكتب كى يصل ما يكتبه إلى الناس ، ولم يكن مهتما أن يسجن حتى يقال إنه بطل أو شجاع أو مناضل أو مجاهد كبير .

مرة واحدة فقط كاد أحمد بهاء الدين أن يدخل فيها السجن.. رفع وقتها مذكرة احتجاج إلى الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٨ يرفض فيها فرض الرقابة على الصحف بعد هزيمة ١٩٦٧.. كان وقتها نقيباً للصحفيين ، اجتمع مع زملائه أعضاء مجلس النقابة وقرروا رفع مذكرة إلى عبد الناصر.. وكانت نقابة الصحفيين هى النقابة الوحيدة التى فعلت ذلك.. وفجأة جاءت التعليمات من الاتحاد الاشتراكى لكل النقابات بألا تعلن أى بيانات.. واتصل مسئول كبير ببهاء وأبلغه التعليمات ، كان قد اجتمع بمجلس النقابة فى الصباح على أن يعود للنقابة فى المساء ليعلن البيان ، قبل أن ينزل للنقابة اتصل به المسئول الكبير نفسه وقال له: لا تلق بيان حتى لا تزيد النار اشتعالاً ، أصر بهاء على موقفه وقال للمسئول: إما أن تتركنى اتصرف وأنا أعلم نتيجة تصرفى وسأكون المسئول عنه.. وإما أن تقول لى اجلس فى بيتك وأنت غير مسئول عن النقابة ويتولى الاتحاد الاشتراكى الإشراف عليها.. بل يصبح المسئول عنها.. وأكد بهاء للمسئول الكبير أنه إذا لم يتصل به حتى الساعة الرابعة- وكان موعد اجتماع النقابة الساعة السادسة- فسوف ينزل إلى النقابة ويلقى البيان .

لم يتصل المسئول وذهب بهاء إلى النقابة وألقى البيان.. وفى الليلة نفسها رفع تقرير إلى جمال عبد الناصر يوصى بضرورة اعتقال بهاء الدين.. لكن عبد الناصر تأكد أن بهاء ليس معبراً عن أحد بل هو يعبر فى النهاية عما يراه دائماً

منحازاً للناس كلاً وتفصيلاً لذلك لم يدخر جهداً فى الدفاع عما يؤمن به.. حتى سقط مصدوما عندما وجد نفسه وحيدا يدافع عن قضية فلسطين.. التى كانت نقطة ارتكاز فى حياته .

لقد قرأت عن أحمد بهاء الدين قبل أن أقرأ له.. وجدت حالة من الاجماع عليه تثير الانتباه.. خاصة أننا نعيش فى وسط صحفى وثقافى لا يتفق على شيء اللهم إلا الأتفاق على الأختلاف ، وبقدر ما بهرتنى تلك الحالة.. علقت فى ذاكرتى جملة قالها الروائى محمد مستجاب فى إحدى احتفاليات جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين، قال : إن أحمد بهاء الدين هو الكاتب الوحيد فى مصر الذى لم تبقر السلطة بطنه.. قال الكلمة وترك لمن يسمعها تحديد مدلولها.. لقد تعامل أحمد بهاء الدين مع ملك وأربعة رؤساء حكموا مصر.. لكنه كان يخرج من التجربة فى كل مرة محتفظاً بنفسه.. لم يقدم تنازلات.. لأنه فى الأساس لم يكن يطمح إلى تحقيق مكاسب .

لقد ظل أحمد بهاء الدين - وحتى أيام وعيه الأخيرة - قارئا دائماً لكل ما يقع تحت يديه.. بل أنه كان يعتبر نفسه قارئا فى المقام الأول.. وليس دوره إلا أن ينقل لجمهوره ما يقرأه.. دون وصاية عليهم ، ولذلك كان بهاء متنوعاً وثرياً يكتب فى التاريخ بنفس الحماس والحرارة التى يكتب بها يومياته عن قضايا عصره.. ويشرح للناس أعقد المسائل السياسية بنفس البساطة التى يتحدث بها عن المرأة وكيف يكون الدخول الآمن إلى محرابها.. يدخل بقلمه فى جسد السلطة يمزقه.. ويكشف عن الورقة التى تستر عورته.. لكنه يتنازل فورا عن أى إشارات بطولة تأتيه لو كانت زائفة .

ليس من عادتى البكاء على ما فات.. ولا أتمتع بالحنين إلى الماضى.. فهو فى النهاية لا يصنع مستقبلا وحتى عندما قالت لى صديقتى منال لاشين التى تعتبر نفسها تلميذة لبهاء.. إننى لو كنت قابلت بهاء كانت أشياء كثيرة لدى تغيرت.. لم أهتم كثيرا بما كان سيتغير داخلى.. لكنى فجأة وعلى غير عادتى.. وجدتنى فى شوق إلى حوار طويل مع كاتب منحه الجميع ثقتهم.. فلم يخنها.. أجمعوا عليه فاكتفى بتحيتهم عبر ابتسامة هادئة.. لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .

الراهب اليتيم

20

الراهـب اليتيـم

عندما تجلس أمام البابا شنودة وتنصت لحديثه وتتأمل مواعظه وتراقب تعبيرات وجهه لا تستطيع أن تأخذ موقفاً محدداً منه، ففي اللحظة التي تقرر أن توافقه على كل ما يقوله تجد نفسك مضطراً لأن تختلف معه في بعض ما يقوله، وفي اللحظة التي تستفزك بعض تصريحاته تجده يخفف عنك بمداعباته وقفشاته التي لا يتردد عن إلقائها وهو يقدم مواعظه الروحية لشعبه.. لكنك في كل الأوقات لن تقاوم نفسك فلابد أن تحبه وتعجب به.. فهو يملك قلب طفل ووجه ملاك.

يحمل على كتفيه أكثر من ثمانين عاماً، فهو مولود في ٣ أغسطس ١٩٢٣ لكنه يملك خبرة من عاش قروناً طويلة.. ويتحدث بحكمة من اختزن تجارب البشر جميعاً في ذهنه، يجلس في منطقة خاصة للغاية في قلوب الأقباط فهو الأب الروحي لهم جميعاً.. وفي الوقت ذاته يعتز المسلمون جميعاً به، فهو مواطن مصري منهم.. يعيش مشاكلهم ويتعايش مع همومهم.. يقف على خط واحد من قضاياهم الكبرى.. يدعو في كل صلاة أن يخفف الله عنهم ما يعانونه.. ويدخر صلواته المقبولة ليرفعها إلى السماء حتى تظل مصر صامدة قوية كما عرفها وتعرف عليها.. فهو سعيد بانتمائه إلى مصر لأنها الأرض الوحيدة التي زارها المسيح عليه السلام في رحلته المقدسة.

منذ جلس على الكرسي البابوي في ١٤ نوفمبر ١٩٧١ ورغم هدوئه الظاهر.. فإنه بعث في الشارع المصري حالة من الحيوية والصخب اثنين وثلاثين عاماً لم يهدأ فيها، وضع عشرات الكتب وأطلق مئات التصريحات وعقد آلاف الجلسات مع السياسيين والمسئولين والرؤساء، وفي كل مرة لم يكن يضيق بالمعارضة أو النقد أو الحوار.. بل إنه عاش بمنهج وضع تفاصيله فهو يرحب بالحوار.. لكنه يرى أنه ليس من المصلحة أن يكون الحوار في شئون الكنيسة الداخلية في الصحف.. لأن الكنيسة أسرة لها خصوصياتها التي لا يصح أن تنشر

على الملأ وإذا كان لابد من الحوار فلا مانع من أن يتم فى جو من الحب والرغبة فى التعاون.

لقد وضع البابا شنودة تقليداً جديداً منذ عدة سنوات ففى كل اجتماع له سواء الاجتماع العام الأسبوعى فى الكاتدرائية الذى يعقد يوم الأربعاء أوالاجتماعات التى يعقدها لكل الأقباط فى الإسكندرية كل أسبوعين يتلقى أسئلة فى نواحى مختلفة دينية وشخصية وعائلية ويسود الجو نفسه فى لقاءاته مع الآباء والكنهة، بل إنه عندما يختار كاهناً جديداً يعقد اجتماعاً مع شعب الكنيسة ويستمع إلى رأيهم فيه ويوزع عليهم أوراقاً، وكل شخص يذكر رأيه بصراحة وسرية.

ولا يعطى البابا أذنه لأى عابر ففى الوقت الذى يرحب فيه بكل ما يوجه للكنيسة من ملاحظات فإنه يعتقد أنه ليس كل قبطى قادراً على مناقشة قوانين وأنظمة الكنيسة لمجرد أنه قبطى ولكن لابد لمن يريد أن يعارض أن يدرس ويعرف دقائق وتفاصيل وتاريخ هذه القوانين والأنظمة قبل أن تسارع فى الحكم عليها.. هذا المنهج الذى تحدث البابا شنودة عن مبرراته أكثر من مرة.. جعل عدداً من مثقفى الأقباط يقف على ضفة الرأى الأخر التى تخالف رأيه، لا يعتبر هؤلاء خصوماً فهو ليس خصماً لأحد. لكنه يذهب إلى أن الذين يمثلون المعارضة فى الكنيسة يقولون إنه ليس هناك بشر معصوم من الخطأ.. ولذلك فهو يسألهم لماذا تعارضون إذن إذا أخطأ أحد الآباء الكهنة وقدم إلى المجلس الأكليركى فحكم عليه المجلس بالإيقاف من خلال الوقائع.. فهل هؤلاء سلطة فوق الكنيسة، أم أنهم أكثر علماً ودراية بالوقائع التى بحثها وحقق فيها المجلس الإكليركى؟

وقف البابا شنودة بحسم أمام كل الذين عارضوا الكنيسة ليس لأنه غير ديمقراطى فهو يؤمن بالديمقراطية لكن على طريقته التى يلخصها فى عبارة قرأها فى طفولته "الجوستاف ليمو" كانت تقول: "تعطى الحقوق للشعب بقدر ما يصل إليه النضج".. ولذلك فهو يعيب على معارضيه أنهم لا يعلمون حيث يتجرءون على الكلام.. فهم لا يعرفون الفرق بين الراهب والكاهن.. وهم يريدون أن يجعلوا أمور الكنيسة الداخلية مضغة فى الأفواه وحتى يغلق الباب على هذا الملف فهو يجزم بنعومة أنه ليست هناك معارضة للكنيسة.. وكل ما يحدث مجرد مبالغات

من أفراد يسعون إلى أهداف شخصية وهم لا أثر ولا تأثير لهم فى المحيط القبطى.. وهذا طبيعى فهناك دائماً من يختار لنفسه أن يقوم بدور الشرير!

مئات المواقف كان فيها البابا شنودة صلباً لا يلين.. وكلما تعرض لمشكلة وتعامل معها أعاد إلى الأذهان وبصورة مكبرة تفاصيل صراعة مع الرئيس السادات، وهو الصراع الذى بدأ مبكراً للغاية الرواية على ذمة هيكل الذى يقول: "بدأ أول احتكاك بين البابا شنودة والسادات بعد ستة أشهر فقط من انتخاب البابا، وكان سبب الاحتكاك هو السبب التقليدى القديم، كنيسة قامت بغير ترخيص فى الخانكة وكان قيامها بنفس الطريقة القديمة، قطعة من الأرض اشتريت وأحيطت بسور من الدكاكين ثم أصبحت الأرض الفضاء فى قلبها ملعب ثم مدرسة ثم ملتقى دينى ثم جاء المذبح ذات ليلة ودشنها أحد الأساقفة وفتحت لإقامة الصلوات وطبقت وزارة الداخلية أحكام الخط الهمايونى القديم ومنعت استعمالها للغرض الذى كان مقرراً لها.

لم يسكت البابا شنودة أصدر أمراً فى اليوم التالى لتصرف وزارة الداخلية إلى مجموعة من الأساقفة بأن يتقدموا موكباً ضخماً من القسيسين ويسيروا صفاً بعد صف فى زحف شبه عسكرى إلى ما بقى من مبنى الكنيسة ثم يقيموا قداساً حتى بين أطلاله ، كانت الأوامر أن يواصل الأساقفة التقدم مهما كان الأمر حتى إذا أطلق البوليس عليهم نيران البنادق ، حاول البوليس أن يتعرض لمواكب الأساقفة والقسيسين لكن الموكب مضى حتى النهاية.

غضب السادات من تصرف البابا شنودة واعتبره تحدياً ونكراناً للجميل فقرر أن الموضوع يحتاج إلى مواجهة مباشرة مع البابا، وقال وقتها لهيكل إننى قررت أن أفجر المسألة الطائفية وأن أشرح لأعضاء مجلس الشعب تفاصيل ما يجرى وأطلب منهم اتخاذ ما يرونه من قرارات.. ولم يذهب السادات إلى مجلس الشعب لكنه ذهب إلى المقر البابوى وفوجئ هناك بحفاوة بالغة بدأها البابا شنودة بتحيته قائلاً: أهلا بك أبا لكل الشعب انتهى الاجتماع بأن قال السادات للبابا، إن عبد الناصر وضع تحت تصرف البابا كيرلس تصريحات بناء ٢٥ كنيسة جديدة وسوف أضع تحت تصرفك أنت تصريحات بخمسين.

سارت العلاقة بين البابا والرئيس على نحو جيد.. ففى عام ١٩٧٨ أهدى مجلس الكنائس الميثودى العالمى بأمريكا جائزة السلام للرئيس السادات وهى

عبارة عن ميدالية ذهبية، احتفل البابا شنودة بهذه المناسبة فى حفل حضرة ١٢ مسئولاً بينهم رئيس الوزراء ونوابه والوزراء وشيخ الأزهر وبعد الاحتفال قال له السادات هذه الميدالية لم أجد شخصاً يستحقها إلا أنت، احتفظ بها البابا شنودة حتى الآن وإلى جوارها رسالة خاصة من الرئيس جاء فيها: قداسة الأنبا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية تحية طيبة وبعد، فقد أهدى المجلس الميثودى العالمى جائزة السلام لعام ١٩٧٨ إلينا تقديراً لجهودنا لاقرار سلام عادل ودائم فى المنطقة التى شهدت خطى الأنبياء ورسالات السماء ولما كان شعبنا من مسلمين ومسيحيين قد عاش على أرضنا السمحة نبضاً واحداً وكتيبة نضال واحدة من أجل الحق والعدل والسلام وانطلاقاً من روح المحبة والتآخى التى تجمع بين مسلمى ومسيحيين مصرنا العريقة فإنى أهدى إلى قداستكم الميدالية الذهبية الخاصة بهذه الجائزة للاحتفاظ بها فى المكان الذى ترونه مناسباً، وإنى أدعو الله تعالى أن يسدد على طريق الخير خطانا ليتحقق لشعبنا العريق كل ما يصبو إليه من حياة حرة كريمة.

رد البابا شنودة التحية بأحسن منها وفى رسالة وجهها إلى الرئيس السادات قال فيها: تلقيت بمزيد من الشكر الميدالية الذهبية التى اهديت إلى سيادتكم من مجمع كنائس الميثوديست تقديراً من المسيحيين فى الغرب للمجهود الكبير العملى المخلص الذى قمتم به من أجل السلام فى شجاعة تستحق الإعجاب وشاءت محبتكم من منطلق روح المحبة والتآخى التى تجمع بين المسلمين والمسيحيين أن تهدوا إليها هذه الميدالية ولقد وقفت أمام محبتكم ولمساتكم الإنسانية العميقة مبهوتاً مدة طويلة ولا يسعنى إلا أن أشكر مشاعركم النبيلة وعملكم لأجل الوحدة الوطنية، كما يفرحنى أن أشيد بجهودكم لاجل السلام التى استحققتم عليها عن جدارة تقدير العالم فى جائزة نوبل وتقدير رجال الدين المسيحى التى عبرت عنه هذه الميدالية، إننا نصلى أن يحفظكم الرب وينجح طريقكم ويديمكم لمصر وللحق والسلام وستحفظ هذه الميدالية فى قلوبنا وذاكرتنا، كما نحفظها فى المقر البابوى رمزاً وتقديراً!

هذه الصداقة تحولت إلى خصام دفع السادات إلى إصدار قرار جمهورى بعزل البابا شنودة وتحديد إقامته فى دير الأنبا بيشوى، كان البابا قد وصل إلى الدير قبل قرار السادات بأسبوع.. لكن فجأة تمت محاصرة الدير بقوات عسكرية ضخمة لمنع خروج البابا ومنع اتصاله بالشعب القبطى.. لم ينزعج البابا من القرار فرغم صدوره فإن الأقباط ظلوا يعتبرونه هو بطريركهم الرسمى ويصلون ويذكرون اسمه فى الكنائس وكأن شيئاً لم يحدث.

ظل البابا شنودة فى دير الأنبا بيشوى حتى ألف ستة عشر كتاباً ، وتمنى أن تطول فترة حصاره حتى يتم باقى كتبه لكن القدر لم يمهله فقد قتل السادات وخرج البابا شنودة منتصراً من الحصار الذى فرضه عليه رأس الدولة ، كان لابد أن يحدث هذا الصراع وكان لابد أن يظل البابا شنودة صلباً لا يتزحزح عن موقفه والعلة عند هيكل فهو يرى أن الصراع بين الرجلين كان متوقعاً بل محتوماً لأن كلاً منهما كان فيه شيء من الآخر على الأقل من ناحية الإحساس بالذات التى كانت بادية فى شخصيتيهما.

هناك زاوية أخرى فى شخصية البابا شنودة ربما لم يرها هيكل بوضوح، ففى نظرات البابا عندما تتأمل عينيه حنان عميق.. يريد أن يوزعه على كل من حوله حتى يفيض به عليهم ولعله يعكس بذلك إحساساً غامراً شمله من صغره باليتم والفقد لحنان الأم.. ففى قرية السلامية التابعة لمحافظة أسيوط وبعد ساعات من ميلاد البابا شنودة أصيبت أمه بحمى النفاس وأسلمت الروح إلى الله لم يلتفت له أحد.. تركوه حتى أدوا واجب الفقيدة.. وعندما عادوا إليه بدأوا التفكير فى رعايته كانت أول سيدة ترضعه جارة مسلمة كانت تقدم العزاء.. ثم تولت شقيقته الكبرى المتزوجة إرضاعه حتى دبر والده له بعض المرضعات.

ولد البابا شنودة الذى حمل أسم "نظير جيد" لأسرة ثرية، كان والده جيد روفائيل قد ورث ١٢٠ فداناً فى قرية السلامية مركز أسيوط وكان جده لأبيه عمدة القرية يملك ٥٠٠ فدان من أجود أراضى الصعيد، وكانت والدته "بلسم جاد" من أبنوب الحمام تملك أرضاً ورثتها عن والديها تزيد على ٣٠ فداناً.. ورغم ذلك

كله فإن الطفل نظير جيد كان يشعر بالحرمان.. لدرجة أنه قال: ظللت أشعر بشعور الفقر فى كل مراحل حياتى، فلم يذق حلاوة أن تكون أمه إلى جواره.

لقد حاولت زوجة أخيه الكبير روفائيل وكان اسمها جوليا حليم أن تعوضه عن فقدان أمه، كانت تسهر إلى جوار سريره إذا مرض ولم تكن تفرق بينه وبين ابنها الصغير عادل.. ولذلك كان ألمه شديداً.. وهمه عميقاً عندما توفيت جوليا عام ١٩٦٧.. فقد شعر وقتها أن أمه ماتت للمرة الثانية.. ،إلى الآن.. وكما يقول رجب البنا فى كتابه الأقباط فى مصر والمهجر فإن البابا شنودة عندما يتذكر زوجة أخيه بفيضان مشاعرها وحنانها وتغشى وجهه سحابة من الحزن النبيل.

يتم البابا شنودة واحتياجه للآخرين الذين رأى أنهم أصحاب فضل عليه، جعله يتعامل مع أشقائه الكبار باحترام ربما يصل إلى حد التقديس فشقيقه الأكبر "روفائيل" كان لا يناديه إلا ويسبق أسمه "بالأستاذ" وحتى شقيقه الثانى شوقى كان يقول له "أخويا شوقى" رغم أن فارق السن بينهما كان خمس سنوات فقط، هذا كان هو تأثير اليتم على البابا شنودة فى بيته، أما خارج البيت فكان الأثر عظيماً.. قرر أن يصبح الأول دائماً.. أن ينظر إليه الآخرون بإعجاب واحترام وتقدير لقد دفع الإحساس باليتم بطلنا إلى أن يحقق المعجزات.. ولا يتصدى إلا للأعمال العبقرية.. عندما يدخل فى صراع لا يتراجع مهما كان الثمن.. ويصل إلى هدفه حتى لو لاقى فى طريقه إليه كثيراً من الصعاب والعقبات.

محطات حياته الكثيرة تقول ذلك فقد تخرج فى قسم التاريخ فى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ بتقدير امتياز وفى نفس العام تخرج فى كلية الضباط الاحتياط وكان ترتيبه الأول فى مدرسة المشاة ولما كانت الدراسات الدينية تغازله منذ صغره، فقد التحق بالكلية الإكليركية ليتلقى علومها على أسس منهجية سليمة لكنه أدرك أن الوقت طال ولابد أن يعول نفسه فعمل مدرساً فى مدارس وزارة التعليم صباحاً وقبل أن يلتقط أنفاسه التحق بالدراسات العليا فى الكلية الإكليركية حتى يؤهل نفسه تأهيلاً علمياً وثقافياً ودينياً.

كان البابا شنودة مدركاً منذ البداية لدوره فى الحياة.. كانت حياة الرهبنة تناديه منذ البداية ، ففى الوقت الذى كان يدرس فيه فى الكلية الإكليركية أخذ يتردد على الأديرة القبطية التى وجد فيها راحة نفسية استهوته فتعمق فيها.. ولذلك ودع

حياة المدرس والضابط وذهب إلى دير السريان بصحراء وادى النطرون حيث ترهبن وحمل اسم أنطونيوس السريانى.. ومن بين مآثره أنه قضى فى مغارة بالقرب من الدير إحدى عشر عاماً لم يغادرها مرة واحدة منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٣ قضاها فى التأليف والترجمة ونسخ المخطوطات الأثرية ودراستها وإعادة كتابتها حيث اشترى مطبعة صغيرة مع عدد من الرهبان وقام بنسخ المخطوطات القديمة وبيعها بأسعار التكلفة.

خرج انطونيوس السريانى من المغارة بعد أن صفت روحه.. أصبح روحانياً تغذيه تأملاته فى الدنيا والآخرة.. بل إنه خرج شاعراً رقيقاً وكاتباً متمكناً.. رأس تحرير عدة مجلات دينية ودخل نقابة الصحفيين وهو حتى الآن عضواً عاملاً بها.. يعتز بذلك ويداعب الصحفيين كلما تلقى بهم.. فهو صحفى مثلهم ويفهم ألاعيبهم وحيلهم للايقاع بتصريحاته ليخرجوا بعنوان ساخن أو تقرير درجة حرارته مرتفعة.

اختاره البابا كيرلس أسقفاً للتعليم الدينى.. وعندما تحمل هذه المسئولية أداها كما يرى هو لا كما كان يراها الآخرون فعقد حلقات دراسية منتظمة حضرها عدد كبير من الشباب كانت تضيق بهم مدرجات الكلية الإكليركية.. فانتقل بمحاضراته إلى الكاتدرائية التى شهدت نفس الزحام، وفى عام ١٩٧١ اختير بابا وبطريركا للأقباط الأرثوذكس.. ليصبح أسمه البابا شنودة الثالث وليدين له بالطاعة جميع رجال الدين القبطى الأرثوذكس فى مصر والنوبة والسودان والحبشة والخمس مدن الغربية وفى أسيا وفى القدس والكويت وفى أوربا وأمريكا واستراليا.. فللأقباط هناك جاليات كثيرة الآن.

على يد البابا شنودة شهدت الحياة القبطية ازدهاراً لم تشهده على أيدى الباباوات الذين سبقوه فقد اقيمت بمباركته الكاتدرائيه المرقسية الكبرى بشارع رمسيس بعد أن كانت مجرد قصر صغير متواضع للغاية فى كلوت بك، وفى وسطها أقيم المقر الباباوى الذى يعتبره الأقباط بيتا للشعب ، كله كما أعاد البابا تعمير وتوسيع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية والتى كانت تعتبر المقر الرئيسى للبابا.

يد العمران لم تتوقف عند القاهرة والإسكندرية.. لكنها حلت على مختلف المحافظات لتشمل كافة الأديرة والإيبارشيات، كان البابا يعرف أن تعمير الأديرة

ليس بالأمر الهين فأغلبها يرجع إلى القرن الرابع الميلادى.. لكنه قبل التحدى وبعد أن دخل العمران إلى الأديرة أصبحت مقصداً لآلاف من الشباب الذين تركوا الحياة المدنية وسلكوا طريق الرهبنة.. مفهوم الرهبنة عند البابا شنودة يختلف عنه عند الآخرين.. فالكنيسة عنده لابد أن تلتحم بالمجتمع تتحاور معه.. تعمل من أجله.. فهى جزء لا ينفصل عن الناس ومشاكلهم.. دفع هذا البابا إلى إنشاء المكتبات العامة داخل الأديرة وحول مساحات واسعة من الصحراء الصفراء إلى أرض زراعية تنتج الخضراوات والفواكه واللحوم والدواجن التى تباع إلى الفنادق السياحية وفق تعاقدات أبرمتها الأديرة مع هذه الفنادق.

ليس هذا فقط ففى الأديرة الآن مستشفيات يعمل فيها أطباء من الرهبان لتقديم خدماتها إلى كل عابر سبيل أو مصاب فى حوادث الطرق التى تقع إلى جوار الأديرة.

ما فعله البابا شنودة فى مصر فعله خارجها، فعلى يديه تم إنشاء دير على مساحة ستة أفدنه ونصف الفدان فى نيوجرسى بأمريكا يضم داخل جدرانه ٣ أبنية أحدها كنيسة والمبنيان الآخران للنواحى الإدارية وأماكن للإقامة، كما تم إنشاء مبنى آخر فى نيوجرسى لإدارة ورعاية أقباط المهجر من المصريين.

كان أقباط المهجر قبل تولى البابا شنودة مسئولية رئاسة الكنيسة القبطية يستأجرون كنائس لإقامة صلواتهم داخلها عندما يجدون كاهناً أو قسيساً ليقيم لهم الصلاة بالصدفة أما الآن فقد استطاع البابا شنودة أن يقيم حوالى ٢٠٠ كنيسة تحتل أماكن مميزة داخل قارات أوروبا وأمريكا وأفريقيا واستراليا وآسيا وهى جميعها تعتبر أملاكاً مصرية خالصة.

هو بناء عظيم إذن بعث الحيوية فى شرايين الحياة فى مصر ليس فيما يخص الأقباط فقط ولكن فيما يخص المسلمين أيضاً، لا يهدأ ولا يستريح يعمل بدأب غريب حتى الآن ورغم سنوات عمره الثمانين لكنه يعمل بروح شاب. لا ينسى أنه جاء الدنيا ليضيف إليها حتى ذكره الجميع بخير.. وليسجل الطفل اليتيم الذى حرم من حنان الأم بسمة فى كتاب كل من يعرفهم حتى يمسح عن جباههم قطرات الحزن التى تورثها لهم الحياة التى لا ترحم.

الغامض الكبير

21

الغامض الكبير

مثل بئر عميقة لا تبوح بأسرارها لأحد يعيش أحمد رجب.. تقرأ له صباح كل يوم نص كلمة.. التى يلخص فيها المشهد المصرى كله.. وصباح السبت تقتحمك "الفهامة" التى يسقط فيها كل الحجب السياسية والاجتماعية ساخراً من حكومة لم تكتف بأكل لحومنا لكنها واصلت مصمصة عظامنا.. وقبل أن ترفع عينيك عن صفحة أخبار اليوم ينتظرك فلاح كفر الهنادوة بمكره ودهائه وسخريته الكامنة فى كلماته التى تبدو بسيطة.. لكنها بساطة الحكماء وحكمة المطجونين فى الأرض.. وفى رحاب أحمد رجب ستجد أيضاً عشرات الشخصيات الكاريكاتورية.. وعشرات الكتب.. بعضها جمع كثيراً من مقالاته.. وبعضها خرج من رأسه إلى المطبعة إلى القارئ.. الذى هو عند أحمد رجب وعند غيره سيد الموقف.

هذا الزخم قد يجعلك تعتقد أنك تعرف أحمد رجب جيداً.. لكن لو فاجأت نفسك وسألتها: ماذا تعرف عن أحمد رجب؟ لن تجد أية معلومات فى رأسك عنه.. فلا أحد يعرف من هو.. ماذا يحب وماذا يكره.. كيف يكتب وهل هو ساخر وخفيف الدم فى الحياة كما هو على الورق.. أم أنه يفرغ كل سخرياته فى كتاباته ويحتفظ بعد ذلك باكتئاب طويل تغذيه حالة وطن راكد.. لا يريد أن تحرك.. ولا يريد له أحد أن يتحرك..

أن أحمد رجب يكتفى بما يكتب.. لا يحرص أن يكون ضيفاً على القنوات الفضائية رغم كثرتها.. لا يرحب بالحوارات الصحفية رغم أنه مطلوب للجميع ومن الجميع.. أخباره تأتينا كما تأتينا أخبار نجوم المجتمع فى الفن والسياسة.. يفرض على عمله سياجاً من الخصوصية فجميع العاملين فى دار أخبار اليوم يعرفون أنه يدخل الغرفة ٥٣ كل صباح.. لكن ماذا يفعل فيها لا أحد يعرف.. كيف يكتب.. كيف يفكر.. هل يجلس فوق المكتب.. أم يجلس أسفله.. إن ما تنتجه

قريحة أحمد رجب لابد وأن يتم إيداعه بطريقة خاصة.. ولذلك من حقك أن ترسم أى صورة تريدها للحالة الإبداعية التى يكون عليها أحمد رجب وهو يكتب.. لكن كن على ثقة كاملة أن ما يحدث بالفعل عكس كل ما تصورته..

أحمد رجب فى النهاية ليس كتاباً مفتوحاً.. حتى ملامحه التى بناها خيرى شلبى عبر بورتريه طويل لن تستطيع أن تتواصل معها فهو عند خيرى "عفريت من الجن بملامح مفرطة فى الإنسانية.. وجه مربوع متوازن التقاطيع دقيق الملامح.. مريح للعين يشع بطيبة القلب" فالصوره القليلة التى نشرت له تقول عكس ذلك.. فهو حاد الملامح.. لا تستطيع أن تستريح له من النظرة الأولى.. وربما يمنع من يصافح وجهه للمرة الأولى أن يشعر بالراحة له أنه وقور لدرجة تتناقض تماماً مع هزلية ما يكتبه.. فتحدث الصدمة التى تفقدك سيطرتك على تكوين شعور معين وأنت أمام كاتب.. كنت تعتقد أنه لا يكف عن الهزار والضحك والتريقة.. فإذا بك تجده عابساً.. تسيطر على وجهه علامات الاكتئاب وإذا كان الكتاب يظهر من عنوانه.. فالكاتب يظهر من صوره.

اسمه الثلاثى أحمد إبراهيم رجب.. اسكندرانى.. ولد يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨.. دخل أخبار اليوم عام ١٩٥٢ بعد أن حصل على ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية قبلها بعام واحد.. تدرج فى العمل الصحفى من رئيس تحرير مجلة إلى مدير تحرير جريدة حتى أصبح فى النهاية كاتباً متفرغاً فى صحف أخبار اليوم.. كتب سيناريوهات عدد من الأفلام.. وله فى الإذاعة أعمال طريفة للغاية على قمتها "إنت اللى قتلت بابايا" و"شنبو فى المصيدة". لم يستيقظ أحمد رجب من النوم فوجد نفسه كاتباً ساخراً.. فحكايته مع الأدب الساخر بدأت عام ١٩٥٠ عندما كان طالباً بكلية الحقوق.. وقتها كان يرأس تحرير مجلة أسمها "أخبار الجامعة".. وكان يقوم بتحرير عمود ساخر اسمه "قاموس" كان يمارس فيه النقد بأسلوب ضاحك على النظام فى الجامعة وعلى الأساتذة والمعيدين، ومن أخبار الجامعة إلى مكتب أخبار اليوم فى الإسكندرية حيث عمل وهو طالب مقابل ٥ جنيهات شهرياً، ولا يمارس أحمد رجب سخرياته من باب هزلى كما يعتقد البعض، فالمصريون عنده شعب مرح ساخر بطبيعته والسخرية غير المرح.. فهى تحتوى على الألم ودفع الغير إلى التفكير معك، ولذلك راقب نفسك.. ففى كل

مرة تضحك فيها على ما يكتبه أحمد رجب ستجد نفسك مهموماً.. تحاصرك الأحزان.. فأنت تضحك على القفشة.. لكن ضحكك عليها لن يحلها ولن يخلصك منها.

وقد تعتقد أن أحمد رجب الذى يسخر من كل خلق الله رجل هلهلى.. فالساخرون فى الغالب فوضويون.. ينامون فى أى وقت.. ويستيقظون فى أى وقت.. يكتبون عندما يريدون وإذا أفرغوا آراءهم فى جلساتهم الخاصة فلا حاجة عندهم للكتابة.. فقد حققوا ما أرادوا.

أحمد رجب ليس كذلك.. خذ عندك مثلاً "نص كلمة".. يحافظ رجب على كتابتها يومياً من الساعة الثانية عشر إلى الواحدة ظهراً.. ولا يفعل ذلك إلا بعد أن يكون قد قرأ معظم الصحف والمجلات الصادرة فى نفس اليوم.. لينشط بذلك ذهنه.. وخلال كتابته لا يرد على تليفونات ربما يحدث له ما كان يحدث مع أستاذه على أمين.. أن يرن جرس التليفون فيقول: آلو .. مين معايا.. دون أن يرفع سماعة التليفون.

وقبل أن تعكر الغيوم صفو العلاقة بين أحمد رجب ومصطفى حسين – وهو ما حدث عدة مرات خلال السنوات الماضية – كانا يجلسان فى الواحدة ظهراً بالدقيقة والثانية ليضعا أفكار الكاريكاتير قبل تنفيذها بريشة مصطفى حسين.. كانت هذه الجلسة خاصة للغاية.. لا يسمح لأحد بحضورها، وحدث ذات مرة أن طلب أحد الوزراء حضور جلسة تحضير الكاريكاتير، حاول أحمد رجب أن يعتذر.. لكن الوزير أصر.. حضر الاجتماع وجلس على مقعد فى نهاية الحجرة صامتاً تماماً.. وعلى مدى ساعتين ونصف الساعة جلس الساخران يفكران.. انصرف الوزير زهقاً.. وبعد لحظات من انصرافه مزق أحمد رجب الكاريكاتير الذى رسمه مصطفى حسين.. فلحظات التكوين التى كانت.. لم يكن لأحد أن يطلع عليها قبل أن تنضج وتصبح جاهزة للعرض.

طقوس أحمد رجب لم تكن فى المواعيد وفرض حصار السرية على جلساته.. لكنه جعل من ضحكة مصطفى حسين فترة إبداعهما طقساً خاصاً.. لقد كانت ضحكة مصطفى حسين هى جواز مرور الكاريكاتير إلى المطبعة.. لم يكن أحمد رجب يقتنع إلا بضحكة حقيقية من مصطفى حسين وقد حدث كثيراً أن

مصطفى يكون مشغولاً أو يريد أن ينهى الرسم بسرعة فيضحك ضحكة مفتعلة.. كى تنتهى الجلسة.. لكن أحمد رجب يقول له: "لا .. أريد الضحكة الحقيقية".. الآن لا ضحكة حقيقية ولا ضحكة مفتعلة.

لا يتناول أحمد رجب أى منبهات.. يكتفى بفنجان قهوة واحد فى اليوم.. وفى شهر يوليو وأغسطس يأخذ أجازته السنوية.. كان ذلك عندما كانت الفصول فى مصر تعرف حدودها جيداً.. لكن عندما أصبح الصيف يشاغب الفصول الأخرى ويتعدى إلى حدودها تعدت أجازة أحمد رجب الشهرين إلى الشهر الثالث.. كانت هذه الاجازة تثير بعض القلق فى نظام العمل بين الثنائى "رجب – حسين".. فعندما يسافر أحمد رجب ينقطع للاستمتاع بوقته تماماً ولا يعمل.. بل يترك مصطفى حسين يرسم ويكتب أفكار الكاريكاتير بنفسه.. وعندما يسافر مصطفى كان ينسق مع رجب بالتليفون.. الآن وللمرة الثانية.. لا قلق ولا تنسيق.

فى كتابات أحمد رجب الاجتماعية رؤية نقدية حادة للغاية.. لكن هذه الكتابات لا تلمع مثلما تلمع كتاباته السياسية التى ينقض فيها على رموز السلطة مهما علت قاماتهم.. ولعل لذلك أسبابه العديدة.. فالناس وسط الهموم والمصائب التى تؤرق منامهم وتقلقهم فى مضاجعهم ليس لديهم قدرة على متابعة السخرية من النساء والحب والعلاقات الاجتماعية.. فالناس لا تملك رفاهية الابتسام والسلام.. لكنهم يتألقون مع السخريات السياسية.. يشعرون أن أحمد رجب ينتقم لهم من جلاديهم وسارقى أقواتهم.. يشعرون أن حامى حماهم يذود عنهم بالكلمات التى تتحول فى أيديه إلى سهام تصيب حيث تضرب.

ليس معنى ذلك أن أحمد رجب عند الجميع هو الفارس الذى لا يشق له غبار.. فهناك من قرائه المداومين عليه والذين يبدأون قراءة جريدة الأخبار بالصفحة الثانية حيث تسكن نص كلمة.. من يعتبرون أحمد رجب صديقاً حميماً للحكومة.. بل يبالغون عندما يجعلون منه مدافعاً عنها وسبباً قوياً لاستمرارها. فأحمد رجب بسخرياته اللاذعة وتجريساته المتتالية للحكومة بداية من رأسها إلى أقل وزير فيها حجماً وتأثيراً ينزع من الناس شحنة غضبهم وثورتهم وتمردهم وحنقهم على حكومة غير راشدة.. يضرب بدلاً منهم.. ويغرق دم الحكومة بدلاً منهم.. ولا يدع لهم شيئاً ليفعلونه إلا المشاهدة عن بعد.. أو المراقبة فى صمت..

لا يمنع هذا أن يحب الناس أحمد رجب ويحترموه ويوقروه.. فهو على الأقل يفعل شيئاً أى شىء.. وبهذا المنطق يحب الناس عادل إمام عندما ينفذ القانون بيديه ويقتل مغتصبى الأعراض والأقوات.. ويحبون نور الشريف عندما يضرب عساكر الداخلية ويدحرجهم على السلالم.. بل يصفقون له.. فهو يفعل ما يريدونه.. لكنهم يعجزون عن الإقدام عليه.

ليس ذنب أحمد رجب بالطبع أنه يطيل عمر سلبية الناس وكسلهم رغم أنه يريد إيقاظهم. ويبدو أنه فهم ذلك مبكراً.. فرد ساخراً عندما سئل لماذا تكتب قال: هناك عاملان يدفعاننى إلى الإبداع والخلق مصلحة الضرائب وزوجتى.. رد عبثى يصلح تعليقاً لواقع أكثر عبثية يعيشه أحمد رجب.. لكنه يرفض أن يعايشه.

لقد ظل أحمد رجب طول حياته مثيراً للزوابع.. فى الستينات مثلاً فكر فى طريقة لكشف المتحذلقين فى المسرح من نقاد وكتاب ومخرجين فنشر مسرحية "الهواء الأسود" فى مجلة الكواكب على أنها من ترجمته ومن تأليف الكاتب المسرحى السويسرى الشهير "دورينمات".. وحدثت الفضيحة.. بدأ كبار الكتاب والنقاد فى كشف مواطن جمال نص دورينمات.. وبعد أن قالوا كل شىء.. أخرج أحمد رجب لهم لسانه.. فالمسرحية من تأليفه هو.. ولا عزاء لكبار المتحذلقين.. ولذلك فإن رجب من يومه يعتبر أن جيل المؤلفين الكبار انتهى .. ليظهر النوابغ من عينة عبده جعدار وسلامة الاسترلينى ومحمود دولار.. وكان طبيعياً بعد ذلك أن تظهر الممثلة الأعظم والنجم الأفخم والمغنى الذى لا يشق له غبار.

وفى الثمانينات ومن خلال حديث ساخن فى أخبار اليوم تحدث أحمد رجب عن حلمه بان يكتب قصصاً للأطفال. كان قد خاض التجربة من قبل عندما بسط عشر قصص من كتاب "كليلة ودمنة" ورسمها له مصطفى حسين.. وبرر ذلك بأن الأطفال فى مصر محرومون من القلم المتخصص فى الكتابة لهم.. فبعد موت كامل كيلانى لم يظهر فى مصر كاتب للأطفال قال رجب كلمته ومضى. أشعل النار ولم يسأل بعد ذلك عن آثارها.. قامت قيامة كتاب الأطفال وعابوا على أحمد رجب ما قاله.. فهم موجودون.. لكنه قال كلمته وتركها تمارس آثارها فى عرض الطريق.

توقف أحمد رجب منذ سنوات عن مشاغباته الطفولية مع الكتاب والمبدعين.. وتفرغ لمناكفة السلطة.. ولا أدرى لماذا أشعر أنه وفى كل سطر يكتبه يسيطر عليه إحباط شديد فهو ومنذ سنوات يؤذن فى مالطة أو فى أسبرطة لا فرق.. ولا حياة لمن تنادى.. الفساد مازال سيد الموقف.. المصريون من سيئ إلى أسوأ.. وأراهن أن أحمد رجب يسأل نفسه كل صباح.. لماذا أكتب..؟، حالته مازالت كما وصفه أنيس منصور منذ ثلاثة سنوات فى عموده مواقف قال: سألنى أحمد رجب: مالك؟ أجبته: وأنت مالك؟ فصارحنى بأسباب القرف وبرودة الوحدة وقسوة الظلام كل ليلة وعذاب اليقظة كل صباح، سألنى: وبعدين؟ قلت: ولا حاجة .. اضرب دماغك فى دماغى فى أقرب حائط، سألنى وبعدين؟ قلت: مفيش بعدين فنحن الآن فى البعدين، فقال لى: طيب نتقابل من حين إلى حين.. قلت.. علشان آيه؟ قال: علشان نضع نهاية لهذه البعدين، قلت: هذه البعدين هى بداية النهاية.. فقد بدأ العد التنازلى لكل شيء.. ونحن نهبط بباراشوت هادئ وعيوننا على السحاب حتى لا نرى ارتطامنا بالأرض.. قال أحمد رجب: يا نهار أسود.. الكلام ده جد!

هل مازال أحمد رجب يقول: يا نهار أسود.. الكلام ده جد.. أم أنه أدرك أنه حتى هذه الكلمة لا تستحق عناء النطق بها.. إن أحمد رجب واحد من الكتاب العظام لا يختلف عليه الكثيرون حتى ما قالته لى صافى ناز كاظم ذات مرة وكتبته بعد ذلك فى معرض حديثها عن عملها فى مجلة الجيل قالت: كان أحمد رجب وسيماً للغاية مثل نجوم السينما الأمريكية يبدو متعالياً متعاجباً لكنه مع ذلك لم يكن فتى الشاشة الأول، كنت مضطرة أحياناً أن أتعامل مع أحمد رجب ولم أرتح أبداً مع تعاليه ومعجبانيته وتقمصه أحياناً لدور الأستاذ على أمين صاحب دار أخبار اليوم، وفى مرة من المرات زعق بوجهى وقال لى: أنا مش عاوزك عندى أنت مرفوته.. وضحكت لأن هذه كانت الجملة التى اشتهر بها المرحوم على أمين وهززت كتفى وقلت له "مش لايق فيها".. لم أتعامل مع كلام صافى بجدية لأنى أعرف أن من هواياتها إلقاء الطوب على الناس بلاسبب؟

إننى أنظر باحترام شديد لتجربة أحمد رجب.. بقممها وسفوحها وإذا كان قد بقى شيء فاسمحوا لى أن أقول: إننا لا نستحق هذا الرجل!

الوجه الآخر

لوحيد حامد

22

الوجه الآخر لوحيد حامد

وأنا داخل إلى فندق الميريديان الذى يقضى فيه الكاتب الكبير وحيد حامد معظم وقته، تخيلت للحظة أنى سأقابل رجلاً صاخباً عنيفاً لا يكف عن المشاكسة، يصب جام غضبه على الجميع بلا رحمة.. لكننى عندما جلست إلى مائدته التى اختارها بعناية إلى جوار النيل العظيم انهار تخيلى على صخرة المشهد، وحيد يجلس إلى أحد أصدقائه – عرفت بعد ذلك أنه مدير الفندق - رجل هادئ إلى درجة مذهلة، تذكرت بصورته أحد كبار قريتنا الذى أخذ من إحدى الأشجار المجاورة للنيل مستقراً له يتأمل المارين أمامه فى صمت - وعندما كان يتحدث - لا ينطق إلا بالحكمة.

كان سعيداً للغاية.. قلت "هذا طبيعى، فقد فاز بجائزة التفوق - اللقاء كان عام ٢٠٠٣- .. لكن المفاجأة أن وحيد حامد كان سعيداً لأن الناس فرحت به وله، يومياً يقابل أشخاصاً لا يعرفهم يقدمون له التهنئة يعتبر هذا انجازه الحقيقى فقد وصل إلى الناس البسطاء الذين عمل طوال حياته من أجلهم، أكثر من أربعين عاماً قضاها وحيد ناسكاً فى مدينة الشعب المصرى يكتب لهم وعنهم.. تؤرقه مشاكلهم.. وعندما لا يعجبه حالهم كان يدفع بالدم الطازج فى شرايين الناس كى يستيقظوا ويهبوا من غفلتهم.

قررت منذ البداية أن يكون الحديث مختلفاً.. فالناس يعرفون وحيد حامد الكاتب السينمائى الشهير، المفكر المستنير الذى أوقف قلمه ليحارب جيوش الظلام وطيوره، لكنهم لا يعرفون التفاصيل التى تسكن تحت جلد هذا المواطن المصرى الحقيقى، الذى يشعر طول الوقت أنه مدين لهذا الوطن بالكثير.. ويعتبر ما يفعله

مجرد سداد لهذا الدين.. وعلى هذه الخلفية بدأ الحوار الهادئ الذى سرعان ما تصاعدت حرارته وأحياناً حدته.

لخص وحيد حامد رؤيته للمجتمع المصرى ببساطته المعهودة، فمنذ فترة قريبة جداً كان لا يمكن أن تجد أحداً يتباهى بالخطأ، الآن الناس يتباهون بالخطأ والفساد، تقول لهم هذا خطأ فيقولون لك "وماله"، ولذلك يتعجب وحيد من حالة الفتونة والبلطجة التى أصبحت سائدة فى المجتمع المصرى – يشعر أن كثيراً ممن يراهم غرباء لا يعرفهم.. فمازال يحتفظ ببكارته التى حملها من قريته "بنى قريش – منيا القمح – شرقية" التى ولد بها عام ١٩٤٤.

مفتاح وحيد حامد الأساسى الذى من خلاله تدخل إلى شخصيته هو قريته، حتى قعدته الشهيرة فى المريديان حيث يفكر ويكتب تعود بجذورها إلى القرية يقول: قعدتى فى الميريديان نوع من تأثرى بقريتى.. لم يكن أمامى هناك حواجز.. لم أعرف الكتل الخرسانية، الكون كله كان مكشوفاً أمامى.. الكون كله بتاع ربنا كان ملكاً لى.. وأنا جالس إلى مائدتى فى الميريديان أتذكر هذه الأيام واستنشق عبيرها.

كان وحيد حامد حتى يصل إلى مدرسته يمشى ٢ كيلو يومياً.. كان يفكر ويتخيل.. حتى أنه قال لى إنه لولا أحلام اليقظة التى نسجها خلال رحلته إلى المدرسة لما أصبح كاتباً.. ثم إنه لم يكن يتصور مطلقاً أن يصبح كاتباً سينمائياً.. علاقته بالسينما بدأت فى قريته يقول: كانت شركات السماد تعمل دعاية لنفسها، كانوا يرسلون "عربية" عليها ماكينة عرض ١٦ ملى ويعملون إعلانات عن سماد أبو طاقية يعرضون جزءاً من فيلم، عرفت إن فيه سينما.. وكان إلى جوارها الراديو، مسلسل "خمسة وربع" لعب دوراً مهماً جداً فى حياتى، ووقت فراغى كنت أقضيه مع الكتاب ويرجع الفضل فى ذلك للدكتور عبد القادر حاتم.. كان ينتج كتاباً كل ست ساعات، وكان الكتاب بـ ٣ قروش. وفى بلدنا وحتى فى مرحلة المراهقة لم نكن ننظر للستات نظرة خارجة.. كان الاحترام يفرض نفسه، لم تكن هناك وقاحة.. كان من العيب أن تقول مجرد أن هذه البنت حلوة.

هذا التأثير الكبير الذى لعبته قرية بنى قريش فى حياة وحيد حامد مازال يلقى بظلاله عليه وعلى إبداعه.. لكنه عندما زارها العام الماضى قرر ألا يعود إليها مرة أخرى، لأن الصورة الجميلة التى عاشها هناك لم يجدها، اختفت تماماً، لم يجد الغيطان التى تربى وسطها، قالها وحيد بأسى: "لما تتوه عن طرق كنت حافظها صم ولا تجد عينك أشياء اتحفرت جوالك.. تشعر أن جسدك تشوه".

هذا الاحساس الطاغى هو الذى يتعامل به وحيد حامد مع خصومه ومنتقديه.. على هامش حديثه عن بداياته ودخوله عالم الكتابة ذكرته بما قاله مصطفى محرم فى مذكراته من أنه قابل وحيد وهو مازال شاباً فقيراً يكتب القصص القصيرة.. ولما كتب أول فيلم سينمائى فوجئ مصطفى أن الفيلم مقتبس. وحيد وبهدوء علق قائلاً: أنا كنت "ساكن" فى درب الجماميز ومصطفى محرم كان ساكناً فى حارة السادات المتفرعة من درب الجماميز، كان كل بتوع الكتب يعرفوننى، وكان مصطفى محرم يخرج كل يوم "مهندم"، أصحاب المكتبات عرفونى عليه.. على أنه كاتب سينمائى، وكنت وقتها أكتب قصصاً قصيرة، بقيت أشوف مصطفى أحياناً وهو راجع من شغله. لا أعرف عنه شيئاً ولا يعرف هو عنى حاجة، وكونه يتكلم عنى بشكل سيئ فهذه مشكلته وليست مشكلتى فليس فى حياتى ما أخجل منه.. ومصطفى فى مذكراته يجرح فى الأموات.. سمح لنفسه بذلك فليس بعيداً عليه أن يجرح فى الأحياء.

هذا التسامح قد يراه البعض غريباً.. لكن وحيد حامد يفصله. هناك أشياء يتسامح فيها وهناك أشياء لا يغفرها على الإطلاق، فهو يتسامح عن طيب قلب عندما تأتيه ضربة من شخص أصغر منه.. أما إذا كانت الضربة من شخص فى مستواه أو أكبر منه فلا يتنازل عن حقه أبداً !

الكلام عن تسامح وحيد حامد يجرنا رغما عنه إلى خلافاته فى الوسط الفنى.. كل يوم تسقط على رأسه اتهامات.. مرة بأنه يقتبس كل أفلامه.. ومرة هو غاضب من محمد هنيدى لأنه رفض له فيلما.. ومرة وحيد ينصب نفسه وصياً على الإبداع ويمنع فيلماً سينمائياً.. لم ينفعل وحيد وهو يتحدث رغم أنه وبطبيعته شخصية انفعالية.

هو ليس لصاً للأفكار - وكما يقول - أنا لا أدفع عن نفسى ومش محتاج أحد يدافع عنى، وأنا لن أدخل فى معارك، لأننا لسنا فى زمن معارك، لقد رفعت على قضايا كثيرة جداً، ففى فيلم "البرئ" وهو أعظم ما كتبت على الاطلاق ، كان بيعرض فى مهرجان القاهرة وكنت "فرحان" طبعاً لكن فجأة ظهر ما سرق فرحتى، خمسة مؤلفين مرة واحدة ادعوا أننى سرقت فكرة الفيلم منهم، وتعجبت فكيف أسرق من خمسة مؤلفين، وفى فيلم "النوم فى العسل" رفيق عمرى جمال الغيطانى الذى كنا نقسم اللقمة سوا وكان بيسلفنى الكتب.. فوجئت به يقول لى: أنت سرقت النوم فى العسل من روايتى "حارة الزعفران" فقلت له يا جمال إحنا مش حنعض فى بعض.

الحكايات مازالت تنهال.. والكلام مازال لوحيد: واحد كان بيشتغل سكرتير تحرير فى مجلة أكتوبر رفع على قضية وقال إنى سرقت منه قصة النوم فى العسل، جاءنى عبد العال الحمامصى وهو حى يرزق، وقال لى نحل القضية بتاعة "النوم فى العسل" ودياً، نراضى الولد بحاجة، ورفضت وخسر المدعى القضية فى الابتدائى، عمل استئنافاً وقلت للحمامصى لو كسبت الاستئناف حارفع قضية تعويض وبلا رحمة .. وكسبت الاستئناف.. لكنى لم أفعل شيئاً ولن أفعل شيئاً لأنى أقدر شعور هؤلاء.. فكل واحد منهم يكتب شيئاً يعتقد أن ما فعله أفضل شيء فى الدنيا.. وهى لحظة خادعة لا أريد أن أحرم الآخرين منها.

الشيء نفسه حدث مع وحيد حامد فى فيلم المنسى، كاتب شاب كتب رواية بطلها أسمه يوسف المنسى، بعد عرض المنسى ذهب إلى اتحاد الكتاب وقدم شكوى ضد وحيد وشكاه أيضاً فى نقابة المهن السينمائية، أفلتت أعصاب وحيد للمرة الأولى وقال: معقول أواجه شاباً صغيراً وأحاسبه على رعونته وعدم رؤيته.. أنا كان نفسى حد ينطق ويرفع على قضية ويقول إنى سارق منه طيور الظلام.. علشان كان يروح يشيل عنى القضايا التى رفعت على بعد عرض هذا الفيلم .

وصلنا إلى هنيدى، قلت له هل أنت غاضب من هنيدى؟ قال وبسرعة: لا طبعاً ولو عندى فيلم لمحمد هنيدى حيروح له، ولو عندى خلاف مع أى ممثل وينفع فى فيلم لى هاجيبه، فأنا لست ضد أحد.. لقد أرسلت لمحمد هنيدى سيناريو.. ولم يرد والتمست له العذر وقدرت حالة النشوة التى يعيش فيها.. فكل الناس تجرى وراءه.. ولابد أنه ولسبب خاص به لم يقرأ السيناريو والحقيقة أننى مش محتاج هنيدى لكنه لو جاءنى فخير وبركة.

موقف وحيد حامد من الفيلم الذى كتبته ماجد خير الله وقيل إنها استوحت أحداثه من حياة يسرا كان غريباً، لقد اعتبرت وحيداً يدافع عن قضية خاسرة.. فالفنانات فئة من فئات المجتمع.. ولا مانع أن يصور فيلم يعرض لجانب من حياتهن بماليهن من عيوب وما عندهن من ايجابيات، كان هذا رأيى ولا يزال.. لكن وحيد حامد له رأيه أيضاً يقول: الموضوع أننى سمعت أن واصف فايز بيعمل فيلم يسئ فيه للفنانين، اتصلت به وهو صاحبى وقلت له بقى يا راجل أنت سينمائى أنت.. طب سبها لغيرك.. ثم إن الفن يحارب الآن بضراوة شديدة جداً.. وقد انتهى الموضوع عندما أكدت ماجدة خير الله أن الفيلم ليس فيه إساءة لأحد.

يلفت انتباهك فى وحيد حامد أنه يتحدث بتلقائية شديدة.. وكأنه رجل بلا حسابات.. لدرجة أن طريقته فى الحديث تجعلك تعتقد أنه مسنود.. فجرأته فى الغالب زائدة عن الحد وعندما تتابع القضايا التى يناقشها فى أفلامه ستقول أقطع ذارعى إن لم يكن مسنوداً. قلت لوحيد عندما يصل الكاتب إلى درجة من النجومية والشهرة.. هل يؤثر ذلك فى علاقته بالجهات الرقابية التى تتعامل مع ابداعه؟ فقال لى أنا حأجيبها لك على بلاطة.. فيه ناس بتقول إنى مسنود فى الرقابة؟ وأنا أقول أنا مسنود فعلاً.. لكنى مسنود بقانون الرقابة.. اعرف القانون ثم طالب بحقك، المادة ٧ من قانون حق المؤلف تقول إن المؤلف هو صاحب الحق فى مصنفه الفنى ولا يحق لأحد غيره التدخل بالحذف أو الإضافة فالرقابة ترفض العمل أو تقبله لكن تطلب تعديله فهذا غير قانونى وإذا رفضت الرقابة فعندك لجنة تظلمات وإذا رفضت لجنة التظلمات فعندك المحكمة.

ما لا يعرفه حتى الرقباء عن وحيد حامد أنه يتعامل مع الرقابة على طريقة الحاوى، فهو يشغل الرقابة بمشهد جنسى تناقشه وتعترض عليه وتصر على حذفه.. ويكون هذا المشهد موضوعاً فى الفيلم تحديداً حتى تمر مشاهد أخرى فيها أفكار سياسية ساخنة، وحيد – وربما يفعل ذلك بمكر الفلاحين – يستغل حساسية الرقابة من يوم ربنا ما خلقها بالجنس فأى رقيب يضع تحت كلمة قبلة أو عرى خطا، حتى ولو لم يعترض عليها.. يقول وحيد.. خلى الرقيب يحط "خطوط" تحت القبل.. فالذى يغضبنى أن يضع الرقيب خطاً تحت جملة تحمل فكرة أو رسالة سياسية أسعى إلى توصيلها للناس، ثم إن الرقابة ليست وحدها هى التى تزعج المبدع وتؤرقه.. فالرقابة كانت قد صرحت بعد فليم "البرئ" .. لكن الله يخرب بيت العروض الخاصة ، فى العرض الخاص للبرئ أحد المثقفين الكبار ما أعرفش كان عميلا لمين قال: يا نهار أسود ده لو كل عسكرى أمن مركزى فى أيده بندقية غضب تبقى كارثة.. وتدخلت الأجهزة الأمنية.. وقرر ثلاثة وزراء أن يشاهدوا الفيلم.. المخرج ربنا يسامحه بقى قال قبل ما يقطعوا فى الفيلم.. أقطع أنا وجاء الوزراء ليشاهدوا الفيلم وهو متقطع جاهز!

لم يكن وزراء البرئ هم الوزراء الوحيدون الذين عرفهم وحيد.. فهو يعرف شخصيات فى مواقع المسئولية.. لكنه لا يرغب فى الحديث عنهم.. فالسلطان عنده هو البعيد عن السلطة، يعرف مسئولين كبار لكنه يعرف حدوده جيداً، فهو صديق للشخص وليس صديقاً للمنصب ورغم أن له صداقات ممتدة مع وزراء لكنه لم يطلب أى شىء من وزير.. لم يسع للحصول على خدمة أو مساعدة من أحد، وحتى لو طلب شيئاً لنفسه فلابد أن يكون مشروعاً وغير مخالف للقانون.. يقول وحيد: كان المهندس سعد شعبان صديقاً لى.. وكان مديراً لمكتب الرئيس مبارك لفترة طويلة، كنت محتاجا أركب تليفوناً فى البيت وكان هذا شيئاً صعباً جداً، ذهبت له وقلت : عاوز "تليفون" ضرورى لأنى كاتب ومراتى بتشتغل فى التليفزيون، قال لى: بص يا وحيد معاك فلوس تدفع التليفون الفورى، قلت له آه

فقال لى: ادفع فلوس التليفون الفورى وبعدما تدفع أخدمك إذا لم يركب فى موعده.. كنت سعيداً جداً لأنى تعلمت كيف تكون الأمور نقية وشفافة.

هذه واحدة. الحكاية الثانية عند وحيد حامد بطلها عدلى حسين محافظ القليوبية، فقد رجاه وحيد بصفة شخصية، شرح له حالة سيدة بسيطة جداً عندها بنت تدرس فى كلية الحقوق، بيتها وقع وبناتها فى الشارع، قلت له لازم يتوفر لها سكن مناسب وآدمى، وتفضل مشكوراً وساعد فى توفير سكن، هذا ما أفعله مع المسئولين – لا أطلب شيئاً لنفسى حتى لو احتجت ذلك.

الوزراء على مائدة وحيد حامد.. ندخل بهم إلى علاقته بالرؤساء.. لقد عاش مرحلة تكوينه الأولى فى عصر عبد الناصر.. ونضج فكرياً فى عهد السادات.. وشارك بفعالية الأفكار والمواقف فى عصر مبارك.. شاهد هو على العصور الثلاثة.. ولذلك دخلنا به ساحة الشهادات على الرؤساء الثلاثة، كان مفتوناً بعبد الناصر وفى فترات زمنية لاحقة عندما رأى الأمور بعين ناقدة عرف أن هناك سلبيات وقعت.. لكنه عنده فى النهاية صاحب فضل كبير على مصر رغم كل ما حدث من تجاوزات وأخطاء فى عهده.

السادات عند وحيد حامد وفى مرآته الخاصة كان يتعامل مع السياسة بأسلوب حاتم الطائى، لكن حاتم الطائى كان يذبح خروفاً أو جملاً، إنما السادات ذبح القضية الوطنية ظناً منه أن هذا فى مصلحة مصر: لقد كان حكيما.. ورغم ذلك فإننى لم أفكر فى كتابة فيلم عن السادات، فهناك موضوعات لا أكتبها لأنها لا تتفق مع ميولى.. لا أتفاعل معها بدرجة كافية، فأنا من طموحاتى أن أكتب فيلما عن الحاكم بأمر الله فهو شخصية درامية ويمكن أن أناقش من خلاله قضية الحكم.. ويمكن أن أكتب فيلما عن عبد الحليم حافظ لأننى أحبه.. لكنى لم أفكر فى كتابة فيلم عن السادات.

قلت له وهل تريد أن تتحدث عن مبارك فقال لى: ولم لا.. مبارك مهنته طيار.. وهى مهنة تستدعى ألا تأخذ قراراً فجائياً، كله محسوب، ولا توجد

قرارات انفعالية، وهذا فى حد ذاته جيد.. لكن تحتاج فى لحظة من اللحظات أن تأخذ قراراً حاسماً وهذا يحدث كثيراً.. والمشكلة فى مصر الآن أن هناك وجهتى نظر.. الأولى تقول أنه لا يحدث تغيير وفيه "ناس" قاعدة على قلب الشعب المصرى الذى هو ملول بطبعه ويحتاج إلى التجديد دائماً ووجهة النظر الأخرى هى أنه لا داعى للتغيير فمادمت شايف شغلك كويس يبقى خلاص.. طالما أن الذى يثبت فساده يخرج من الحكم، ويجزم وحيد حامد أن حسنى مبارك لو كان يحكم فى فترتى عبد الناصر والسادات لكان أفضل منهما بسبب عقلانيته وحساباته التى يراعيها قبل أن يأخذ أى قرار.. لكن الظروف تغيرت الآن.. الصراعات العالمية أصبحت أكبر والمشاكل أصبحت أكثر.. ولابد أن يكون الحساب على قدر المسئولية.

يحمل وحيد حامد وجهات نظر عديدة فى الناس والسينما والسياسة والحب.. يظهر بعضها فى أفلامه.. لكنه يحتفظ بالعديد منها فى ذاكرته التى تختزن وجوه الناس وملامح الشوارع.. ضبطته وأنا جالس معه وهو يتعامل كأب.. برقة شديدة تحدث مع مروان ابنه.. اعتذر له عن خطأ تسبب فيه وحيد واصاب مروان بحرج.. ابتسمت عندما وجدته يقول لابنه أن ما حدث كان سيناريو فاشلاً منه.. لقد حاول مداعبة مروان ولكن المداعبة قلبت بجد.. مشهد إنسانى رائع.. فالكاتب الكبير الصاخب المشاكس الذى يواجه مئات القضايا المرفوعة ضده فى المحاكم.. يتحول فى لحظة إلى دفقة حنان غامرة.. ويتحول فى لحظة أخرى إلى طفل سعيد بجائزة الدولة للتفوق، حكى لى عن تفاصيل الحفلة التى نظمها له عمال الميريديان.. كان يسأل كل من يمر عليه عن صور الحفل.. كان سهلاً على بعد ذلك أن أعرف سر عبقرية وحيد حامد.. فهو منح نفسه للناس وبخل بها على السلطة.. لأنه يراهن على الجواد الرابح.. والناس دائماً يبقون.. حتى لو أرادت لهم السلطة عكس ذلك.

23

محاولة
المطمئن للتفكير

محلات المطعنى للتكفير

أظن وبعض الظن ليس إثما أن د. عبد العظيم المطعنى العالم الأزهرى الذى يحمل على كتفيه أكثر من سبعين عاماً الآن.. لا يفعل شيئاً فى حياته إلا تتبع ما تنتجه المطابع من كتب وروايات ودواوين شعرية، يتفرغ لها تماماً.. يقرأها بالقلم الأحمر يفتش فى ضمائر أصحابها ونياتهم.. وسرعان ما يكتب تقريراً مفصلاً أو مقالاً ساخناً يعرض فيه بصاحب الكتاب أو صاحبة الرواية مستعدياً عليهم المجتمع وراجماً إياهم بمعصية الله والخروج على الإسلام.

لم يفعل ذلك فقط مع كتاب أحمد الشهاوى "الوصايا فى عشق النساء".. لكن وفى كل مرة كان الغبار يتزايد على المفكرين والمبدعين.. فلابد أن تجد المطعنى حاضراً بحرابه وسهامه، فبعد أيام من صدور كتاب "فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين" للمرحوم خليل عبد الكريم.. والذى تناول فيه سنوات ما قبل نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم.. قدم عنه المطعنى تقريراً إلى مجمع البحوث الإسلامية ختمه بقول: إن هذا الكتاب يمثل عملاً عدوانياً على عقيدة الأمة وينكر مبدأ الرسالات السماوية إنكاراً قاطعاً ويزعم أن جميع الرسل والأنبياء صناعة أرضية بشرية.. فيجب حظر تداوله وجمعه من منافذ البيع بل ويجب إعدامه ، والحمد لله أن المطعنى كان يقصد الكتاب وليس كاتبه.

بعد أسبوعين فقط جلس المطعنى إلى مكتبه ليكتب تقريراً عن كتاب "المرأة والجنوسة فى الإسلام" .. وهو كتاب لباحثة مصرية تقيم فى أمريكا منذ سنوات.. صدر بالإنجليزية عن منشورات الجامعة الأمريكية وترجمه المجلس الأعلى

للثقافة ضمن المشروع القومى للترجمة.. وهو كتاب يبحث فى وضع المرأة فى الإسلام عبر المراحل التاريخية المختلفة وعلاقة الثقافة الإسلامية بقضايا "الجنوسة" وتعنى التمييز فى الأوضاع الاجتماعية والسياسية حسب الجنس، المطعنى كان له رأى آخر وفى تقريره لمجمع البحوث الإسلامية قال: إن الهدف من الكتاب هو إعلان أن الإسلام لم يأت برؤية ولا بحضارة جديدة بل هو مزيج من حضارات الأمم والشعوب الأخرى والعقائد الوضعية والدينية لشعوب الشرق الأوسط. لم يكتف المطعنى بذلك بل اتهم الكاتبة بأنها تشكك فى سماوية القرآن وتحرف وقائع السيرة النبوية متعمدة.. وكالعادة طالب بإعدام الكتاب.

وعندما عقدت وزارة الثقافة مؤتمرها الأخير الذى وضعت مناقشاته تحت عنوان "نحو خطاب ثقافى جديد" لم يتردد المطعنى فى إعلان الحرب.. وبقلب بارد عبر زاويته فى الجريدة الإخوانية اعتبر المؤتمر حرباً على الإسلام.. والمدهش أنه صاغ بعض القرارات مدعياً أنها صدرت عن المؤتمر ومنها: القرآن لم يعد صالحاً لإدارة شئون الحياة لأنه منته أى ضيق محدود ووقائع الحياة غير منتهية فكيف يصلح المنتهى (القرآن) لحكم غير المنتهى؟! الأحاديث النبوية مكذوبة، على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عشرة أحاديث فلا يجوز العمل بهذه الأحاديث المكذوبة، لا يجوز الاقتداء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم هو الذين زوروا الأحاديث النبوية، إلغاء الحرام والحلال ولكل إنسان أن يفعل ما يشاء.

ولا أدرى ماذا كان شعور د. المطعنى وهو يكتب هذا الكلام.. وهل كان يعتقد أن أحد سيصدقه أو يثق فى كلامه.. فكل ما قاله المطعنى عن مؤتمر وزارة الثقافة مختلق ولا أساس له من الصحة.. ولن أكون مبالغاً إذا اعتبرته يدخل فى باب الخرافات والخزعبلات. وما أطمئن إليه الآن أن د. المطعنى الذى حمل راية التكفير لسنوات طويلة كبر وبلغ من العمر عتيا فبعد أن كان يجلس ليقرأ ويبحث

أصبح يكفر سماعياً.. دون أن يتأكد هل حدث ما يقوله أم لا.. ولذلك فقد وقع فى خطأ فاضح أثناء تحريضه على كتاب الشهاوى الذى فشل المطعنى فى أن ينال منه فلم يسمع له أحد.. ولم يستجب لتحريضه أحد.

فى مقاله الذى نشرته نفس الجريدة الإخوانية والذى شبه فيه "الوصايا" ببروتوكولات حكماء صهيون "ويْدعو إلى الفسق النسائى" استخدم المطعنى مفردات ليست موجودة فى الكتاب ونسبها إليه كما اسقط علامات التنصيص التى استخدمها الشهاوى عند استشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر القديمة وأقوال السلف.. وقد فعل ذلك كله كى يلصق بالشهاوى تهمة ليست فيه.. وليصدر للأوساط التى تتابعه ضحية جديدة يحاول من خلالها أن يثبت أنه يرضى الله.. ويبعث له رسالة يقول له فيها أنه وكيله فى الأرض.

إصرار عبد العظيم المطعنى على إشعال نار الفتنة بين وقت وآخر.. قد يكون فى اعتقاده نوع من التقرب إلى الله.. لكنه أمر فى اعتقادى يحتاج إلى تحليل نفسى، لقد عاش المطعنى حياة عادية للغاية.. ولد فى أسوان عام ١٩٣٢.. حصل على الشهادة الإعدادية الأزهرية عام ١٩٥٧.. والثانوية عام ١٩٦٢.. ثم حصل على الماجستير فى البلاغة والنقد عام ١٩٦٨.. وفى نفس التخصص حصل على الدكتوراه عام ١٩٧٣.. وفى هذه الأثناء عمل مدرساً بالأزهر.. وظل بها حتى أصبح أستاذاً وفى عام ١٩٨٨ عين نائباً لرئيس قسم البلاغة والنقد بالكلية.. حتى الآن ليس فى حياة المطعنى ما يلفت الانتباه.. فهو أستاذ جامعة عادى له مؤلفاته ومذكراته ومحاضراته ويكتب للصحف من آن لآخر بعض المقالات.. ولا يبخل على محرر برأى يطلبه منه فى أى موضوع وأى وقت.

النقلة الضخمة التى حدثت فى حياة المطعنى كانت عندما أعير عدة مرات إلى جامعات فى السعودية فمنذ عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩٥.. أى على مدى ستة عشر عاماً أعير المطعنى إلى جامعات الملك عبد العزيز وأم القرى والتربية

للبنات.. وكلها في مكة المكرمة.. هذه الفترة تجعلنا لا نتعجب مطلقاً من التشدد الذي يبديه عبد العظيم المطعني في آرائه.. فقد تمت تغذيته بفكر وهابي متشدد.. ولم تكن هذه التغذية مجردة من المكاسب المادية.. ولذلك ليس غريباً أن يخلص المطعني لهذا الفكر.. الذي يقف بعداء ملحوظ لكل ذي فكر أو فن أو إبداع.. حتى لو أدعى أصحابه غير ذلك.

لقد تغيب عبد العظيم المطعني فترة طويلة عن مصر.. وعندما عاد قرر أن يصبح أسمه معروفاً ومشهوراً، كتب المقالات في مختلف الصحف وكانت صوره تتشر إلى جوارها. ولم يلتفت له أحد فاختار الطريق السهل.. وهو "كفر كاتباً تصبح مشهوراً.. أطلق سهامك النارية على أعناق المبدعين يصبح أسمك على كل لسان.. لا تتردد في أن تجعل نفسك وكيلاً لله في الأرض.. فلابد أن يعرفك الناس".. لقد نصب المطعني نفسه قاضياً ومفتشاً في ضمائر الناس وأدعى أنه يفعل ذلك من أجل حماية الإسلام.. وياليته فعل ذلك بأخلاق إسلامية.. لكنه كان بعيداً كل البعد عن روح الإسلام السمحة.. فهو لا يتورع عن استخدام ألفاظ نابية وشتائم صريحة لخصومه.. ولا يتردد كذلك في أن يدس على من كتب عنهم كلمات وعبارات وفقرات لم ترد في كتبهم كل ذلك ليحقق غرضه.. بأن يستأثر بأكبر كم من الأضواء التي أصبح أسيراً لها.. ولم تجعله سنوات عمره العديدة يهدأ.. وكان لما قاله جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة دلالة واضحة.. فعندما سمع أن الطلقة الأولى في معركة الشهاوي أطلقها المطعني قال: هو الراجل ده مش هيتهد بقى!

لن يهدأ المطعني بالطبع.. فهو لن يصبر على ابتعاد الأضواء عنه.. حتى ولو كان الثمن ضحية جديدة أو رقبة أديب أو كاتب.. يضعها تحت سكين الجهل المطبق الذي يعتبر كل اجتهاد خروجاً على الإسلام.. وكل إبداع كفراً صريحاً.

رسائل

عائلة عبود الزمر السرية

24

رسائل عائلة عبود الزمر السرية

منذ عدة شهور جاءني محمد الزمر.. قال لي أنا ابن خالة عبود الزمر.. ومعي رسالة كتبتها أمه تناشد فيها المسئولين أن يفرجوا عن ابنها الذي قضي فترة عقوبته بعد أن حكم عليه بـ ٢٥ سنة سجناً في قضية اغتيال الرئيس السادات، كانت كلمات الأم حزينة.. مستعطفة ،.ورغم عدم قناعتي بما فعله قتلة السادات إلا أني ومن مساحة إنسانية بحتة نشرت الرسالة ليتحمل بعد ذلك من بأيديهم مصير عبود الزمر المسئولية.. لم تكن رسالة أم عبود الزمر شيئاً مهماً بالنسبة لي.. كان المهم هو مجموعة من الشرائط أعطاها لي محمد الزمر سجلها بصوته.. وقال وقتها إن بها اعترافات كاملة.. وإذا أردت أن تعرف من هي عائلة الزمر فاسمعها.. لم أهتم للأمر كثيراً.. فواحد من العائلة ماذا سيقول عنها إلا كل خير.

نسيت موضوع الشرائط تماماً .. لكني تذكرتها منذ أيام فقط.. بعد ان أصبح اسم عبود الزمر مادة متداولة على خلفية الإفراج عن عدد كبير من أفراد الجماعة الإسلامية الذين شاركوه في قتل السادات.. فمرة تتسرب الأخبار عن مفاوضات يجريها عبود ليعلن توبته وتراجعه كما فعل قادة الجماعة الإسلامية.. ومرة يخاطب وزير الداخلية بأن يمنحه فرصة ليؤدي فريضة الحج هذا العام.. ومرة ثالثة تخرج شائعة سرعان ما تجهض وهي أن عبود الزمر تم الإفراج عنه وقد وصل إلى بيته في "ناهيا".

الذين ينتظرون الإفراج عن عبود الزمر يبنون اعتقادهم أنه مادام تم الإفراج عن كرم زهدي فمن الممكن أن يتم الإفراج عن عبود، فالاثنان كانا في مركب

واحد.. وكل ما أعلنه كرم عن أن السادات مات شهيداً أو أنه أخطأ وجماعته فى حق المجتمع المصرى يوافق عليه عبود ومستعد أن يبصم عليه بالعشرة.. لكن يفوت هؤلاء أن عبود غير كرم.. كرم كان شاباً طائشاً كل ما فعله أن خطط وساعد فى سرقة محلات الذهب لتمويل خطة اغتيال السادات وقبض عليه بعد أن فشل فى الهرب أثناء محاولة الاستيلاء على مديرية أمن أسيوط.. أما عبود فكان له شأن آخر.

لقد ولد عبود فى الإمام الشافعى ودرس بالثانوية السعيدية وبعد أن تخرج فى الجامعة أصبح ضابطاً وتولى رعاية أسرته بعد وفاة والده.. وقد تزوج مرتين الأولى طلقها بعد ثمانية شهور والثانية "وحدة" وهى ابنة خالته وشقيقة طارق الزمر.. فكر عبد السلام فرج صاحب كتاب "الفريضة الغائبة" بعد أن بارك خطة خالد الإسلامبولى لاغتيال السادات فى استشارة عبود الزمر باعتباره المسئول عن الجناح العسكرى فى تنظيم الجهاد.. وهناك من يقول إن عبود اعترض فى البداية على اغتيال السادات لأن التنظيم ليس مستعداً لتحمل المزيد من الفشل.. لكن عاد ليوافق فى النهاية.

كان عبود خلال الفترة التى سبقت اغتيال السادات مطلوباً من كل أجهزة الأمن السرية والعلنية وقد وجه له السادات بنفسه إنذاراً فى خطاب ألقاه قبل اغتياله بحوالى عشرة أيام قال فيه: إننى أعرف أن هناك ضابطاً منهم هارباً وربما يكون يسمعنى الآن.. لقد اعتقلنا كل الآخرين فى خمس دقائق وإذا كان هو قد تمكن من الفرار فإننى أقول له إننا وراءه هو الآخر.. ولعل هذا الإنذار كان السبب فى تردد عبود فبعد أن قال لطارق الزمر الذى كان رسولاً بينه وبين عبد السلام فرج: إننى لا اعترض على قتل السادات من حيث الشرعية ولكن أعترض لأننا لم نستعد للقيام بثورة شعبية تعم البلد ككل.. أمامنا عامان أو أكثر ونحقق ذلك ولا أدرى لماذا يصمم محمد عبد السلام على قتل السادات الآن؟ هل نسى أننى فشلت فى قتل السادات فى المنصورة منذ ساعات قلائل وقبضوا على الكثير من زملائنا..

عاد عبود بعد ذلك واعتبر أن مقتل السادات هو الخطوة الأولى التى يمكن أن تعقبها خطوات أخرى يقومون هم بها بمساعدة الجماعات فى القاهرة والصعيد بقلب نظام الحكم وإعلان الثورة الإسلامية.. فمصر بعد تنفيذ عملية الاغتيال ستكون فى حالة خوف وفوضى يسهل معها ومع تصاريح مزيفة دخول ماسبيرو والسيطرة على الإذاعة وإعلان الثورة التى يبدو أن عبود كان متأكداً أن جموع الشعب المصرى كانت ستخرج إلى الشوارع لتأييدها.

كان عبود إذن على رأس التنظيم الذى خطط لاصطياد رقبة السادات.. لكن كرم كان مجرد شاباً عاملاً أوكلت له مهمة محددة ولذلك فكان من السهل أن يتراجع عن أفكاره القديمة التى لم تكن فى الحقيقة أفكاره هو.. ولكن كانت أفكار تنظيم يسير فى ركابه.. وكان من السهل كذلك أن يقتنع رجال الأمن بتوبة زهدى ويقومون باستيعابه وتقويمه وإعادة تأهيله تمهيداً لدمجه فى نسيج المجتمع دون تطرف أو إرهاب.. شىء من هذا لن يستطيع أن يفعله عبود الزمر لأنه كان صاحب الفكرة.. فلا هو سيتراجع عنها.. ولا هو سيجد من يقتنع أنه تراجع عنها بالفعل.. ولذلك فإن مصيره سيظل بيد الله وحده.

فى انتظار هذا المصير لا يستطيع أحد ولا حتى عبود الزمر نفسه أن ينكر أنه ليس وحده ضحية ما فعل.. فقد انهارت أسرته، لقد أشفقت على محمد الزمر بشدة بعد أن استمعت إلى شرائطه التى سجلها بنفسه.. إنه واقع تحت أوهام لا حصر لها.. فهو يعتبر أن شرائطه مثل شرائط أسامة بن لادن التى تحمل الوعيد للحكام.. وهو يعتبر نفسه مسئولاً عن كل الحوادث الإرهابية التى شهدتها مصر فى العشرين سنة الماضية بداية من ثورة الأمن المركزى التى اندلعت فى منتصف الثمانينيات ونهاية بمذبحة الأقصر فى نهاية التسعينيات.. بل إن عدم الاتزان قاد محمد الزمر ليعتبر نفسه مسئولاً عن أحداث ١١ سبتمبر فهى وقعت فى شهر ٩ واسمه مكون من تسعة أحرف.

ما لفت انتباهى فى شرائط محمد الزمر هو التحول الدرامى فى تاريخ هذه الأسرة التى كان يخطط أحد أبنائها لقلب نظام الحكم فى مصر، فقد بدأوا برسائل

سرية لها شفرة خاصة.. للانتقام من الحكومة التى قبضت على عبود.. والتخطيط لتخليصه من قيوده وانتهت برسائل علنية يعلوها الاستعطاف وتبطنها الأحزان ويقودها الضعف إلى مكاتب المسئولين الذين لا يلتفتون إليها.. إن العائلة الآن تحاول أن تصدر الرسائل على لسان الأم مظهرين حاجتها لرؤية ابنها عل المسئولين يرقون لحالها ويعطفون على ضعفها فيطلقون سراح إبنها.

الرسائل السرية كانت فى البداية يقول محمد الزمر: عندما أغتيل السادات كنت فى ليبيا وعرفت أن عبود قبض عليه.. وبدأت الخطابات تصلنى من أبى إبراهيم الزمر وأمى نعيمة عبد المجيد الزمر شعر أن الأمر ليس طبيعياً بالمرة.. لاحظت أننى تحت مراقبة شديدة وعرفت أن الجوابات التى تصلنى تفتح ليعرفوا ما فيها.. فأرسلت لأمى أحذرها ألا تقول شيئاً فى الخطابات وقلت لها إن صوانى الرقاق المبعوتة وقعت وبلت الجوابات.. وفى وسط هذه الضجة أرسلت شريطاً عليه أغان أجنبية كان بعضها تعطى معنى أن هناك حرباً محتملة خاصة وأنه كانت على حدود ليبيا استعدادات حربية. ومن بين الرسائل التى أرسلتها وكنت أعلم أنها ستفتح رسالة وضعت فيها إشارة إلى أن مصر ستدفع الثمن غالياً إذا حصل أى مكروه لابن خالتى عبود الزمر. ويبدو أن عائلة الزمر كانت فى حاجة لابنها محمد ولذلك أرسلت له رسالة عبر أغنية للمطربة وردة هى "بنده عليك بالحب تجيلى" وفهم من الرسالة أنه لابد أن ينهى كل أعماله فى ليبيا ليعود إلى مصر مرة أخرى.. لكنه كان قد قرر أن يعمل من خلال وجوده فى ليبيا.. وعندما تم الحكم على عبود الزمر بالسجن.. ترك محمد الزمر إلى مكتب بريد فى طرابلس عند ميدان السواحل.. كان يشعر أن المخابرات الليبية تراقبه.. لكنه أكمل خطته، يقول محمد الزمر: مسكت الجواب وكتبت العنوان على القاهرة ونحن نسكن فى ٥٥ شارع عبد الخالق وصفى.. طيب التكرار والعكس فيكون الشارع يمكن أن يكتب شين أو يكتب شارع شين ألف راء عين، وكتبت أنا شين وفوقها شارع عبد الخالق وصفى وساعتها وجدتها مكشوفة.. قطعت الجواب وكتبت بعدها شين شارع فوقها عبد الخالق وصفى وكملت العنوان ووجدتها كده تمام

ووضعته فى الظرف وأرسلت الرسالة. وكان الهدف من الرسالة أن أقول لهم: لو أنتم "حتطلعوا" عبود.. اعتبرونى تحت أمركم من الصبح.. ويؤكد الزمر أنه عندما وصل الجواب انقلبت الدنيا فى مصر وأعلنت حالة الطوارئ.. وكانت المشكلة كيف سيعود إلى مصر.. فوض أمره إلى الله وانتظر الفرج.

لقد تعرض محمد الزمر إلى هزات نفسية عديدة خلال حياته داخل السجن وقضى فترة طويلة فى الحبس الانفرادى أثناء وجوده فى ليبيا، حاول الانتحار أربع مرات.. قطع شريان يده اليسرى أمسك سلك كهرباء قوته ١١٠ فولت.. وبعد أن خرج من السجن حاول أن ينتحر مرة خامسة حيث ألقى بنفسه أمام أتوبيس كى يتخلص من حياته.. لكن تم إنقاذه فى اللحظة الأخيرة وتم إيداعه فى مستشفى "جرجارش" وهى مستشفى أمراض نفسيه مثل مستشفى العباسية عندنا، ظل محمد الزمر فى المستشفى حوالى شهر.. وعندما نزل مصر ووجد أن عبود الزمر مازال محبوساً أيقن أنه كان يعيش فى وهم كبير.. وكل الشفرات التى كان يرسلها لم تكن لها أية نتيجة فقرر كما يقول أن يشتغل شغل مخابرات.. ويبنى على ذلك أنه كان وراء كل العمليات الإرهابية التى هزت أمن وأمان مصر، بل أرسل رسالة مطولة إلى أحد المسئولين فى الداخلية بعد مذبحة الأقصر وقال له أنسى ولا تقول بلد الأمن والأمان.. خلاص أنا هاخد حقى بدراعى وملكش دعوة".

إن اعترافات محمد الزمر ليست على مسئولية عبود الزمر.. فهو مسئول عنها وحده.. وصلت إلى ٦ ساعات وفى بعض سطورها إشارة إلى أن هناك شرائط أخرى واعترافات أخرى، فلدى ٣ شرائط فقط من سبعة سجلها محمد الزمر.. عن طفولته والعلاقات المتشابكة والمعقدة بين بيوت عائلة الزمر.. عن علاقتهم بالجيش ورغبتهم فى الانتقام لواحد منهم.. ورأيه فى السلطة فى مصر من ثورة يوليو وحتى الآن.. وهى آراء لا يمكن نشرها.. فهى من جهة مجروحة.. ومن جهة ثانية ليس لها ما يسندها من منطق أو عقل.. فطوال شرائطه

نسمع شائعات تتردد فى الشارع المصرى.. ونكتاً تلقى على المقاهى ونواصى الشوارع.. ولا مانع كذلك من وضع مقاطع عديدة من أغنيات أشهر المطربين والمطربات المصريين بداية من أم كلثوم.. ونهاية بشاهيناز مروراً بعمرو دياب وهانى شاكر.

لقد استقر عندى أن كل ما قاله محمد الزمر مجرد فضفضة.. ومحاولة استعراض قوة فى غرفة مغلقة عليه، لأنه فشل أن يفعل شيئاً إيجابياً من أجل عبود الزمر الذى قضى مدة عقوبته كاملة ومازال سجيناً حتى الآن.. ويبدو أن المرارة زادت فى حلقه عندما وجد نفسه يحمل رسائل استعطاف واسترحام يمر بها على الصحف لتنشرها عل أحداً يسمع له.. وهو الذى كان يعتقد لفترة قريبة أنه قادر وبشدة على فعل المستحيلات.. فهو وفى مواطن كثيرة من اعترافاته يخاطب الشعب المصرى ويقول له.. قل لى ماذا تريد وأنا أنفذه لك فوراً.. ولا أعرف كيف سينفذ وهو يعانى حتى الآن نفسياً ويتلقى لذلك علاجاً.

إن هناك من الأحداث التى تقضى على أسر بكاملها.. وما فعله عبود الزمر قضى على أسرته وها هى تجنى مازرعت يداه.. لقد حلم بأن يصل إلى الحكم بقوة السلاح.. حاول تنفيذ ذلك.. لكنه فشل. ولابد أنه مازال حتى الآن ورغم السنوات التى مرت عليه يعتقد أنه الأحق بكل شىء ولولا أن الظروف عاندته لكان حقق ما يصبوا إليه.

ليس لدى موقف محدد من الإفراج عن عبود الزمر.. فالأمر بيد أصحابه.. لكننى أرصد فقط أن الأخطاء الكبرى يدفع أصحابها ثمنها حتى النهاية.. ولا يسامحهم المجتمع فيها ومهما قدموا من اعتذارات أو طلبوا من رحمات.. إن ما يفعله عبود الزمر الآن ليس إلا حلاوة روح كما يقولون حاول أن يدخل فى معمعة المراجعات. لكن لم يسمح له أحد.. حاول أن يحدث قلقاً وضجة حتى يلتفت له أحد دون فائدة.. والآن ليس أمامه إلا أن يتذكر رسائل الأوهام السرية التى تبادلتها عائلته لإنقاذه فى البداية.. وينتظر رسائل أمه العلنية التى تطلب فيها الرحمة بابنها.. وهى الرسائل التى أعتقد مجرد اعتقاد أنه لن يستجيب لها أحد.

25

دولة الشيخ صالح

دولة الشيخ صالح

يعتبر مريدو الشيخ صالح أبو خليل حياة شيخهم الشخصية أمراً خاصاً به، لا يشغلون أنفسهم بكم يبلغ من العمر.. وهل هو متزوج أم لا.. فمن آداب الصوفية ألا يسأل المريد أين يذهب وليه بعد أن يسلم عليه.. ولذلك كان من الصعب للغاية أن تفض غلالة الأسرار التى تحيط بالشيخ صالح.. وحتى أوصافه الشكلية التى تبدو من صوره يأبى المريدون أن يتحدثوا عنها.. فالوصف لا يجدى.. أو لا يوجد كلام يمكن أن يصفه، لأنه من ذاق عرف.

لم يمنعنا هذا أن نحاول الدخول إلى عالم الشيخ صالح أبو خليل.. نتجول فى دولته التى لا تضم مريدين فقط ولكن تضم أولياء أيضاً.. والبداية من نسبه الذى ينتهى عند على زين العابدين بن الإمام الحسين بن السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم.. اسمه محمد أحمد الشافعى محمد أبو خليل ويعرف بين مريديه بالشيخ صالح أبو خليل.. مناصبه كما يعرفها الجميع.. رئيس الجمعية الخليلية الإسلامية فى الشرقية وهى جمعية خيرية مشهرة برقم ٦٠٢ لسنة ١٩٨٥ وتعمل فى مجالات الخدمة الاجتماعية والثقافية والدينية وتقيم الاحتفالات والندوات الدينية كما أنه وكيل نقابة الاشراف عن بندر الزقازيق وهى النقابة التى يرأسها أحمد كامل يس، أما شيخ الطريقة الخليلية فهو الشيخ محمد محمود إبراهيم أبو خليل.. وتولى مشيخة الطريقة خلفاً لوالده بقرار من المجلس الأعلى للطرق الصوفية فى ٩ ديسمبر عام ١٩٨٨ وهو يمارس مهام منصبة طبقاً للقانون رقم ١١٨ لسنة ١٩٧٦ بشأن تنظيم الطرق الصوفية.

وليس هناك ما يمنع أو يضر من وجود طريقة خليلية وجمعية خليلية، فهذا التنوع هو تعدد فى وسائل التعبير عن الحب الإلهى وتعدد فى أساليب التدريس والتعليم والتعبير وهو أمر لصالح الصوفية وليس عليها، فالصوفية سبع طبقات: الطالبون والمريدون والسالكون والسائرون والطائرون والواصلون.. وهؤلاء ستة والسابع هو القطب الذى قلبه على قلب رأس الله، وهو وارث العلم الذى خص به الله رسوله دون غيره، والانتقال من طبقة إلى طبقة أعلى فى الصوفية لا يحتاج قراراً إدارياً، بل يحتاج إلى منحة سماوية، يخص بها الله من يشاء من عباده دون تفسير أو تبرير، فالله سبحانه وتعالى حر فيما يملك ولا اعتراض على مشيئته.

ويبدو الشيخ صالح أبو خليل من السابحين فى نور الله، يمشى فى طريقه منذ عام ١٩٧٦ ملايين من المريدين والأتباع وهم فى مصر وخارجها من كافة رموز المجتمع وطبقاته سياسيون وفنانون.. مهندسون ومستشارون.. أثرياء وبسطاء.. بعضهم يقصده لحاجة دنيوية فلا يرده.. وبعضهم ترتفع حاجته إلى ماهو أكبر وأثمن، تهدئة النفوس وهدايتها وتمنى الحصول على حفنة من نور الله، وفى كل الأحوال هناك تأكيد لسماحة الدين وصفائه.. مدده وبركته، وللشيخ كذلك مؤلفات يحرص عليها أتباعه منها كتاب "كشف الغطاء عن أهل البلاء" وكتيب "الصدق مع الله" وكتيب "الطريق إلى الله".

وما يجذبك إلى الطريقة الخليلية أن كل الطرق الصوفية جميعها فى مصر وخارجها تقوم على خلفاء.. أما هذه الطريقة فهى الوحيدة التى تقوم على شيخ حى.. موجود بين الناس يراهم ويرونه.. وهو ليس واعظاً تقليدياً.. يفضى لمريديه بموعظة سرعان ما تتبخر فى الهواء.. لكنه مؤثر للغاية.. فهو يتعامل مع مريديه بقاعدة من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.. فالله يهدى أتباعه إليه كولى.. ثم يقوم هو بهداية المريد على يديه إلى طريقه.. ولذلك فليس غريباً أن يسيطر الشيخ صالح على آلاف الناس من مختلف الطبقات فلاحين وفنانين ورجال أعمال وعلماء أزهر.. كلهم يتلقون كلامه بنفس الدرجة ويحدث فيهم جميعاً نفس التأثير.

ويخص الشيخ صالح مريديه بجلسات متنوعة يخصص لها يومى الاثنين والخميس وهى جلسات تبدأ من الساعة الواحدة ظهراً وتنتهى فى الرابعة عصرا، يدخل عليه المريد الذى تكون عنده مشكلة.. وتستغرق المشكلة ما تقتضيه المشكلة، فبعض الجلسات لا تستغرق سوى دقائق معدودة وبعضها يمتد لساعات.. وفى مجالس الذكر التى يعقدها الشيخ صالح مع مريديه تبدأ بقراءة بعض المدائح النبوية وقراءة أجزاء من بردة البوصيرى ثم قراءة بعض مدائح الشيخ أحمد الشافعى والد الشيخ صالح أبو خليل ثم يبدأ أحد المنشدين فى الإنشاد الدينى ثم يقوم أحد علماء الأزهر بإلقاء كلمة أو موعظة.. وهى مهمة يتولاها عادة علماء الأزهر.. فالشيخ صالح لا يقدم لمريديه مواعظ ولكنه يتعامل معهم بمنطق المربى الذى يربى أبناءه الذين أصبح منهم الآن أولياء.

غير الجلسات العامة التى يعقدها الشيخ صالح أبو خليل لمريديه كل اثنين وخميس فإنه يعقد جلسات خاصة عادة ما تكون يوم الأحد وتكون فى الغالب للشخصيات العامة ونجوم المجتمع ونادراً ما ينتقل الشيخ صالح أبو خليل إلى الآخرين لكنه فى المناسبات الدينية مثل الإسراء والمعراج يعقد جلساته خارج الزقازيق وحدث هذا فى احتفاله بالإسراء والمعراج عام ٢٠٠٣، حيث حضره فى فيلا بالهرم يملكه أحد مريديه وحضر الاحتفال عدد كبير من أبناء الشيخ.

ولأن لكل ولى كرامات فلابد من الحديث عن كرمات الشيخ صالح أبو خليل.. وهى كرامات لا يتحدث عنها الشيخ بنفسه.. بل يتحدث عنها مريدوه، والغريب أن السائد بين هؤلاء المريدين أن لكل ابن كرامة أو أكثر.. ولا يحرص الشيخ صالح أبو خليل على أن يؤكد أن الغطاء مكشوف عنه.. رغم أن ما يحدث منه أحياناً يؤكد ذلك.. دخل عليه أحد مريديه هو وزوجته فقال له: مبروك عليك ولى العهد.. وبالفعل بعد أقل من أسبوع اكتشف المريد أن زوجته حامل.. ولا تخلو كرامات الشيخ صالح أبو خليل من بعض الطرافة.. دخلت عليه سيدة مريضة بالضغط قالت له هل آخذ دواء الضغط أم لا.. فقال لها أنت بتمشى..

فقالت له نعم فقال لا. فلا تأخذى الدواء.. خرجت المرأة لتقول أن بامشى كتير ولذلك فلا داعى للدواء.. لم يكن الشيخ أبو خليل يقصد المشى العادى الذى يمشيه الناس.. ولكنه كان يقصد المشى فى طريق الله.. ولكن المرأة فهمت خطأ.

إن الصوفية تقوم على ذكر الله والصلاة على رسوله وحب آل البيت وكلها فرائض اضافية مكلف بها المؤمن حتى وإن لم يسم صوفياً.. والصوفية محبة والمحبة اتباع والحب لمن تحب طاعة والاتباع ليس عبادة، فالمحبة ليست عبادة.. لكنها الأساس الذى يقوم عليه الإيمان.. ولذلك كان طبيعياً أن يرى أحد مريدى الشيخ صالح أبو خليل أن أكبر كرامة للشيخ هى تغيير حياة مريديه والخروج بهم من حياة الضيق الشديد التى يعيشونها إلى حياة أرحب وأوسع .

26

عواصف

علي جمعة

عـواصف على جمعه

كان ما حدث مجرد مصادفة ، أرسل لى قارئ رسالة قال فيها: شاهدت يوم السبت ٢٠ سبتمبر٢٠٠٣ د. على جمعة فى برنامج "دنيا ودين" يرد على سؤال من أحد المشاهدين.. كان السؤال: هل يجوز للمسلم بيع الخمر ولحم الخنزير لغير المسلمين؟.. وكانت الإجابة التى أفزعت القارئ هى: نعم يجوز للمسلم شراء الخمر ولحم الخنزير وبيعهما لغير المسلمين، وذلك بقصد التجارة وليس لاستخدامها الشخصى! صعق القارئ من كلام د. جمعة واستغاث بالمفتى د. أحمد الطيب الذى أصبح الآن سابقاً أن يدلى برأيه فى هذه الفتوى الخطيرة وهو ما لن يفعله د. الطيب الذى كان يحب الصمت وهو مفت.. فما بالنا وقد أصبح الآن رئيسا لجامعة الأزهر!

الآن أشفق على من استغاثوا بالمفتى السابق ليتصدى لآراء على جمعة.. بعد أن أصبح هو نفسه المفتى الجديد.. وكأنى بهم الآن يقفون تحت مظلة من استجاروا من الرمضاء بالنار.. لكن مالا يعرفه الكثيرون أن على جمعة ليس ناراً ولا رمضاء.. ولكنه واحد من العلماء المجددين ويمكن أن نعقد عليهم الأمل إذا ما سلم من متطلبات منصبه أن يجدد روح الإسلام كما فعل قبل ذلك علماء عظام مثل محمد عبده ومحمد أبو زهرة وعبد الحليم محمود ومحمد الغزالى..

لكن هذا حديث سابق لأوانه.. فعلى جمعة مازال يخطو خطواته الأولى فى أرض قلقة تجبر من يقتحمها أن يتحسس خطواته وأفكاره قبل أن يفتح فمه بشىء.. الآن أمامنا الرجل بما تعلمه وبما قدمه..

قبل أن يصل إلى دار الإفتاء كان يعمل أستاذ لأصول الفقه فى كلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر.. ورغم أنه أصبح أستاذاً فى جامعة الأزهر فإنه لم يبدأ دراسته فى الأزهر، فهو حاصل على بكالوريوس التجارة من جامعة عين شمس عام ١٩٧٢.. ثم التحق بعدها بكلية الدراسات الإسلامية والعربية فى الأزهر

وحصل منها على الدكتوراه عام ١٩٨٨.. ومن بين ما أنجزه خلال رحلته العلمية تأليف ٢٠ كتاباً كلها فى أصول الفقه والاجتهاد وعلاقة أصول الفقه بالفلسفة وتجديد أصول الفقه والتعامل معه من جذوره.. وهو صاحب ثقافة موسوعية.. يجيد اللغة الانجليزية كتابة ونطقاً.. ساعدته فى المشاركة فى مؤتمرات عالمية عديدة.. ولأنه يؤمن بأن كل إنسان يجب أن يفعل ما يحبه.. عملت بناته الثلاثة فى تخصصات بعيدة عن الدراسات الإسلامية.. فالكبرى دعاء متخصصة فى اللغة الإنجليزية التى حصلت على ليسانس من كلية الآداب.. والوسطى إيمان درست فى كلية التجارة متتبعة خطوات أبيها الأولى، أما الصغرى أميرة فحصلت على دبلوم فى رياض الأطفال.. زوجته اسمها عفاف وحاصلة مثله على بكالوريوس تجارة.. لكنها اتجهت بعد ذلك إلى دراسة الشريعة فحصلت على ليسانس فيها ثم على دبلوم فى أصول الفقه.

لم يكن د. على جمعة اسماً مجهولاً قبل أن يصبح مفتياً.. وهو ما لم يحدث مع سابقيه. فلم يكن أحد يعرف شيئاً لا عن د. نصر فريد واصل أو د. أحمد الطيب قبل هبوطهما على دار الإفتاء.. فكل منهما كان مجهولاً تماماً.. لكن د. على جمعة ومنذ فترة ليست طويلة أصبح نجماً تستضيفه البرامج على القنوات الفضائية والأرضية، بل إنه قدم برنامجاً على قناة دريم الثانية هو "الكلم الطيب".. واستمع له الناس كثيراً خطيباً من على منبر جامع السلطان حسن.. وجهه كذلك مألوف للغاية.. ويبدو أن د. على جمعة كان يعرف أن التطور الطبيعى لنشاطه وفتاواه ولقاءاته أن يصل إلى دار الافتاء فقد تخلى منذ فترة عن زيه الأفرنجى (البدلة الأنيقة للغاية).. إلى الزى الأزهرى الذى يعرفه الناس ورغم أنه ليس شرطاً أن يرتدى المفتى أو حتى شيخ الأزهر الزى الرسمى.. فإن الناس تستريح أكثر فى هذا الزى على علماء الدين.. ويبدو أن د. جمعة يبحث بالفعل عن راحة الناس ليس فى المضمون فقط ولكن فى الشكل أيضاً.

من اللحظات الأولى جعلنا د. جمعة ندرك أنه سيكون مفتياً مختلفاً عمن سبقه.. فقد بدأ بنزع الألغام من طريقه.. كل من سبقوه اصطدموا بجهات الافتاء المختلفة التى يسحب بعضها البساط من تحت أقدام دار الافتاء ويضعونها فى حرج.. د. نصر فريد واصل تعامل مع هذه القضية بعنف شديد.. وأصر فى البداية على توحيد كل جهات الافتاء فى يده لكنه فشل.. وتراجع أمام ضغوط من

سخروا منه واعتبروه يريد أن يحكم مصر لا أنى تولى الإفتاء فيها.. د. أحمد الطيب لم يتطرق إلى هذه القضية من قريب أو بعيد فاعتبره المتابعون للشئون الإسلامية ضعيفاً وغير قادرة على المواجهة.. د. على جمعة كان نمطاً مختلفاً فلم يصطدم ولم يتجاهل.. فقد دعا غير المؤهلين للفتوى إلى عدم الخوض فيها حتى لا تحدث بلبلة فى أفئدة الناس وعقولهم.. وهو ما يعنى أن تضعف المشاعر الدينية لديهم وتهتز العقيدة فى عقولهم.. وذلك لأن أهل الفتوى هم العلماء المدركون لمقاصد الشريعة وأدلتها من الكتاب والسنة والمعرفة بقواعد اللغة العربية.. ولم يمنع هذا أن يحمل د. على جمعة على من يتصدى للفتوى بغير علم.. بل وصف من يفعل ذلك بأنه مجرم.. لم يعاد المفتى الجديد أحد إذن.. يعرف أنه لن يستطيع أن يوحد الافتاء فى جهة واحدة.. فاختار أن ينسق معهم، فإذا كان يستطيع أن يكسبهم فلماذا يخسرهم؟!

اللغم الثانى الذى انتزعه د. على جمعة من طريقه.. هو ما كان يقال دائماً عن الصدام بين شيخ الأزهر د. سيد طنطاوى وأى مفت قادم..وصل الصراع إلى ذراه بين د. فريد واصل ود. طنطاوى بل كان هناك من أكد أن هذا الخلاف كان من بين الركلات التى دفعت د. واصل إلى خارج دار الافتاء.. فقد كانا مختلفين دائماً.. ولم يكن اختلافهما من هذا النوع الذى يمكن احتواؤه فتفجرت العلاقة بينهما أكثر من مرة.. مرت فترة د. أحمد الطيب بسلام.. فهو لم تكن لديه طاقة لا للاتفاق ولا للاختلاف.. د. على جمعة من اللحظة الأولى أعطى لشيخ الأزهر حقه كاملاً.. فهو أستاذه ليس بالمعنى المعنوى فقط ولكنه كان عميداً لكلية أصول الدين التى كان يعمل بها على جمعة معيداً.. ليس هذا فقط.. بل أعطى على جمعة موافقة على بياض لكل ما سيقوله شيخ الأزهر.. أو ما قاله سابقاً.. وهو ما يعنى أن الصدام بين القامتين ليس وارداً. إلا إذا جاءت المقادير بما لا يتوقعه أحد وانتهى أداء على جمعة فى دار الافتاء بترشيحه ليكون شيخاً للأزهر.. وهو ما يمكن أن يحدث بسهولة.. فالمفتى الجديد يحمل سمات خاصة لا تؤهله لدار الافتاء فقط.. ولكن تؤهله لما هو أكثر.

هذه الأزمات استطاع على جمعة أن يحتويها ويطويها تحت جناحيه.. لكن هذا لن يمنع أن تحيط به العواصف – وساعتها لابد أن يتخلى عن منطقه الذى تحدث به عن علاقته بشيخ الأزهر وجهات الافتاء.. العواصف ستأتى تحديداً من

موقف على جمعة من إسرائيل والعمليات الاستشهادية.. ولا أتوقع ذلك بعد سؤال سيأتيه.. فقد قال رأيه بالفعل.. حدث ذلك فى حوار أجراه معه موقع "حقائق مصرية" الذى يشرف عليه الإخوان المسلمون.. قال على جمعة كلاماً كثيراً.. هذا بعضه وبالنص:

من يتسلل من الشباب متجهاً للجهاد على أرض فلسطين دون إذن الحاكم ويسقط قتيلاً هو شهيد لأن فلسطين حالة خاصة وليست هى الحالة الموجودة فى الأرض، لأن فلسطين فيها عدو استولى على أرض وهذا الاستيلاء جرمته المواثيق والقرارات الدولية ومع ذلك لم يتبع الصهاينة إلا منطق القوة والأمر الواقع، وترك العالم اليهود يسعون فى الأرض فساداً، فاستطاعوا أن ينتزعوا الشريعة الدولية إلى الآن للأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ والتى ينشئون بها المستوطنات ويدكون فيها البلاد ويرتكبون المذابح وينتهكون المقدسات خاصة مدينة القدس الشريف، فإسرائيل إذن حالة خاصة لا وجود لها فى الأرض فنحن أمام احتلال مجرم وهذا هو أصل الإرهاب.

ومن يقوم بعمليات فدائية ضد الصهاينة ويفجر نفسه هو شهيد دون شك لأنه يدافع عن وطنه ضد عدو محتل وتؤيده الدول الكبرى مثل أمريكا وبريطانيا.

الصهاينة لم يفرقوا بين المدنى والعسكرى وجعلوا الشعب كله تحت طلب الجيش والمستوطن المدنى الذى يحتل الأرض فى حالة حرب هو حربى، ثم إنهم جميعاً سواء عسكريين أو مدنيين يحملون السلاح أى أنهم من أهل القتال، والصهاينة أيضاً لم يفرقوا بين الحدود فاحتلوا جميع الأرض .

يجوز قتل الإسرائيلى المسافر خارج حدود دولته لأنه حربى.. والحربى هذا مفسد فى الأرض، ويجوز قتل الإسرائيلى حتى لو كان يرتدى زيا دبلوماسياً كما يشاء.. لكنه مهدر الدم.. إلا أن مسألة هدر الدم هذه لا توجب قتاله إنما تجيز قتله فقط.

هذه الآراء ستجلب على المفتى الجديد عواصف عاتية ومن متابعتى له أعرف أنه رجل قوى الحجة يقف خلف رأيه ولا يتراجع عنه؟.. أعرف أنه سيتعرض لضغوط.. سيقفون على بابه يطالبون منه التخفيف.. فهل يستجيب على جمعة لذلك؟!.. أنا فى الانتظار.. أقلامنا معه تسانده.. وتقف خلفه.. وليس من حقه أن يخذلها.

صائد الطيور

27

صائد الطيور

هل أصف لكم ما حدث؟.. أم أن الحزن ملأ آذانكم فلا تريدون أن تسمعوا شيئاً جديداً؟.. وهل أحدثكم عن مدى الذل والهوان الذى وصلنا إليه؟.. أم أن بقايا الشيخ أحمد ياسين وهى ملقاه على الأرض تكفى للإجابة وتفيض؟.. وهل أحدثكم عن مستقبل المنطقة بعد عملية الاثنين الحزين؟.. وماذا يفيد المستقبل إذا كنا نتلقى الضربات الموجعة ولا نجرؤ حتى على إعلان الألم.. لقد أحاطنى الحزن ومشاهد اغتيال الشيخ ياسين والذى كانوا معه تتوالى أمامنا.. ولا نستطيع سوى مصمصة الشفاه.. وبعض الهتافات والمسيرات الهزيلة.. ولذلك تركت كل ذلك خلف ظهرى.. لم ألتفت لأبطال الحناجر الفارغة.. ولا للغارقين فى بحر التحليلات الرومانسية.. ولا للصامتين قليلى الحيلة.. فقط قررت أن أروى لكم سيرة هذا الرجل .. فعلها تقنع الصامتين العرب أن الخلاص فى الكفاح وليس فى النواح.

فى طفولته البعيدة - ولد عام ١٩٣٦ بقرية الجورة - كان الشيخ أحمد ياسين يهوى اصطياد الطيور.. كانت متعة لا تدانيها متعة.. يقضى وقته من الصباح إلى المساء فى مطاردة الطيور والعصافير.. يجرى خلفها مغرياً إياها بالقرابين مرة.. وبالفخاخ مرة أخرى.. وفى كل مرة كان الطفل أحمد ياسين يحصل على ما يريده.. ويبدو أن صائد الطيور فى شخصية الشيخ ياسين ظل ملازماً له طوال حياته.. فبعد أن كبر ووجد أن الأرض محتلة والحقوق ضائعة والتبجح الصهيونى يتزايد أصبح صائد للأعداء.. الذين ضجوا به ولم يكن أمامهم إلا اغتياله.. اعتقاداً منهم أن ابناءه المجاهدين سيتوقفون عن استلهام روحه ووصاياه فى جهادهم وصعودهم إلى النجوم.. حيث سماء الحرية وفضاء الاستقلال.

كان أسرته فقيرة للغاية.. أمه امرأة بسيطة وهى حامل فيه جاءها هاتف فى المنام وقال لها: أنت حملت، فإذا وضعتيه فسمية أحمد، احتفظت الأم بما أسره الهاتف لها لنفسها وعندما وضعته أخبرت نساء العائلة بأنها ستسميه أحمد.. اعترضن عليها.. رفضن الاسم.. فقد كان فى العائلة رجل غليظ القلب.. شديد البطش يكرهه الجميع اسمه أحمد.. وقد خشيت نساء العائلة أن يكون للطفل حظ من الاسم والصفة.. لكن الأم أصرت فما كان لها أن تخالف هاتفاً جاءها فى المنام.

لم يكن أحمد ياسين يذكر شيئاً عن والده، فقد مات وهو مازال ابن خمس سنين.. لا يتذكر شيئاً من ملامح وجهه ولا تفاصيل حياته ولا شيئاً عن صفاته.. وضع القدر تربية أحمد ياسين فى يد أمه فأحسنت تربيته بما يليق بأسرة فقيرة يتعب أبناؤها ليحصلوا على قوت يومهم بشق الأنفس. فى مدرسة الجورة الابتدائية بدأ أحمد ياسين طريقه مع التعليم.. لكن الحرب التى تنهى كل شىء حرمته من مدرسته. فبينما كان يدرس فى الصف الخامس الابتدائى وقعت كارثة ١٩٤٨. جاءت الهزيمة على كل شىء ولم ترحم الطفل الصغير.. حرمته من مراتع الصبا، إذ وجد نفسه يرحل مع أسرته إلى غزة.. وفى غزة ضاقت الأحوال على الأسرة الصغيرة.. ضاقت الحياة وعانت الأسرة مرارة الفقر والجوع والحرمان.. كان لابد للعائلة أن تأكل.. فلم يتردد أحمد ياسين فى الذهاب إلى معسكرات الجيش المصرى المرابطة فى غزة ليأخذ ما يزيد على حاجة الجنود ليطعم به أهله.. توقف أحمد ياسين عن الدراسة لمدة عام كامل كان يدبر فيه مع أخوته أحوال الأسرة حيث كان يعمل فى محل فول بغزة.. لكنه عاود الدراسة بعد ذلك.

عندما وصل أحمد ياسين إلى السادسة عشرة من عمره كان على موعد عنيف وقاس مع القدر، كان يلعب مع بعض زملائه عام ١٩٥٢. يحكى هو عن ذلك: "كنت نازل البحر ألعب ومعى بعض الأصدقاء.. فى حركة معينة وأنا

باتشقلب على الأرض صار عندى التواء فى العنق.. وكسر.. ولم أتمكن من الحركة نهائياً.. نقلت إلى المستشفى من هناك.. عملوا اجراءات طبية.. جبس على العنق استمر ٤٥ يوماً.. كنت لا أتحرك نهائياً.. بدأت الحركة خطوة بخطوة.. بدأت أقف على قدمي.. لكن طبعاً مشى الضعيف، فلو وقفت أى حاجة فى طريقى أقع على الفور.. بعد الـ ٤٥ يوماً خرجت من المستشفى.. فكيت الجبس عن عنقى وعدت إلى المدرسة.. كنت وقتها ضعيفاً جداً.. كنت إذا جئت لأمسك بالقلم لا أستطيع.. مرت الدراسة وأنا على هذا الحال".

كانت الحالة محزنة للغاية.. أصيب الرجل بشلل تام.. وخلال سنوات عمره زادت عليه الأمراض.. عانى من فقدان البصر فى العين اليمنى.. وكانت قد أصيبت بضربة أثناء التحقيق معه أثناء سجنه.. وبعد العين اليمنى أصيب بضعف شديد فى قدرة العين اليسرى على الإبصار.. هذا غير التهاب مزمن فى الأذن وحساسية فى الرئتين.. وبعض الالتهابات المعوية.. كل ذلك لم يضعف عزيمة أحمد ياسين.. فقد ظل حتى النهاية مجاهداً بالكلمة.. لأنه لم يكن يملك سواها.

فى عام ١٩٥٨ أنهى أحمد ياسين دراسته الثانوية، بدأ فى البحث عن فرصة علم.. كادت ظروفه الصحية القاسية تقف أمام مستقبله.. لكنه حصل على فرصة علم فى التدريس.. وكان معظم دخله من العمل يصب فى الإنفاق على أسرته.. ظروفه الصحية التى لم تقف أمام عمله.. لم تقف أيضاً أمام مشاركته فى المظاهرات التى اشتعلت بها شوارع غزة احتجاجاً على العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.. فى هذه المظاهرات وضحت قدرات أحمد ياسين الخطابية.. وقتها كان يرفض الاشراف الدولى على غزة.. وأكد مطالب الفلسطينيين بعودة الإدارة المصرية إلى أرضه.

انتمى أحمد ياسين إلى جماعة الإخوان المسلمين مبكراً للغاية.. وكان هذا الانتماء سبباً لاعتقاله فى المرة الأولى من حياته.. كان ذلك عام ١٩٥٦، فقد اعتقلته المخابرات المصرية.. لكن اعتقاله لم يدم سوى شهر واحد تأكدت خلاله

المخابرات المصرية أن ياسين ليست له أية علاقة تنظيمية مع جماعة الإخوان المسلمين المصريين.. وهو ما أكده ياسين بنفسه بعد ذلك فى برنامج "شاهد على العصر" الذى يقدمه أحمد منصور على قناة "الجزيرة" يقول: أنا لا أذكر فى تاريخ حياتى أنه كان بيننا وبين إخوان مصر أى علاقات ، ولا أذكر فى تاريخ حياتى أنى رأيت قيادة من قيادات الاخوان فى مصر إلا مرة واحدة كنت ذاهباً إلى القاهرة وفى مكتبة وهبة كنت أتجول بين الكتب ففوجئت بهم يقولون لى: هل تعرف من هذا؟ قلت لهم: لا، قالوا: هذا الاستاذ محمد قطب.. لكنى وحتى فى زيارتى الأخيرة إلى مصر كان من طلباتى أن أزور المرشد العام للإخوان لكن ذلك لم يتحقق .

بعد هزيمة ١٩٦٧ وقعت كافة الأرضى الفلسطينية فى قبضة إسرائيل.. كان لابد لأحمد ياسين أن يقوم بدور.. فقام بما يستطيعه.. ومن فوق منبر مسجد العباسى قاوم الاحتلال بكلماته.. ودعا من خلال خطبه إلى جمع التبرعات لمساعدة المجاهدين وأسر الشهداء.. وواصل دعوته تلك من خلال رئاسته للمجمع الإسلامى فى غزة.. وظل على هذا الحال حتى عام ١٩٨٢.. كان إزعاجه للسلطات الإسرائيلية متواصلاً، فتم اعتقاله وكانت التهمة التى علقت فى عنقه هى تشكيل تنظيم عسكرى وحيازة أسلحة.. وصدر عليه حكم بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاماً.. لكن وبعد ثلاث سنوات فقط أطلق سراحه فى عملية لتبادل الأسرى بين إسرائيل والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

بعد عامين فقط وضع أحمد ياسين مع مجموعة من رفاقه حجر الأساس لحركة المقاومة الشعبية التى عرفت إعلامياً باسم حماس.. كان هدفها الأساسى هو تحرير فلسطين.. وأشعلت هذه الحركة الانتفاضة الأولى التى بدأت عام ١٩٨٧ وعرفت وقتها باسم "انتفاضة الحجارة".. ومن وقتها كان ينظر للشيخ ياسين كزعيم روحى لتلك الحركة.. فى عام ١٩٨٨ اقتحمت السلطات الإسرائيلية منزل الشيخ ياسين وفتشته وهددته بالنفى إلى لبنان إن لم يتدخل لايقاف

الانتفاضة.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.. فاعتقل الشيخ ياسين عام ١٩٨٩.. ودخل معه السجن المئات من أعضاء حركة حماس.. ظلت التحقيقات معه حتى عام ١٩٩١.. حتى أصدرت احدى المحاكم العسكرية حكماً عليه بالسجن مدى الحياة.. وفى حيثيات الاتهام.. تمت الاشارة إلى أن الشيخ ياسين يحرض على اختطاف وقتل جنود إسرائيل وتأسيس حركة حماس بجهازيها العسكرى والأمنى.

كان لابد أن يطلق سراح الشيخ ياسين.. حاولت ذلك كتائب عز الدين القسام وهى الجناح العسكرى لحركة حماس. قامت الكتائب بخطف جندى إسرائيلى قرب القدس عام ١٩٩٢ وعرضت على إسرائيل مبادلته مقابل الإفراج عن معتقلى حماس، لكن إسرائيل رفضت وخططت لإطلاق سراح الجندى فشنت هجوماً على مكان احتجازه.. وبدلاً من أن تطلق سراحه قتلته فى عملية الاقتحام.. وقتل فى العملية كذلك قائد الوحدة الإسرائيلية وقائد مجموعة الفدائيين.

ما فشلت فيه حماس عام ١٩٩٢ نجح عام ١٩٩٧.. ففى عملية تبادل أسرى أخرى جرت بين الأردن وإسرائيل فى أعقاب المحاولة الفاشلة لاغتيال رئيس المكتب السياسى لحماس خالد مشعل فى عمان، كانت الأردن قد ألقت القبض على اثنين من عملاء الموساد سلمتهما لإسرائيل مقابل إطلاق سراح الشيح أحمد ياسين.. وبالفعل خرج الشيخ من السجن وبدلاً من أن يرتاح واصل عمله وتحريضه على قوات الاحتلال الإسرائيلى.

لم تنس إسرائيل للشيخ ياسين ما فعله بها ومعها.. حاولت التضييق عليه.. دفعت السلطة الفلسطينية للتعامل معه.. ففرضت عليه السلطة الفلسطينية الإقامة الجبرية أكثر من مرة.. لكن كل ذلك لم يمنع من أن يصل صوت الشيخ ياسين إلى كل المعارضين للاحتلال.. وفى كل المظاهرات التى كانت تشهدها البلاد العربية احتجاجاً على الاحتلال الإسرائيلى.. كان الشيخ ياسين يتحدث إلى المتظاهرين عبر الهاتف.. وكان صوته الواهن يبعث فى المتظاهرين حماساً.. فتشتعل الهتافات وتتواصل المظاهرات.

فى سبتمبر ٢٠٠٣ حاولت إسرائيل اغتيال الشيخ أحمد ياسين.. استهدفت طائرات إسرائيلية شقته فى غزة.. لكن محاولة الاغتيال فشلت ولم يصب الشيخ إلا بجروح طفيفة فى ذراعه اليمنى، وقتها اتهم الشيخ ياسين وبشكل مباشر الرئيس الأمريكى جورج بوش بإعطاء الضوء الأخضر لإسرائيل باغتياله وذلك بالتحريض عليه.. وقال وقتها الشيخ ياسين أيضاً: هذا العدو الصهيونى إذا كان يعتقد أنه بطائراته ودباباته سيرهبنا فإنه واهم.. هذا الشعب لن تكسر إرادته أبداً بإذن الله تعالى، فهو المدافع عن كرامة الأمة وعزتها، لقد حاول العدو أن يفرض علينا الاستسلام إلا أنه فشل فى ذلك، وها هى المرأة الفلسطينية تدخل المعركة الآن، لتلقن العدو الصهيونى درساً فى المقاومة والتحدى.

ومن جانبها أعلنت حماس أن إسرائيل ستدفع ثمن محاولتها اغتيال الشيخ ياسين غالياً، فجميع أبناءها مشاريع شهادة.. وإذا أراد القتلة من هذه المحاولة وقف مقاومة حماس للاحتلال فهم واهمون، فإن حماس تجود بقادتها وأبناء قادتها ولا تجود بشبر واحد من فلسطين، كما ان قادتها ليسوا أقل طلباً للشهادة.. ثم أن الذى يستحق القتل هم قادة العصابات الصهيونية الذين اغتصبوا فلسطين عام ١٩٤٨ وقتلوا أبناء الشعب الفلسطينى وشردوهم فى منافى الأرض.

الآن .. قتلت إسرائيل الشيخ ياسين بالفعل ثم قتلت بعده خليفته عبد العزيز الرنتيسى.. فماذا ستفعل حماس؟.. أعتقد أنكم تنتظرون كما أننا جميعاً ننتظر!!

صفقـــات

بحرص على السرية

28

صفقات بطرس غالى السرية

بعد سنوات طويلة من الغياب عاد د. بطرس غالى ليستقر فى مصر لا ليستمتع بأيامه بعيدا عن العمل الرسمى ومشاكله ، ولكن ليبدأ عملاً شاقاً يواصل به جهوده التى قضى فيها أكثر من ثلاثة أرباع عمره ، د. بطرس غالى يحمل على كتفيه اثنين وثمانين عاماً – ولد عام ١٩٢٢ – أنفق منها ما يزيد على خمسة وخمسين عاماً فى العمل السياسي والأكاديمى ورئاسة المنظمات الدولية ، دخل الأمم المتحدة كأمين عام لها عام ١٩٩١ وخرج منها عام ١٩٩٦ ، والآن هو يرأس ست مؤسسات عالمية مهمة منها مجمع القانون الدولى واللجنة الدولية لليونسكو ونادى موناكو ومركز الجنوب .

عاد بطرس غالى ليكون رئيساً للمجلس القومى لحقوق الإنسان.. وهو المجلس الذى يعول عليه المصريون آمالاً كبيرة.. عودة بطرس غالى لم تكن هادئة.. فقد حمل معه معلومة ونبوءة ومحاولة لتصدير نفسه كراع لحقوق الإنسان.. والثلاثة أفصح عنها فى حوار مع مكرم محمد أحمد نشرته مجلة المصور.

المعلومة أن الرئيس مبارك اتصل به فى باريس فى منتصف يناير ليسأله إن كان لا يزال يحافظ على الرجيم ونصائح زوجته ؟ فقال له إن البرد قارس فى أوروبا هذا العام ويتطلب بعض الطاقة والخروج عن الرجيم ، فرد الرئيس ضاحكاً : إذن لماذا لا تعود إلى دفء القاهرة ، ثم أخبره الرئيس بتعيينه رئيساً للمجلس القومى لحقوق الإنسان ، شكا بطرس غالى للرئيس من كثرة مشاغله وكبر سنه ، فقال له الرئيس : ولكنك لا تزال نشيطاً يا بطرس ومع ذلك فسوف يكون د. كمال أبو المجد الذى اخترته نائباً لرئيس المجلس خير عون لك .

أما النبوءة فكانت كالتالى : فى عام ١٩٩٥ كان بطرس غالى ينهى فترته الأولى – التى كانت الأخيرة أيضاً – فى منصبه كأمين عام للأمم المتحدة.. كان واضحا أنه لن يستمر فالخلافات بينه وبين الولايات المتحدة وصلت إلى ذروتها بعد أن نشر تقرير لجنة قانا الذى أكد أن إسرائيل قصفتْ مخيم القوات الدولية فى جنوب لبنان عمداً رغم عدم علمها بوجود لاجئين لبنانيين من شيعة الجنوب داخله.. وأن المذبحة لم تحدث دون قصد أو عن طريق الخطأ.. كان د. بطرس غالى فى زيارة إلى الهند.. وفى دلهى نصحه بعض أصدقائه أن يذهب إلى أحد العرافين الهنود المشهود لهم بالقدرة المتميزة على قراءة الطالع ، فلعله يكشف بعضا من نيات واشنطن تجاهه ، جلس بطرس غالى أمام العراف الهندى الذى قال له : لن تتمكن من أن تكون سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة لفترة ثانية ولن يعاد انتخابك.. لكنك ستظفر بعد القمر الألف من حياتك بنجم ساطع يقودك إلى مجد جديد.. وقد جاوز د. بطرس غالى هذا العام القمر الألف.. وليس بعيدا أن يكون المجد الجديد هو رئاسته للمجلس القومى لحقوق الإنسان !

نصل إلى المهم.. إلى المحاولة التى لم يتأخر د. بطرس غالى عن بذلها ليؤكد أنه أهل للمنصب الجديد.. كان يتحدث مع مكرم محمد أحمد عن الدبلوماسية الهادئة والتى سيستطيع من خلالها أن يحقق كل المطلوب من المجلس القومى لحقوق الإنسان قال : عندما كنت سكرتيرا عاماً للأمم المتحدة أستطعنا بهدوء ودون ضجة أن نجنب نيجيريا حرباً أهلية كان يمكن أن تندلع عام ١٩٩٤ بسبب القبض على عدد من الزعماء السياسيين ، كان من بينهم الرئيس الحالى أباسونجو، صحيح أننا لم ننجح فى الإفراج عن الجميع لكننا نزعنا فتيل الحرب الأهلية وخرج الكثيرون من السجون من خلال الدبلوماسية الهادئة .

كان يمكن أن يمر كلام د. بطرس غالى دون أن يستوقفنا.. وكان يمكن أن نثنى على إنقاذه لنيجيريا من حرب أهلية.. لكن هناك إشارة واضحة إلى أن بطرس غالى وقف بصورة غير مباشرة وراء إشعال الحرب الأهلية فى رواندا..

الإشارة كاملة يحمل تفاصيلها كتاب عنوانه "شعب مضلل.. دور الغرب فى الإبادة الجماعية فى رواندا" مؤلفته هى ليندا ملفرن وهى صحفية وكاتبة.. استمرت كمراسلة لصحيفة الصنداى تايمز لمدة أربع سنوات ، لها محاضرات عن القضايا الدولية وكانت عضواً زائراً فى قسم السياسات الدولية بجامعة ويلز .

كتاب ليندا صدر عام ٢٠٠٠ والمفاجأة أن الهيئة العامة للاستعلامات هى التى قامت بترجمته ولم تنس الهيئة ان تصدر الكتاب بعبارة طويلة قالت فيها: "لم تمتد الهيئة بالحذف أو التعديل فى المادة التى جاءت بين دفتى الكتاب التزاماً بسياستها العامة التى تحترم حرية الرأى والتعبير وعدم الحجر على أفكار المؤلفين والكتاب أو بتبديل الحقائق وبتغيير المفاهيم وغير ذلك مما لا يتفق ومصداقية الهيئة وأمانتها" .. وبهذا التنويه تكون الهيئة قد برأت ساحتها مما جاء فى هذا الكتاب ووضعت المسئولية فى عنق المؤلف ودار النشر الصادر عنها الكتاب ، وهى بالمناسبة دار زد للنشر . تنويه الكتاب حاول التخفيف من التفاصيل المفزعة التى ننقلها لكم كما وردت وبتفاصيلها ، فبعد عامين من وصول هابير يمانا إلى الحكم فى رواندا وكان ذلك عام ١٩٧٧ وقعت رواندا اتفاقية تعاون عسكرى مع باريس.. لتصبح فرنسا وعلى امتداد خمسة عشر عاماً حليفاً رئيسياً لرواندا ، وقد فعلت فرنسا ذلك لخوفها من حدوث تعديات أنجلوفونية فى أفريقيا.. ولم تكن أهمية رواندا فى أن لغتها الثانية هى الفرنسية.. ولكن لأنها تقع فى خط فاصل سياسى بين الفرانكفونية والأنجلوفونية فى شرق أفريقيا .

كان هابير يمانا مقرباً للغاية من الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران.. لكن هذه الصداقة لم تضمن الاستقرار الكامل.. فقد ظهر للنور فى رواندا حزب جديد باسم "الجبهة الوطنية الثورية من أجل التطوير" .. وصل الحزب إلى مكان فى رواندا.. وعندما هجمت الجبهة الوطنية الرواندية على رواندا فى أكتوبر عام ١٩٩٠ اتصل هابير يمانا هاتفياً على الفور بقصر الإليزيه فى باريس.. وعلى الفور أرسل ميتران قوات فرنسية لرواندا.. وبعد ثلاث أيام فقط من الغزو..

تحديدا فى ٧ أكتوبر قام ٣٠٠ جندى فرنسى من جنود المظلات بتأمين مطار كيجالى.. وبعد أيام وصل إلى رواندا ما يزيد على ٦٠٠ جندى فرنسى آخرين لحماية وترحيل المواطنين الفرنسيين ، اعتمدت رواندا على فرنسا فى إمدادها بالسلاح .. وبذل نظام هابير يمانا جهوداً يائسة لزيادة قوات الجيش وشراء الأسلحة..

حتى الآن.. ما هى علاقة بطرس غالى بكل ما حدث فى رواندا تقول ليندا مؤلفة "شعب مضلل" : بعد أسبوعين من الغزو فى ١٦ أكتوبر ١٩٩٠ ذهب سفير رواندا بمصر سلستين كابندا لحضور اجتماع بوزارة الخارجية بالقاهرة ، وكانت مصر طوال سبعة أعوام ترفض بيع الأسلحة لرواندا ، اجتمع كابندا فى ذلك اليوم مع بطرس غالى الذى لم يكن قد بدأ وقتها حملته ليصبح سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة.. وكان فى ذلك الوقت- كما تقول ليندا- دبلوماسياً محترفاً غير مشهور ومحامياً ومؤلفاً للكتب والمقالات فى القانون الدولى والعلوم السياسية ، وكان وزير الدولة للشئون الخارجية .

بصراحة قال كابندا لبطرس غالى إنه يحتاج مساعدته وسلمه قائمة بالأسلحة المطلوبة ، كان وقتها لدى مصر إنتاج ضخم من الأسلحة رخيصة الثمن للبيع.. طلب كابندا أن يتدخل بطرس غالى لدى الحكومة المصرية لصالح رواندا وقال له : إن بلجيكا ألغت مساعدات عسكرية كانت سترسلها لنا ، كانت رواندا يملؤها اليأس من أن تحصل على الأسلحة المصرية لدرجة أن بعض المسئولين من رواندا ألحوا فى إحدى المرات أن الأسلحة يمكن أن تكون هدية من مصر إلى رواندا.. لكن مصر كانت دائماً ما ترفض ، وكانت الهدية الوحيدة التى أهدتها مصر لرواندا هى تمثال فرعونى وضع مع بوق فى وسط أحد الطرق الملتوية الاستراتيجية فى كيجالى .

أبلغت مصر رواندا بشكل قاطع أنها لا يمكنها أن تمنحها السلاح الذى تريده، لكن بعد لقاء كابندا مع بطرس غالى تغيرت الصورة بعض الشيء ، بل أن كابندا

أرسل رسالة عبر التلكس إلى وزير خارجية بلاده يخبره فيها أن بطرس غالى وعد بتقديم المساعدة كما أكد أنه سيتعامل مع الطلب شخصياً .

كان بطرس غالى يتصرف من موقع ثقة.. ففى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٠ وقعت كل من مصر ورواندا على أول عقد للسلاح بمبلغ ٥٠٨٨٩ مليون دولار أمريكى ، وتضمنت صفقة السلاح ٦٠ ألف قنبلة يدوية وحوالى ميلونى طلقة من الذخيرة الحية و١٨ ألفاً من قنابل مدفع الهاون ٨٢ ملليمتراً و١٢٠ ملليمتراً و٤٢٠٠ بندقية هجومية وصواريخ وقاذفات صواريخ ، وصفت هذه الشحنة الأولى من السلاح بـأنها مواد إغاثة وتم شحنها من مطار القاهرة وأرسلت إلى كيجالى فى ٢٨ أكتوبر على متن طائرة بوينج ٧٠٧ عل الخطوط المصرية بتكلفة ٦٥ ألف دولار أمريكى ثمناً للرحلة كلها وأعطى هابير يمانا الحق بدفع المال عن طريق البنك التجارى الدولى المصرى .

بعد ثلاثة أيام فقط كتب بيزيمو نجو وزير خارجية رواندا لبطرس غالى ليشكره على تقديم المساعدة فى سرعة إنجاز اتفاق السلاح ، وبعد عام من هذه الصفقة وعندما اختير بطرس غالى سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة تلقى برقية تهنئة من بيزيمو نجو.. قال له فيها : أنت الشخص الذى لى معه ذكريات لا تنسى حول تعاوننا الواضح والمفيد فى تعزيز أواصر الصداقة بين بلدينا .

المفاجأة التى يكشفها كتاب ليندا أن الاتفاق على السلاح بين مصر ورواندا ظل سراً ، وقد جاء ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه الجهود الدولية النشطة لمنع حدوث حرب أهلية بين الجبهة الوطنية الرواندية وقوات الحكومة الرواندية ، ففى يوم ٢٦ أكتوبر أى قبل يومين فقط من توقيع أول أتفاق سلاح بين مصر ورواندا.. وافقت كل من الحكومة والجبهة على وقف أطلاق النار عقب الجهود الدبلوماسية التى بذلتها الحكومة البلجيكية .

فى أبريل عام ١٩٩٤ أصبحت رواندا ثالث أكبر دولة مستوردة للسلاح فى إفريقيا ، وجاءت بعدها نيجريا وأنجولا ، وقد أنفقت رواندا وهى فى النهاية دولة

صغيرة على السلاح أكثر من ١٠٠ مليون دولار أمريكى.. وقد ظل السلاح فى الفترة من ٩٠ إلى ١٩٩٤ يتدفق على رواندا بداية من الأسلحة الصغيرة والخفيفة ونهاية بالمعدات العسكرية الثقيلة .. لم يصمت بطرس غالى ففى واحد من حواراته الكثيرة وصف دوره فيما حدث فى رواندا بأنه كان دورا محفزاً وقال انه كان وزيرا للشئون الخارجية وكانت مهمته هى المساعدة فى بيع إنتاج بلاده من السلاح ، وكان سيساعد أية حكومة تريد السلاح من مصر ، خاصة وأن الأسلحة المصرية رخيصة والمصريون يتفاخرون بأنفسهم لسرعة التسليم.. اقترب بطرس غالى أكثر مما حدث قال : كابندا فاتحنى لأنه لم يكن يعرف شخصاً أخر فى الحكومة المصرية يعقد معه الصفقة.. وعندما تمت المواجهة مع غالى.. فكيف يجرى صفقات سلاح أثناء جهود السلام الدولية قال : انه لم يكن يعتقد أن عدد البنادق الألف القليلة قد تغير الوضع .

مؤلفة الكتاب الذى ترجمته الهيئة العامة للاستعلامات أكدت أنها لا تعلم أبدا الحقائق الكامله للتغيير المفاجئ فى الموقف المصرى فى أكتوبر ١٩٩٠ وتحول سياستها الخارجية "عدم بيع السلاح لرواندا" ومن غير شك فإن المبيعات ساعدت فى زيادة الأرباح الخارجية ، وفى الوقت الذى طلب فيه كابندا مساعدة بطرس غالى تم تخصيص ٢١٦ مليون دولار لرواندا بعضها من الاتحاد الأوروبى مع إسهامات ثنائية الحجم من فرنسا وألمانيا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية ، وتغير وضع رواندا حيث أصبح اقتصاد الدولة فى أيدى أقوى المؤسسات الدولية فى العالم كالبنك الدولى وصندوق النقد الدولى ، كل الدلائل أشارت إلى أن جزءاً من المال المقدم لرواندا لم يستخدم فى تجنب انهيار الاقتصاد الرواندى.. ولم يساعد فى تجنب المجاعة الرواندية أو علاج ضحايا الحرب.. لكن أجزاء كبيرة من هذه القروض تحولت من قبل النظام الرواندى للحصول على المعدات العسكرية وشراء الأسلحة والرشاشات والمدافع.. كان هذا بالطبع غير المساعدات العسكرية التى كانت تقدمها فرنسا لرواندا.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم.. وهو لماذا بطرس غالى بالذات ؟ لم تترك مؤلفة الكتاب السؤال يمضى بلا إجابة.. فقد استعرضت ملامح العلاقة بين بطرس غالى ورواندا ، فقد بدأت العلاقة الوطيدة بين د. بطرس غالى والنظام الرواندى مع أول زيارة رسمية له إلى كيجالى عام ١٩٨٣ ، كما كان يقوم بمعظم المحاورات الدبلوماسية المصرية – الرواندية.. وبطرس غالى يعرف رواندا جيداً فهى الدولة التى ينبع منها النيل ، وقد وصف بطرس غالى رحلاته إلى إفريقيا وكيف اتجه مرات عديدة نحو الجنوب فى أعماق وسط القارة الإفريقية حتى منبع هذا النهر العظيم الذى كثيراً ما أثر فيه وهو طفل.. ويقول : إفريقيا هى أمنا جميعاً ومصر هى أقدم بنت لإفريقيا وهذا هو السبب الذى أحب من أجله إفريقيا وأحاول جاهداً طيلة حياتى مساعدتها .

عندما ذهب بطرس غالى فى أول مهمة رسمية إلى رواندا وكان ذلك فى الثمانينيات كانت سياسة مصر هى تكوين جبهة بلدان حول حوض النيل ، ولما كان نائباً لوزير الخارجية أرسل لوزير الخارجية الرواندى خطاباً يعرض عليه تعاونا وطيداً وانتهز فرصة حضور رواندا فى مؤتمر إقليمى كعضو فى مجموعة الدول الإفريقية الرئيسية المتوسطية ، وتم الاتفاق على تدريب مصر للجنود الروانديين ، ولكن الاتفاق فشل بسبب تكاليف نفقات معيشتهم ، وقد زارت مجموعة من المسئولين فى الجيش الرواندى عام ١٩٨٥ القاهرة.. وفى عام ١٩٨٨ فشلت زيارة وزير الخارجية الرواندى إلى القاهرة وأثناءها اجتمع بطرس غالى بالسكرتير العام لوزارة الخارجية الرواندية جين دماسين بيزيمانا.. وفى العام نفسه زار بطرس غالى رواندا مرة أخرى .

فى عام ١٩٨٩ أبلغت مصر المسئولين فى رواندا أنها ستدرس بعناية طلبهم إمدادها بالأسلحة لكن لم يعقد اتفاق وفى ٩ سبتمبر من نفس العام وقعت مصر ورواندا على اتفاقية بتعاون تجارى وثقافى وعلمى ، ومن بين فقرات الاتفاقية اتفقت مصر على توفير ١٢ طبيباً ومهندساً كهربائياً لصيانة معدات المستشفيات.. وفى بداية عام ١٩٩٠ طلبت رواندا من مصر معدات للحفاظ على النظام العام

وهى غازات مسيلة للدموع وعصى وخوذات بالقطع الأمامية المتحركة التى تغطى الوجه وأقنعة الوقاية من الغازات ، تلقى هابير يمانا وهوفى عاصمته كيجالى تقريراً مفصلاً عن علاقات رواندا بمصر ولم يكن لرواندا أن تحصل على أى قطعة سلاح من مصر دون تدخل بطرس غالى الذى كان المسئولون الرونديون يعرفونه جيداً .

لقد كان لبطرس غالى دوراً مهماً فى بيع الأسلحة إلى رواندا.. ولم ينكر هو ذلك.. وقد كان بطرس غالى واضحا للغاية فلم ينكر ما فعله.. بل أعتبر ذلك جزءاً من مهامه ومسئولياته.. لست هنا فى وضع تقييم لتجربة بطرس غالى.. ولكنى هنا فقط أنقل شهادة وردت فى كتاب مهم ترجمته الهيئة العامة للاستعلامات وهى هيئة رسمية.. صحيح أن الهيئة حاولت أن تبرأ نفسها مما ورد فى الكتاب ووضعته فى عنق المؤلفة والناشر.. لكن الوقائع موجودة ولا يستطيع أن ينكرها أحد حتى بطرس غالى نفسه .

كان أولى ببطرس غالى أن يتحدث عما فعله فى رواندا حتى ولو على سبيل التطهير والاعتراف بذنب وساطة وقفت وراء تأجيج حرب أهلية فى دولة إفريقية كان بطرس غالى يحبها كثيراً لكنه اكتفى فقط بالحديث عن دوره فى إخماد الحرب الأهلية فى نيجيريا.. وكأنه يريد أن يقدم للناس مؤهلاته وقدراته وكفاءته ليقود المجلس القومى لحقوق الإنسان .

د. بطرس غالى كفاءة دولية وشخصية عالمية.. وخبرة هائلة.. ومؤكد أن مجلس حقوق الإنسان سوف يستفيد منه خاصة أن لديه أفكاراً واضحة ورؤية شاملة.. ولابد أنها ستأتى ثمارها.. قد يكون لذلك شرط واحد.. وهو أن يتخلى د. بطرس غالى عن عقلية الموظف التى يمكن أن تحكم عمله.. فهو ليس موظفا عند الحكومة.. بل هو الآن شخصية عامة يضع الناس على كتفيه مهام الحفاظ على حقوقهم.. والوقوف أمام الحكومة حتى لا تتمادى فى حصار المصريين بداية من الشوارع وحتى أقسام الشرطة.. فهل يستجيب د. بطرس غالى لذلك.. ليس أمامنا سوى أن ننتظر !

سمسار الجنة

29

سمسار الجنة

يريد كرم زهدى زعيم الجماعة الإسلامية أن نصدقه فى كل حالاته ، نصدقه عندما كان يرى أن المجتمع المصرى كافر وحكامه فى ردة عن الإسلام ويجب قتالهم وقتلهم ، وأن أموال المسيحيين حلال له ولجماعته متى تأكد أنهم يساعدون الكنيسة ويمولون نشاطها ، ونؤمن على كلامه بعد أكثر من عشرين عاما عندما يقول أن السادات مات شهيدا وأنه يبدى أسفه الشديد لهذه العملية وأنه لو عاد الزمان بالجماعة وبه لما أجازها ولعمل على منعها.. ولا يكتفى كرم بذلك.. بل يعتبر أن كل من سقط من أعضاء جماعته أو أفراد الشرطة فى المواجهات بينها وبين أجهزة الأمن شهداء.. وحتى تكتمل الصورة.. فكرم زهدى يرى أن الحاكم إذا قصر فى تطبيق حكم أو أكثر من أحكام الشريعة الإسلامية فإنه لا يكفر.. ما دام لا يرى أن حكمه أفضل من حكم الله.. ويضيف دون حرج أن الظروف الدولية والواقع العالمى الحالى يحولان بين كثير من الدول وبين تطبيق الشريعة الإسلامية .

الكلام الأول قاله كرم زهدى عمليا فى السنوات الأخيرة لحكم السادات.. شارك فى قتل الأبرياء.. سرق بنفسه محلات الذهب التى يملكها الأقباط.. أما الكلام الثانى فقد انفردت به جريدة الشرق الأوسط عبر حوار أجراه عبد اللطيف المناوى مع كرم فى سجن العقرب شديد الحراسة بمنطقة سجون طره جنوب القاهرة ، قد نعتبر ما قاله كرم زهدى مؤخرا تحولا إيجابيا فى منطق جماعة كان العنف منهجها والقتل دينها والسرقة هدفها.. وقد نعتبره كذلك تمهيدا ليندمج أفراد

هذه الجماعة فى المجتمع.. ويصبحوا مواطنين صالحين.. وقد نعتبر ذلك نصرا يستحق الاحتفال.. كما فعلت جريدة الشرق الأوسط.. وكما فعلت مجلة المصور عندما انفرد رئيس تحريرها مكرم محمد أحمد بالحوار مع القيادات التاريخية للجماعة الإسلامية.. وهو الحوار الذى قالوا فيه : سنصدر اعتذارا علنيا عن جرائم جسيمة ارتكبناها فى حق مصر.. لكنه كان اعتذارا مشروطا بأن تعتذر الدولة للجماعة عما ارتكبته فى حقها !

هذا التحول الحاد لا يحتاج إلى احتفاء به بقدر ما يستوجب التأمل والحذر.. فنحن نتعامل مع جماعة سياسية فى المقام الأول.. ولا تقدم على شيىء إلا إذا أخذت مقابلا له.. ولذلك فمن الاستخفاف أن يقول كرم زهدى أنه لم يحصل على شيء لجماعته لا عندما أعلنوا مبادرة وقف العنف عام ١٩٩٧ فى المحكمة.. ولا عندما تراجعوا وأصدروا أربعة كتب- يستعدون الآن لإصدار ثلاثة أخرى - تراجعوا فيها عن أفكارهم.. ولا عندما خرج كرم ببساطة يحسد عليها ليعتبر أن جميع من قتلوا فى الصراع بين جماعته وبين الأمن شهداء.. بل أن السادات نفسه الذى قتلوه مع سبق الإصرار والترصد اعتبره شهيدا.. والكلام غير مقبول.. لأن كرم يعلم جيدا الثمن المبدئى الذى حصلت عليه الجماعة.. فقد تغيرت المعاملة مع أفراد الجماعة فى السجن ١٨٠ درجة.. وخرجت أعداد كبيرة منهم خلال الفترة الماضية.. صحيح أنهم تحت المتابعة.. لكنهم فى النهاية خرجوا.. ويبدو أن كرم زهدى أدرك فضل ما فعلته كتب المراجعات الأولى ، فبادر بعطاء أكبر وخرج ليتراجع عن كل شيء.. بل ويزيد على ذلك بأن يدين تنظيم القاعدة وهجمات الرياض وتفجيرات الدار البيضاء.. وكله كما يقول أولاد البلد بحسابه .

لكن لماذا يتصدر كرم زهدى المشهد وحده الآن؟ ، رغم أنه فى حوار مكرم محمد أحمد مع الجماعة حضر عدد كبير من قياداتها.. كانوا إلى جوار كرم.. ناجح إبراهيم مفكرها وصفوت عبد الغنى المتهم الأول فى قضية اغتيال رفعت

المحجوب وعلى الشريف أحد أقطاب الجماعة وأسامة حافظ وبدرى مخلوف وهشام عبد الظاهر وممدوح يوسف.. وإلى جانب هؤلاء حضر أربعة يرتدون بدلة الإعدام الحمراء وهم حسن الخليفة وأحمد يكرى وغريب الشحات وشعبان هريدى .. لكن هذه المرة ومع عبد اللطيف المناوى احتل كرم زهدى الصورة بكاملها. صال وجال.. وقد يكون هذا طبيعيا لأنه رئيس الجماعة الآن .. وقد تعهد لأجهزة الأمن أن يستمع له كل أفراد الجماعة.. فهم يدينون له بالسمع والطاعة.. وهو كلام ليس صحيحا الآن على الأقل. فلم يعد كرم زهدى بالقوة الكافية والنفوذ الكبير ليلزم كل أفراد جماعته بآرائه الجديدة.. خاصة وهى آراء تختلف مع ما كانت تؤمن به الجماعة من قبل فقط.. لكنها تتناقض معها.. ولأن القائمين على مراجعات الجماعة الإسلامية كانوا يعرفون حجم الصدمة التى ستقع على أعضاء الجماعة.. فقد اختاروا كرم زهدى وحده ليلعبوا به لعبة القائد والزعيم الذى له شعبية طاغية فى الجماعة.. ولابد أن لكل ما سيقوله صدى واستجابة .

من حقك بالطبع أن تعرف من هو كرم زهدى وماذا فعل.. وكيف وصل إلى موقعه الحالى- بل كيف تحول وجه القاتل والسارق الذى بدأ به حياته إلى قناع من البراءة يرتديه الآن ويريد أن يقنعنا أو بمعنى أدق يخدعنا به.. ولد كرم زهدى فى بندر المنيا عام ١٩٥٣.. أى أنه يقف الآن على مشارف العقد السادس من حياته.. حصل على بكالوريوس معهد التعاون بأسيوط.. وخلال فترة سجنه التى بدأت عام ١٩٨١ عندما قبض عليه فى قضية تنظيم الجهاد.. حصل على ليسانس الحقوق ، كان واحدا من المؤسسين لتنظيم الجماعة الإسلامية فى أواخر السبعينيات .. حصد كرم زهدى شهرة طاغية بعد نجاح عملية اغتيال السادات.. وهى العملية التى ساعدت على زيادة انتشار الجماعة الإسلامية.. حيث أن المنتسبين للجماعة كانوا طوال الثمانينيات والتسعينيات يفتخرون دائما بقتل السادات وكانت أحاديث كوادرهم تؤكد ذلك.. وهو ما دفعهم إلى استئنافهم العنف طوال الثمانينيات

والتسعينيات.. وحتى بعد أن أعلنت الجماعة مبادرة وقف العنف عام ١٩٩٧ فإن أفراد من الجماعة نفذوا مذبحة الأقصر التى جعلت سمعة مصر السياسية فى الأرض وضربت الاقتصاد فى مقتل .

والغريب أن كرم زهدى اعترف ببساطة أن جماعته هى التى ارتكبت مذبحة الأقصر ، بل إنه التمس العذر لمن ارتكبوها.. ففى حواره مع الشرق الأوسط يقول : لم تقع أى حوادث عنف تتحمل الجماعة مسئوليتها ، باستثناء حادث الأقصر الذى يبدو والله أعلم أنه كان بتكليف سابق على المبادرة بعدة أعوام نفذته عناصر كانت هاربة بالجبال والزراعات ولقيت حتفها فى موقع الحادث ولم تكن على دراية بما يحدث فى الداخل وصدور المبادرة عن القيادات التاريخية.

كان من الممكن أن نقبل ما يقوله كرم زهدى الآن.. خاصة وهو لم يبق على شيء من أفكاره التى كانت لو كانت يداه برئيتين من دم الأبرياء.. ولو لم يعتد على أموال وحرمات الآخرين.. كان يمكن أن نسمع له لو كان أحد أفراد الجماعة الإسلامية البعيدين عن العنف والبطش والتدمير.. لكنه ومن واقع أوراق قضية تنظيم الجهاد.. يظهر كرم سفاحا لا يتورع عن فعل شيء.. فأثناء حصار مديرية أمن أسيوط صباح عيد الأضحى يوم ٨ أكتوبر ١٩٨١ أى بعد يومين فقط من اغتيال السادات ، استقل كرم زهدى وعصام دربالة وغيرهما سيارة فيات ١٢٨ يقودها خالد حنفى وتوجهوا إلى منطقة الجمعية الشرعية حيث شاهدوا التحاما بين بعض جماعات التنظيم ورجال الشرطة فانضموا إلى زملائهم ، وحاول عصام دربالة إلقاء قنبلة فانفجرت فى يده وتناثرت شظاياها فى جسده فنقل إلى السيارة وتوجهوا إلى طريق الغنايم ولجأوا إلى الجبال ولكن السيارة غرزت فحاولوا البحث عن وسيلة أخرى لإنقاذ زميلهم إلا أن الشرطة شعرت بوجود السيارة فجاء النقيب وقبض على كرم زهدى وعصام دربالة وأرسلهما إلى المستشفى .

لم تقتصر مشاركة كرم زهدى على معركة أسيوط فقط.. ولكنه كان وراء فكرة سرقة محلات الصاغة التى يملكها الأقباط ولذلك قصة تستحق أن تروى : فقد خطرت فكرة جهنمية على رأس على الشريف عرضها على جماعة وجه قبلى أثناء اجتماعهم ذات مرة فى مدينة أسيوط ، قال على الشريف : ليس أمامنا سوى مهاجمة محلات الصاغة للمسيحيين وقتل من فيها والاستيلاء على محتوياتها ، كانت الفكرة مفاجأة فساد الصمت قليلا ثم قال ناجح عبد الله : هذا والله وحى السماء، فقال كرم زهدى : إنى أقترح أن نهاجم محلات الصاغة للمسيحيين الذين يتأكد لنا أنهم يساعدون الكنيسة ويمولون نشاطها .

وافق الجميع على الفكرة – والجميع هنا تعنى على الشريف وكرم زهدى وناجح عبد الله وفؤاد حنفى وعصام دربالة وعاصم عبد الماجد وحمدى عبد الرحمن وأسامة حافظ وطلعت قاسم – سافر كرم زهدى وفؤاد حنفى إلى القاهرة وهما يحملان هذا القرار إلى محمد عبد السلام فرج قائد التنظيم الذى قال لهما : على بركة الله فبدأ التنفيذ ، توجه كرم زهدى وعاصم عبد الماجد إلى بلدة الدلنجات بصحبة عبد السلام فرج واشتروا بمعرفة السائق على زكى ناصر بندقيتين بمبلغ ٢٧٠٠ جنيه ومسدسين بمبلغ ٦٠٠ جنيه وألف طلقة ، وفور عودتهم بالأسلحة والذخائر التقى كرم زهدى بعلى الشريف وكلفه بوضع خطة سرقة المحل الأول من محلات الصياغ المسيحيين .

حدد على الشريف بعض المسيحيين فى نجع حمادى يتاجرون فى الذهب وأختار يوم ٢٦ يونيو ١٩٨١ للتنفيذ وفى هذا الموعد أرسل كرم زهدى من المنيا سيارة بيجو يقودها إسماعيل البطل لينقلهم فيها إلى مسرح الحادث بنجع حمادى ، وفى الطريق وضعوا على وجوههم جوارب نسائية للتخفى وقفازات فى أيديهم لتلافى ترك البصمات.. وبالفعل سرقوا محلات فؤاد صادق غالى وفوزى اسكاروس ونبيه اسكاروس ، انتهت عملية نجع حمادى بنجاح ودون خسائر

وأحست قيادة التنظيم أن تكرار هذه العملية سيأتى لهم بالمال الوفير فكلف محمد عبد السلام فرج وعبود الزمر نبيل المغربى بجمع التحريات اللازمة عن محلات الصاغة المسيحيين فى شبرا الخيمة ، ونفذ التنظيم خطته بالفعل فى محل روما بشبرا الذى تملكه ميرفت شكرى راغب وهربوا بما سرقوا بعد أن قتلوا الموجودين فى المنطقة التى يقع فيها محل مرفت شكرى .

كانت المفاجأة أن ضباط المباحث الجنائية فى بعض الأقسام الذين تلقوا بلاغات عن هذه السرقات لم يخطر ببالهم أن اللصوص من نمط غير عادى ، وعندما فشلوا فى الوصول إليهم أقفلوا محاضرهم بتلبيس بعض المجرمين المعروفين لديهم هذه القضايا ، وعندما اتضح فيما بعد من هم الجناة الذين ارتكبوا السرقات فعلا أصبح أمام المحكمة أكثر من اعتراف على جريمة واحدة فلم تأخذ المحكمة بأى من الاعترافات ، معنى ذلك أن كرم زهدى خرج من القضية ليس لأنه كان برئياً .. ولكن لأن الأدلة تضاربت وأصبح الاعتراف الذى هو سيد الأدلة بلا قيمة.. والغريب أن هدف كرم زهدى ورفاقه لم يكن السرقة فقط .. لأنه لو كان هدفهم السرقة فلماذا قتلوا كل من كان يقابلهم أثناء سطوهم على المحلات.

بعد هذا التاريخ الدموى لكرم زهدى يعود إلينا بعد أن قضى أثنين وعشرين عاما فى السجن ليقول إنه نادم على ما جرى.. وأن من قتلهم وعلى رأسهم الرئيس السادات شهداء يدخلون الجنة ، وقبل أن نسأل كرم زهدى بعد أن ارتدى عباءة الإفتاء.. وما هو جزاء الذى يقتل شهيدا.. استدرك بأن من قتل من جماعته أيضا شهداء.. وهو كلام يحول الحوار إلى منطقة أكثر سخونة.. فطالما أن الجميع أصبحوا شهداء.. فمن الذى يتحمل الكوارث التى واجهتها مصر منذ رفعت الجماعة الإسلامية السلاح وراح ضحيته الآلاف.. ثم من الذى يتحمل عمر آلاف الشباب الذى ضاع فى المعتقلات والسجون.. وحرموا من أن يعيشوا أجمل سنوات عمرهم.. فقدوا مستقبلهم ولا أمل لديهم الآن . فحتى ولو خرجوا.. فمن الصعب أن يندمجوا بعد أن محيت شخصياتهم !

ثم وهذا هو المهم.. من هو كرم زهدى هذا.. ما هو قدره الفكرى والعلمى ؟! ما هى مؤهلاته العلمية حتى يجلس مستريحا يوزع البركات ويمنح من يشاء التوبة ويحرم من يشاء من المغفرة ؟! : ثم ما الذى يضمن للحكومة التى ترعى كرم ورفاقه وتمرر أفكارهم للناس ألا يتراجع كرم زهدى عن أفكاره التى يرددها الآن.. ثم ينقلب فينشر الفساد فى الأرض.. كما نشره قبل ذلك ؟! إن هذا التحول الجذرى مقلق للغاية.. فلم يترك كرم شيئا قاله قبل ذلك إلا وتراجع عنه.. حتى علماء الأزهر الذين رفضهم قبل ذلك واعتبرهم علماء للسلطة وخائنين وخارجين عن الدين.. أصبحوا الآن قدوة ومرجعية..

لقد كان كرم أيام شبابه طائشا.. ورغم أنه يؤكد الآن أنه قرأ واجتهد وفكر.. وعاد إلى رشده وصوابه فإنه لا يزال طائشا.. كلامه يؤكد ذلك.. فقد تحول من النقيض إلى النقيض من الفكر الدموى إلى فكر النفاق والممالأة.. من الحدة إلى اللين المبالغ فيه.. من سرقة أموال الأقباط واستحلال دمائهم إلى التودد إليهم.. والهمس فى أذانهم بأنه تغير وتبدل.. فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ..

إننا لسنا فى موقع من يقبل أو يرفض توبة كرم زهدى ومراجعات جماعته.. لأننا نعرف أقدارنا جيدا.. بالنسبة لله الذى يحاسب العباد وحده على أعمالهم.. فكلنا مذنبون بدرجات متفاوتة.. نحمل أوزارنا على أكتافنا ونمضى بها لا فارق فى ذلك بين إمام وداعية ولص سارق.. ويوم القيامة نقف جميعا بين يدى الله ليعطى كلا منا ثوابه أو عقابه.. ولذلك فلن نناقش حقيقة توبته.. نتركه فقط لله.. لكن ما نستطيع أن نقوله أن كلام زهدى ليس ملزما لأحد.. ومن حقنا أن نرفضه أنه ليس من حق أحد أن يكفرنا فى الوقت الذى يشاء.. ثم يعود ليعفو عنا فى الوقت الذى يحدده !

إن كرم زهدى يرسى بما فعله قاعدة لن يستطيع أن يتنكر لها .. فمن حق كل شاب أن يعتنق الأفكار التى يريدها.. يخرج بها إلى حيز التنفيذ يقتل ويسرق.. ثم

بعد أن يقتنع بأن أفكاره كانت خاطئة يعود ليعتذر.. ويا دار ما دخلك شر.. وما دامت الحكومة صدقت والصحف هللت فلماذا لا يفعلها الآخرون ، إن كرم زهدى يكذب- والكذب ليس جديدا عليه-عندما يحاول أن يوحى لنا أن الجماعة خاضعة.. فهناك من تمرد على كلامه وهؤلاء لن يلتزموا بمراجعاته.. وإذا خرجوا سنكون وقتها مضطرين إلى مواجهتهم مرة أخرى .

كان لابد أن يحاسب كرم زهدى بأقسى عقوبة وهى الإعدام لأنه قاتل.. لكن بسبب الثغرات فى القضية لم يحدث ذلك.. فليس من حقه الآن أن يصدر نفسه لنا بصورة الشيخ التائب.. لأن التائب هذه المرة قاتل.. والقاتل لابد أن يدفع الثمن أولا.. ثم يمكن أن نسمع له !

30

ضحايا

كرم زهدي

ضحايا كرم زهدى

ليس لدى موقف مسبق من المراجعات الفكرية الجذرية التى أعلنها كرم زهدى زعيم الجماعة الإسلامية ، فأنا لا أومن لا بالمواقف المسبقة ولا بالأفكار المعلبة.. فكل شيء عندى قابل للمناقشة والحوار والمراجعة.. وربما الهدم أيضاً.. لكن ما أخشاه هو المناورة.. لأن أعصابنا لم تعد تتحمل كوارث جديدة.. ومصائب تأتينا على أيدى الذين يصادرون الحقيقة ويعتقدون أن الله ملكهم وحدهم.. يصدرونه للناس وقتما يشاءون ويحجبونه عنهم عندما يريدون !

وضعت مائه علامة استفهام على توبة كرم زهدى وإعلانه التراجع التام والحاسم والجذرى عن كل مواقفه السابقة.. وتبرئه من كل أفعاله السابقة التى وصلت فى جرمها إلى أن الشياطين نفسها تتورع عن ارتكابها.. لقد قتل بنفسه.. وشارك فى سرقة محلات الذهب التى يملكها الأقباط.. وبارك اغتيال السادات.. وكان يخطط لتحويل مصر إلى مقبرة جماعية يدفن فيها مع جماعته كل من يقول له لا.. أو يخرج على الخط الذى رسمه بعناية.. على ضوء آراء ضالة.. توصل إليها بعد قراءة بعض الكتب دون أن يكون مؤهلا للاجتهاد.. كل ذلك يجعلنا نضع أيدينا على قلوبنا ونحن نستمع إلى اعترافاته.. وننظر بريبة إلى ملامح وجهه التى يحاول جاهداً أن يرسم عليها علامات البراءة .

لم يمنع هذا أن نقدر الجهود التى بذلت لتخرج هذه المبادرة إلى النور.. فلم يتراجع كرم زهدى لمجرد أنه أراد ذلك.. فقد كان هناك تمهيد نفسى له وإعداد علمى خضع له لجو عام توافر له ولرجال جماعته فى السجن.. حتى يقرأوا

بروية ويبحثوا بهدوء.. ليخرجوا بعد ذلك بآراء سليمة معتدلة تستقيم مع صحيح الدين وتتناغم مع مقاصد الإسلام السمح كما جاءت من السماء.

لكن يظل أمامنا سؤال مهم للغاية ، فهل تكفى توبة كرم زهدى وحده حتى تستقر الأمور.. هل تراجعه عن أفكاره السابقة وتأكيده أن السادات مات شهيداً فى قتال الفتنة وأن كل من سقط من أعضاء الجماعة أو أفراد الشرطة فى المواجهات التى دارت بينهما شهداء.. هل يكفى هذا ؟ وهل يمكن أن نعتبر أن كل شيء انتهى لمجرد أن كرم زهدى صرح أن التحديات العالمية التى يواجهها الحاكم حاليا قد تجعله معذوراً فى عدم تطبيقه لبعض أحكام الشريعة وأنه لا قدسية لشيء سوى القرآن والسنة ؟ . وهل آن لنا أن نستريح لمجرد أن كرم زهدى قال إن الأقباط لهم ما لنا وعليهم ما علينا ؟!

لقد تحدث كرم زهدى فى حديثه إلى جريدة "الشرق الأوسط" السعودية الذى انفرد به عبد اللطيف المناوى فى سجن العقرب شديد الحراسة بمنطقة طرة بجنوب القاهرة عن رد فعل مراجعاته وتوبته على الجماعة.. وأكد أنه لن تحدث أية إنشقاقات بسببها.. بل قال : لم يحدث قبل ذلك أى انشقاق داخل الجماعة ولن يحدث لأن الجماعة كلها على قلب رجل واحد ولأننا نصل إلى الدليل الصحيح على ما نقول من الكتاب والسنة بل إن عبد اللطيف المناوى نفسه حاول أن يؤكد هذه الصورة وأن هناك إجماعاً من أفراد الجماعة على كرم زهدى وذلك عندما كتب.. دخل زهدى وفى يده مجموعة من الأبحاث التى أعدها ، ويجرى الانتهاء من اجراءات طبعها ، وعقب الحوار اصطحبنا ضباط السجن فى جولة داخل عنابر المساجين التى يتوسطها ملعب لكرة القدم وآخر للسلة كان يلعب به فريقان من المساجين ، ولدى اقترابنا منهم سواء فى الملعب أو داخل الزنازين وكذلك فى ورش العمل لاحظنا بوضوح علامات الاحترام الشديد والتوقير لزعيم الجماعة .

ما يؤسفنى أن كلام المناوى قد يكون صحيحاً فى جزء منه فقط.. فليس معنى أنه رأى عدداً من أعضاء الجماعة يحترمون ويوقرون كرم زهدى أن هذا موقف

أعضاء الجماعة كلهم وهم ينتشرون فى عدد كبير من سجون مصر.. وحتى تكون الصورة واضحة.. فقد زلزت مراجعات كرم زهدى الأرض تحت أقدام مئات الشباب من أعضاء الجماعة.. أحسوا أنهم أضاعوا زهرة شبابهم هدراً فى ظلمات السجون .

لقد تعاملت الحكومة مع الجماعة الإسلامية طوال الثمانينيات والتسعينيات بفكرة تجفيف الينابيع ، فحصدت بذلك عدداً كبيراً من الشباب الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاما.. كان يمكن أن يصبحوا فى غمضة عين بروفات لقيادات فى جماعة تقتل وتسرق باسم الله ، دخل هؤلاء السجون وتربوا على فكر الجماعة داخلها.. رفضوا كل محاولات إقناعهم بخطأ توجههم وبأنهم على باطل.. وأن فى الإسلام وجهاً رائعاً وجميلاً يمكن أن يركنوا إليه.. كانوا ينظرون إلى كرم زهدى ورفاقه على أنهم القدوة والمثل الذى يجب أن يحتذوا به ويسيروا على خطاه .

كانوا يتبادلون أفكاره فى جلساتهم الخاصة.. مرت عليهم أكثر من عشر سنوات فى السجن وهم ينتظرون اليوم الذى يخرجون فيه كى يحققوا الحلم الذى أوهمهم به كرم زهدى ورفاقه ، لكن وفى غمرة أحلامهم. وجدوا كرم زهدى يقول لهم.. لقد كنت مخطئا وكانت أفكارى السابقة مجرد طيش شباب.. لم أكن مدركاً ولا مستوعباً ما أقوله .

لست متعاطفاً مع هؤلاء الشباب فقد منحوا عقولهم على بياض لكرم زهدى ، ولكل من حاول خداعهم باسم الدين.. لكن أرصد فقط ما حدث.. كانت الصدمة شديدة للغاية.. خلعتهم من الثقة التى يعيشون بها ويقطعون من خلالها أن نصر الله قريب.. وأنهم سيخرجون يوما ليحكموا ويتحكموا.. ولذلك لم يكن غريباً أن تتغير سلوكيات عدد كبير من أعضاء الجماعة الشباب.. لقد بدأ بعضهم فى التدخين وشرب السجائر بشراهة.. وأصبح معتاداً أن تجد أحد أعضاء الجماعة يسب ويلعن رفاقه بألفاظ نابية.. بل إن الكارثة الكبرى أن بعض جلسات أعضاء

الجماعة تحولت بقدرة قادر من الحديث عن أحوال الأمة الإسلامية ودارسة القرآن والسنة إلى الحديث عن الأحلام الجنسية والرغبات المكبوتة.. فعلوا ذلك ويقتلهم شعور أن كرم زهدى خانهم.. وباع أحلامهم بثمن بخس !!

والمصيبة أن كرم زهدى فشل فى استيعاب هؤلاء الشاب.. خرجوا من حظيرته بسلوكياتهم.. ولم يستطيع أن يعيدهم إليها ، فبعد مراجعات الجماعة التى أعلنها قادتها.. قاموا بجولة ضخمة على كل السجون.. التقوا فيها بشباب الجماعة حتى ينقلوا إليهم الأفكار الجديدة لتصبح دستوراً جديداً يدينون به دون مناقشته.. حاول قادة الجماعة أن يكون جو اللقاءات ديمقراطياً.. كل شاب يقول ما يريده.. يسأل الأسئلة التى يرغبها.. وبالفعل كتب شباب الجماعة مئات الأسئلة.. أجاب كرم زهدى عن الأسئلة التى أرادها فقط.. وتجاهل كل الأسئلة التى أقلقته وأرقته.. سأله شاب قائلاً : لقد قضيت فى الجماعة اكثر من خمسة عشر عاماً من عمرى خدمتها بكل ما أملك.. خرجت عن طاعة أبى وأمى لأن الأمير أمرنى بذلك.. هجرت منزلنا.. نفذت كل ما طلب منى بأمانة ودقة.. لم أتوان عن تقديم أى شيء حتى لو كان مرهقاً.. كنت أنظر إلى قيادات الجماعة بإجلال وتوقير.. وفى لحظة قلتم لنا إن كل ما كنا نؤمن به باطل.. فكيف لنا أن نصدقكم بعد ذلك.. وماذا سيحدث لو غيرتم رأيكم مرة أخرى وقلتم أن الآراء التى توصلتم لها الآن خاطئة.. هل ستطالبوننا أن نقتنع بما تقولونه وقتها؟

شاب آخر من الجماعة كان أكثر صراحة كتب لكرم زهدى يسأله عمن سيدفع ثمن عمره الذى راح.. لقد قبض عليه وهو فى الخامسة عشر من عمره.. قضى فى السجن حتى الآن اثنا عشر عاماً.. أى أن عمره الآن سبعة وعشرون عاماً.. حرم من كل متع الحياة.. افتقد أهله وأصدقاءه.. هذه السنوات التى ضاعت.. من سيدفع ثمنها.. وكيف سيحاسبه الله عليها يوم القيامة.. هل ستكون فى ميزان حسناته.. أم ستكون وبالاً عليه ؟ هذه عينة فقط من الأسئلة التى رأى كرم زهدى أنها ستثير على مبادرته غباراً كثيفاً فتجاهلها بشدة.. وكان تجاهله

خطأ شديداً.. فقد أضاف بذلك إلى صدمة الشباب فيه صدمة جديدة ، فقد شعروا أنه يتعالى عليهم ويسخر من أوجاعهم التى يشعرون بمنتهى الصدق والألم.

لقد أصدر كرم زهدى كتاباً هو "نهر الذكريات" تناول فيه الأسئلة العديدة والحائرة التى تلقاها من شباب الجماعة.. كما ركز فيها على تفاصيل ووقائع ما جرى فى جولاته فى السجون.. وهى الذكريات - كما يقول - إلى الطريق الذى أعده ورفاقه وجماعته إلى القرار الشرعى الصحيح .. لكن هل سيجرؤ كرم زهدى على تضمين كتابة الأسئله التى لم يجب عنها .. هل سيحدثنا عن الأفكار الحائرة التى طرحها الشباب عليه ولم يتطرق إليها .. وهل سيكون شجاعاً ويقول لنا لماذا لم يقترب من هذه الأسئله .

دعونى أقول إن كرم زهدى الذى حصد الأضواء وحده.. واستحوذ على الاهتمام الإعلامي بمفرده ليس مؤهلا بما يكفى ليقود الجماعة الإسلامية إلى الاندماج فى المجتمع.. فلم يعد بالتأثير الكافى والقوى الذى يجعل آلاف الشباب يقتنعون بأفكاره الجديدة .. لأن التحول كان حاداً لم يستوعبه هؤلاء الشباب.. لم يعد القائد الملهم الذى ينظر له الشباب بمهابة ووقار ليسمعوا كل ما يقوله.. بل أصبح كرم زهدى فى مرمى الهدف.. يخضع كلامه كله للمناقشة والحوار والاعتراض .. ولا مانع فى النهاية أن يرفض كله .

لقد انقسم شباب الجماعة الإسلامية على سبيل المثال فى سجن استقبال طره إلى ثلاثة أقسام.. قسم اقتنع تماما وأيد كله ما قاله زعيم الجماعة لأن مبدأ السمع والطاعة تمكن منهم ، وقسم أخذ يناقش ويفسر ويحلل وفى النهاية تحفظ على كثير مما قاله كرم زهدى لكنهم فى النهاية لم يستطيعوا أن يخلعوا عباءة الجماعة عنهم.. وهم الآن فى انتظار المكاسب التى سيجنونها والتى لن تقل عن خروجهم وحصولهم على حريتهم والعودة مرة أخرى إلى الحياة الطبيعية يواصلون تعليمهم ويعملون ويتزوجون وينجبون ويفتحون بيوتا بعد أن يبدأوا حياة جديدة.. أما القسم الثالث فقد حسم القضية مع نفسه تنازل عن سنوات عمره طواعية وخلع رداء

الجماعة .. ورأوا أنهم كانوا مخدوعين ولابد أن يأخذوا قراراً ليحافظوا به على البقية الباقية من حياتهم قبل أن تضيع.. الأقسام الثلاثة على اختلاف توجهاتهم ضحايا لكرم زهدى ورفاقه.. فى المرة الأولى كانوا ضحايا لأفكار العنف والتطرف التى أوردتهم السجن.. وفى المرة الثانية كانوا ضحايا الهزة النفسية التى اقتلعتهم من أفكارهم التى آمنوا بها وجعلتهم مترددين وغير قادرين على اتخاذ أى قرار ولو بسيط .

وهنا تحديدا تأتى ضرورة المصارحة والشفافية فيما حدث.. فالمراجعة فى حد ذاتها أمر مطلوب وجهد لا نستطيع أن ننكره.. ومن المؤكد أن الذين وقفوا وراءها كانوا يضعون فى أذهانهم وهم يعملون أن عودة الجماعة الإسلامية والجماعات الأخرى التى رفعت الإسلام شعاراً لتحقيق أهدافهم السياسية.. لو عادوا مواطنين عاديين وصالحين فسوف نربح جمعياً فتصرفاتهم الهوجاء العشوائية كانت وراء خسارة مصر مادياً ومعنوياً ، وما زالت آثار عدوانهم على كل مظاهر الحياة تمثل عقبة فى طريق تقدمنا نعالجها طامعين أن تتغير صورتنا.. وأن نمحو عن إسلامنا أنه دين عدوان وعنف وقتل ، وهذا هدف نبيل فى حد ذاته.. لكن مازال يحتاج لبعض الجهود التى ليست بعيدة عمن قاموا بدفع مراجعات الجماعة الإسلامية إلى نهاية الطريق الأمن.. وعبروا بها من خانة الأحلام والأمنيات إلى الواقع .

إن الشباب الذى تخلفوا كضحايا لمراجعة كرم زهدى وتوبته أولى بالرعاية الآن.. لقد خلع بعضهم رداء الطاعة لزعيم الجماعة.. ولابد أن يتم استيعاب هؤلاء.. أن تعقد لهم لقاءات يطرحوا فيها أفكارهم ولا يتم الاقتصار فى هذه اللقاءات على علماء الدين وشيوخ الأزهر الذين يحملون فى عقولهم خطابا ثابتاً متجمداً لا مرونة فيه.. ولكن لابد أن يحتكوا بمفكرين وكتاب من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية.. الفكرة تقابلها فكرة .. والرأى يقابله رأى.. حتى

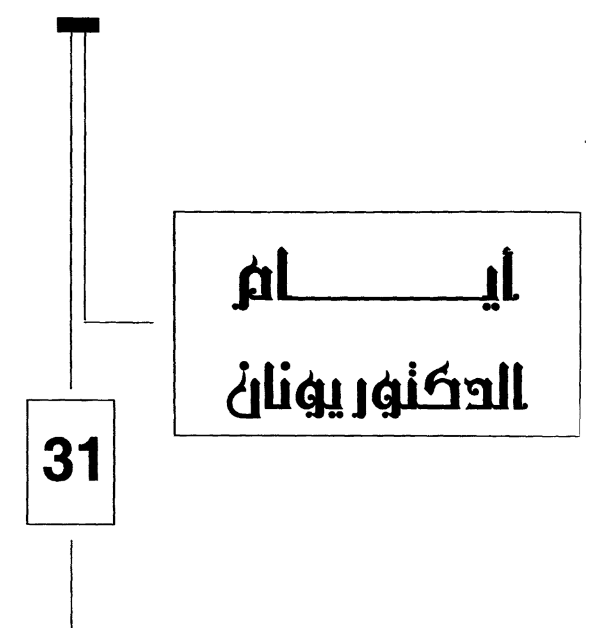
يصبح الجميع مقتنعين تماما بالفكرة الجديد والرؤية المعاصرة.. بدلاً من أن ينقادوا وراء رأى شخصى فى كلامه كثيراً من الريبة .

إن الخطأ أن يتم التعامل مع شباب الجماعة الإسلامية بمنطق القطيع.. فليس عليهم إلا أن يسمعوا ثم يعلنوا الطاعة.. لقد تغيرت الأحوال ، والقهر الفكرى ليس له مكان الآن إن شباب الجماعة الإسلامية يتابعون ما يحدث بالخارج ويعرفون التغيرات التى طرأت على الجميع.. وليس من السهل أن يقال لهم.. كونوا معتدلين.. فيصبحوا معتدلين بإشارة واحدة.. وقد جعلتهم سنوات السجن الطويلة يفكرون فى حياتهم وأفكارهم ومسلكهم ، فقد كثير منهم الثقة فى القيادات التى أصبحت تاريخية للجماعة.. ولذلك فليس من المنتظر أن يحدث كلام كرم زهدى أو غير كرم زهدى تأثيراً هائلاً ، كما يتصور البعض ، والخوف أن يظهر بعض الأعضاء اقتناعا ظاهراً حتى يخرجوا من السجن.. وبعد أن يخرجوا بسنوات نفاجأ أنه علينا مواجهة كارثة جديدة.. يقودها شباب جديد.. وتدور الدائرة من جديد ويصبح مطلوبا منا أن نواجه بقوة وعنف وننفق الملايين ثم نجاهد من أجل إعادة هؤلاء الشباب إلى حظيرة المجتمع مرة أخرى .

الحل سهل للغاية ونستطيع أن نقوم به وسيوفر علينا ما لا طاقة لنا به مادياً ومعنوياً .. إن الأجيال الجديدة سواء داخل السجون أو خارجها يحتاجون لمن يسمعهم .. لمن يتعامل معهم على أنهم شخصيات لهم أراء وأفكار وأحلام.. شباب الجماعة الإسلامية فى السجون تحديداً لهم شأن خاص ، فهم حريصون كل الحرص على مواصلة تعليمهم.. وبعضهم يحصل على الماجستير والدكتوراة.. وهو ما يؤكد أن لديهم رغبة فى الاستمرار والمشاركة.. ويمكن لنا أن ننجح فى تحويل طاقاتهم هذه من طاقات مدمرة ومرعبة وكارهة للمجتمع.. إلى طاقات بناءة وفعالة ومساهمة فى ترقية المجتمع. كفانا ما أحدثه كرم زهدى.. تاب فليقبل الله توبته ويحاسبه كيفما يشاء فى الآخرة.. فهو وحده القادر على الغفران وقبول المذنبين.. لقد كان مستفزا أن يتم تصدير كرم زهدى على أنه حارس لباب الجنة

يمنح من يشاء مقعداً فيها .. ويطرد من يرغب من نعيمها.. لقد ظهر خطابه السياسى وبه كل عيوب خطاب الجماعة الإسلامية السابق.. يتحدث بيقين كامل لا يتزعزع.. لا احتمال عنده للخطأ.. ولا قبول لنقاش.. فكل ما سيقوله يطاع .. لن تحدث انشقاقات.. ولن يخرج أحد عليه.. وهو كلام غير منطقى عفا عليها الزمن.. فلا شيء الآن غير قابل للنقاش.. ولا شىء يمكن أن يمر دون أن نقف عنده .. نتأمله ونراجعه .. ويكون لدينا الحق بعد ذلك لنقبله أو نرفضه .. فليس مفروضا علينا أن نصبح عبيداً فى سوق الأفكار.. يقودنا فيها من صادروا الحق فى الكلام والفتوى لأنفسهم !

إننا لا نرفض مراجعات الجماعة الإسلامية .. بل على العكس كنا ننتظرها .. لم نكن لنحتفل بها كما فعل الآخرون ، ولكننا تحفظنا عليها عندما جاءت.. لأننا مع من يعملون كجنود مجهولين نخاف على هذا الوطن ، ونعمل له ألف حساب ونخشى عليه من الهواء الطائر ، كما يقولون ، ولأن ما فعله أعضاء الجماعة الإسلامية وقادتها لم يكن هواءً طائراً.. ولكن تفجيرات وقتل وسرقة وسحل أبرياء.. وقضاء على اقتصاد.. وتشويه سمعة فى كل مكان فى العالم فكان من حقنا أن نتردد فى قبول كل ما يصدر عن هذه الجماعة ، إننا لم نتحسس أسلحتنا ونحن نتعامل مع الجماعة الإسلامية.. لأنه ليس معنا أسلحة.. بل طرحنا أفكارنا.. وهى أيضا قابلة للمناقشة والحوار والرفض.. فأنا - كما قلت ضد المواقف المسبقة.. والأفكار المعلبة.. ومحاولات خداعنا باسم الدين .


أيام
الدكتور يونان
31

أيام الدكتور يونان

في عام ١٩٩٥ أصيب يونان لبيب رزق بجلطة في القلب ، دخل مستشفى عين شمس التخصصي للعلاج ، وكانت المفاجأة أن تلاميذه من كل الأجيال والمدارس الفكرية توافدوا عليه لزيارته والاطمئنان عليه ، يومها قالت له زوجته "يا سلام لم أكن أعرف أن الناس تحبك إلى هذه الدرجة" ما لم تصدقه زوجة يونان هو الواقع فعلا .. فالرجل الذى يعيش حاملا على كتفيه سبعين عاما- مولود عام ١٩٣٣ – لا ينقطع سؤال تلاميذه عنه ، أنجب بنتين فقط.. لكنه يملك مئات التلاميذ.. يعيش بهم وبسؤالهم عليه.. أو كما يقول هو نفسه ، أنا رجل مريض بالقلب الآن.. وعندما يتصل بى واحد من تلاميذى ويقول لى كلمة واحدة.. أشعر أن معنوياتى أصبحت فى السماء"

يونان لبيب رزق ابن لأسرة متوسطة جاهدت من أجل أن يصبح أبناؤها محترمين.. ولما كان التعليم هو الطريق الوحيد لكسب هذا الاحترام ، فقد تعلم يونان حتى أصبح اليوم واحدا من المفكرين الكبار فى مصر ، مات أبوه وهو ابن ست سنوات ، انكفأت أمه التى لم يكن يتجاوز عمرها الرابعة والثلاثين على تربيته هو وأخوته ، ورغم أنها لم تكن قد حصلت على أية شهادات.. لكنها كانت تدرك قيمة الشهادة فى أيدى أبنائها.. وعندما أصبح يونان على باب الجامعة ، لم تكن تهتم بأية كلية سيدرس ، لكنها اهتمت فقط بأن يدرس فى الجامعة .

يوزع يونان وقته الآن بين مكتبه فى كلية بنات عين شمس.. ومكتبه فى جريدة الأهرام التى يكتب لها ديوان الحياة المعاصرة التى وصل فى حلقاته إلى ٥٠٠أكثر من حلقة سجل خلالها تاريخ مصر السياسى والاجتماعى من واقع صحيفة "الأهرام" التى يمتد عمرها لأكثر من قرن وربع القرن جلست معه بعد أن راجع الحلقة ٥٠١ وسلمها للمطبعة فى تمام الساعة الواحدة.. وبعدها امتد بيننا

الحوار الذى شهدته د. لطيفة سالم أستاذ التاريخ الحديث بآداب بنها ، التى قدمت للدكتور يونان لتراجع معه بروفات الكتاب التذكارى الذى تشرف على إعداده مع مجموعة من تلاميذ د. يونان والذى صدر بمناسبة وصول الرجل إلى سن السبعين من عمره المديد .

على خليفة حجب جائزة مبارك للتفوق عنه عام ٢٠٠٣ حصل د. يونان على هذه الجائزة فى العام التالى ٢٠٠٤ ، كان الحديث ساخنا قال لى : حصلت على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٥ وكان مرشحاً معى وقتها د. عائشة عبد الرحمن ووقتها كتبت مجلة الهلال بالنص على غلافها.. عادت الجوائز إلى مستحقيها.. وقد كتبت ذلك لأنه فى عام ١٩٩٤ كان د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب ود. عاطف صدقى رئيس مجلس الوزراء قد حصلا على جائزة الدولة التقديرية واعتبرت الصحف أنهما لا يستحقانها – أنهما فى مناصب رسمية ، وفى هذا العام كان مرشحا للجائزة د. فتحى سرور وإبراهيم نافع رئيس تحرير "الأهرام" بالإضافة إلى ثلاثة عشر مفكرا من بينهم د. إسماعيل صبرى عبد الله ود. أحمد كمال أبو المجد ، مع الأسف الشديد فالدكتور سرور مارس ضغوطا شديدة على لجنة التصويت ، وقد أشارت بعض الصحف إلى ذلك ، فهذا الضغط كان له رد فعل عكسى على اللجنة.. ولذلك حجبت اللجنة الجائزة لأننى ود. سرور ونافع تمت المساواة بيننا فى الأصوات.. ولأول مرة تصفق اللجنة كلها رغم أن الجائزة حجبت.. على الرغم من الضغوط الضخمة التى مارسها د. سرور.. فإن اللجنة لم تخضع..

البعض يرى أن د. يونان حجب الجائزة عن د. سرور والبعض الآخر يرى العكس وهو أن د.سرور هو الذى حجب الجائزة عن د. يونان ، وفى الحالتين فإن د. يونان سعيد للغاية رغم أنه لا يملك سوى قلمه فإن الرؤوس جمعيا تساوت ، فالمثقفون أخذوا منهم رمزا رفضوا من خلاله منح الجوائز للسلطة .

قلت الدكتور يونان لكن لماذا فى رأيك يصر بعض العاملين فى السلطة والمسيطرون على مناصبها على حصد جوائز الدولة ؟ قال بسخرية.. ما يحدث أشبه بما قاله نجيب الريحانى فى فيلمه "أبو حلموس" شىء لزوم الشىء ،

فالسياسى عندما يصل إلى السلطة يشعر أن كل شيء أصبح عنده سهلا ، ومن الضرورى أن يحصل عليه ، ولو كان فتحى سرور خارج السلطة الآن لكان حصل على الجائزة من باب أنه أستاذ فى القانون ، لكن وهو فى السلطة ما كان يجب أن ينافس الذين لا يحملون سوى أقلامهم فاستخدام النفوذ بالشكل الذى جرى على يد د. سرور فى الضغط على أعضاء اللجنة أساء جدا لصورة السياسى.. ولست أرى ذلك وحدى.. فكثير من المثقفين المصريين يرون ذلك أيضا .

الحديث عن الجوائز لم يشغل د.يونان عن عمله الأساسى.. فهو مؤرخ من طراز رفيع.. وضع بصماته على التاريخ عندما قدمه للقارئ العادى.. وقد ظهر هذا فى حلقات "الأهرام".. ديوان الحياة المعاصرة" .. الذى له هو الآخر قصته.. فعندما عقد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١كان د. يونان عضوا فيه ، قابل هناك لطفى الخولى الذى فاتحه فى تحرير صفحة تاريخية للأهرام ، لم تكن معالمها واضحة، رحب يونان بالفكرة فعلاقته بالصحافة كانت قديمة للغاية بدأها وهو طالب فى الجامعة ، كان أمله أن يصبح صحفيا ، كتب أول مقال نشرته له مجلة الهلال عام ١٩٦٥ ، ثم تعامل مع الأهرام من خلال مجلة السياسة الدولية عام ١٩٦٩، ولا يعرف د. يونان حتى الآن لماذا تعامل مع الأهرام والهلال دون غيرهما.. قد تكون المصادفة وقد يكون القدر .

كان د. يونان لبيب رزق قد أصدر كتابا عن طابا عام ١٩٨٩ عن مركز التأليف والترجمة والنشر ، وضع فيه خلاصة تجربته فى اشتراكه فى لجنة التحكيم المصرية الخاصة بطابا ، نشرت الأهرام الكتاب على حلقات.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتعامل فيها يونان مع القراء بشكل أسبوعى.. وكانت تجربة مهمة تعرف من خلالها على رد فعل القراء بسرعة ، وهو ما حدث مع يونان أيضا عندما كتب مع لطفى الخولى فى صفحة الحوار القومى.. فبعد فرج فودة كتب يهاجم تسيس الدين.. فهاجمته الجماعات المناصرة للتيار الإسلامى.. وفرضت عليه الحراسة لمدة عامين.. بل وضع اسمه على قائمة اغتيالات الجماعات الأصولية .

ولأن "الأهرام" حباله طويلة فلم يدخل اقتراح لطفى الخولى حيز التنفيذ إلا عام ١٩٩٣ أى بعد عامين من حديثه مع يونان فى مدريد ، اتصلوا بـ "الأهرام" من اليونان وعملوا معه عقداً فى أول أبريل ١٩٩٣ ونشرت أولى الحلقات بعد حوالى شهرين ونصف الشهر وتحديدا فى ١٥ يوليو ١٩٩٣ ، بدأ العمل فى غرفة واحدة مع بعض الباحثين والآن يجلس د. يونان فى غرفة مستقلة بينما يجلس المساعدون له فى حجرة أخرى ، لم يكن هناك تخطيط مسبق لشكل ديوان الحياة المعاصرة ، بل إنه مع الحلقات الأولى لم يكن لدى د. يونان تصور أن يتم هذا التداعى للحلقات حتى تصل إلى ٥٠٠ حلقة .

يرصد د. يونان أعداد "الأهرام" عاما بعد عام.. يضع الباحثون معه أيديهم على أهم الموضوعات والصفحات والقضايا.. يرصدون معالجة الأهرام لكل قضية.. يصورون الصفحات كاملة.. ثم يصب ذلك كله عند د. يونان الذى يقرأه بعناية ويراجعه ثم يكتب الصيغة النهائية للحلقات التى يقرأها الناس صباح كل يوم خميس فى جريدة "الأهرام".. ورغم أن هناك من يهاجم د. يونان باعتباره يدافع عن الأهرام فى كثير مما يكتبه . فإنه يقول : أنا أتعامل مع الأهرام بصفتى أستاذ تاريخ وقد دخل فى روعنا خطأ أن التاريخ هو تاريخ الملوك.. لكنى أراه حركة البشر.. فى الحوادث والإعلانات.. والتفاصيل الصغيرة وهذه أحرص عليها وأنشرها.. والغريب أن بعض من يتابعون ما اكتبه تصوروا فى البداية اننى جئت لأجامل الأهرام لكنهم فوجئوا أننى أهاجمها فى مواطن ومواقع كثيرة !.

ولأن الكلام عن التاريخ يجر بعضه بعضا.. وجدتنى أسال د. يونان عما يكتبه جمال بدوى عن تاريخ مجلة "المصور" فى مجلة "المصور" وهى شيء ما يفعله د. يونان فى الأهرام.. لكننى وقبل أن أكمل وجدته يقول لى : بلاش نتكلم عن جمال بدوى حتى لا نغلط.. طويت صفحة جمال بدوى بسرعة وحولت دفة الحديث إلى من يكتبون التاريخ فى مصر.. وتركته يتحدث قال : مشكلة التاريخ أنه يكتبه هواة كما يكتبه المحترفون.. وهى مشكلة قديمة من أيام عبد الرحمن الرافعى الذى كان يعمل محاميا وكتب التاريخ وكأنه مرافعة فى قضية وكلته فيها

مصر باعتبارها مذنبة ، والمشكلة أن الطبيب لو كتب فى التاريخ فهو شيء عادى ، لكن المؤرخ لا يستطيع أن يفتح عيادة مثلا .

وما يلفت الانتباه - والكلام مازال مع يونان - أن الهواة الذين يكتبون التاريخ فى الغالب دمهم خفيف فهم رجال قانون ومحامون وصحفيون ، فجمال بدوى مثلا يكتب فى التاريخ كصحفى وغلب عليه الطابع الصحفى مما أبعده قليلا عن روح المادة العلمية ، وهناك بعض المؤرخين الذين كتبوا فى الصحف وكان ما يكتبونه مقبولا ومنهم د. محمد أنيس ود. عبد العظيم رمضان ومحمد صبرى السربونى وشفيق غربال ، واعتبر نفسى من هذه الفئة ، وكل واحد من المحترفين كان يجتهد من خلال رؤيته الخاصة للتاريخ ، فأنا اجتهد من خلال الصحف.. ومحمد أنيس اجتهد من خلال المذكرات.. والسربونى وغربال عالجوا القضايا العامة .

هذه الرؤية جعلتنى أطلب من د. يونان أن نركز سويا فيما كتبه المؤرخون الهواة وهم كثيرون منهم صلاح عيسى ومحمد عودة ورفعت السعيد وطارق البشرى.. ظل حذرا ، ففى رأيه أن الكتابات التى أبدعها هؤلاء تحظى باحترام.. ويمكن للقارئ العادى والمؤرخ أن يستفيد منها.. وإن كانت هناك بعض الملاحظات فطارق البشرى أجهد نفسه فى كتابه "الحركة السياسية فى مصر من ١٩٤٥-١٩٥٢" وخرجت الطبعة الأولى منه بوجهة نظره اليسارية ، لكنه عندما أصدر الطبعة الثانية من الكتاب ضمنها وجهة نظرة الإسلامية التى تحول إليها ، بل أنه خصص ٧٠ صفحة كاملة فى بداية الطبعة الثانية ليفسر تحوله ، احترام د. يونان لكتابات الهواة ليست مطلقة.. فهناك كتابات لا تحظى باحترامه.. لأنها ليست تاريخا.. قدر ما تعبر عن سرقة ولصوصية .

حاول يونان رزق طوال حياته أن يكون بعيدا عن السياسة ، فبحكم نشأته فى أسرة تنتمى للطبقة الوسطى الصغيرة وبحكم تأثره بكتابات سلامة موسى انحاز للفكر اليسارى ، وقد بدا هذا الانحياز واضحا فى كتاباته حتى الآن ، لكن الانحياز لم يتحول فى أى وقت إلى الانخراط فى العمل التنظيمى لأى من الجماعات

السياسية علنية أو سرية ، ربما كان ذلك بسبب خوفه من الاعتقال أو التعذيب الذى كان يتابع أخباره.. أو ربما كان موقفه السياسى ذلك رغبة منه فى الاحتفاظ بحريته فى اتخاذ المواقف تبعا لما تمليه عليه أفكاره دون الخضوع لقيود تنظيمية قد تحد من حريته .

هذا الموقف السياسى جعلنى أدخل د. يونان إلى حكمه على رؤساء مصر.. لم يسهب فى الكلام خطوط عريضة فقط أشار بها دون تفصيل قال : جمال عبد الناصر جاء فى ظرف حركة تحرر وطنى فى العالم كله ، مد عربى هائل.. ولأنه كان ذكيا فقد تفهم كل هذه الحقائق واستثمرها فاكتسب كاريزما هائلة ، أما السادات فقد جاء وجزء من الوطن محتل.. كفة الميزان كانت عند أمريكا بعد أن انتهت الحرب الباردة ولم يكن فى استطاعة السادات أن يصبح نسخة مكررة من عبد الناصر لأن الظروف كانت مختلفة تماما.. وما يؤكد كلام د.يونان ما قاله بنفسه : سمعت الرئيس مبارك مرة يقول لو كان عبد الناصر مكانى لم يكن ليأخذ إلا القرارات التى أخذتها ، ولذلك فإن تصور أن يأتى عبد الناصر مرة أخرى فى ظل الظروف الحالية ويتبع نفس سياسته هو تصور مستحيل.. فالآن لا حركات تحرر ولا قادة كبار ولا زعماء يملكون كاريزما.. الدنيا بحالها تغيرت! .

الشيء الذى لم يتغير عند يونان هو علاقته بتلاميذه.. الذين بهم بدأنا وبهم ننهى حديثنا معه ، لقد تتلمذ يونان على يد د. أحمد عزت عبد الكريم .. كان رجلا ربع القامة يرتدى نظارة سميكة يبدو من خلفها صارما أشد الصرامة .. ولكنك بمجرد أن تقترب منه تشعر أنه أب حنون.. يقول عنه : لقد مارس معنا د. عبد الكريم أستاذيته بأسلوب رائع وعندما كنا نشكره كان يقول لنا إن ما يفعله هو أداء لدين أساتذته فى رقبته يؤديه لتلاميذه.. ولذلك فإن كثيرين من تلاميذه عندما أعطيهم بلا مقابل.. لا يدركون أنى أيضا أودى دينا فى رقبتى لأستاذى أحمد عزت عبد الكريم .

الفهـــــرس



مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ٤٨٢٧٨٥١





محمد الباز

كل منا يسير وقدره بين عينيه..

نتحمل أخطاءنا وندفع ثمن زلاتنا .. نقابل فى هذه الحياة كثيراً من الملائكة وكثيراً من الشياطين .. نحلم بعالم بلا شرور..

لكنها أمنية مستحيلة.. ومن خلال مئات الشخصيات التى يتعرض لحياتها وأفكارها الكاتب الصحفى محمد الباز فى هذا الكتاب..

يمكن أن نفهم بعضا من ألغاز هذه الحياة التى نعيشها..

ليس لدينا حكم سابق على أحد..

أنت نفسك تستطيع أن تحكم على أبطال هذا الكتاب

من منهم يسكن ساحة الملائكة.. ومن منهم يعيش بين الشياطين


Bibliotheca Alexandrina
05666442

تصميم: عمرو عطوه